رواية

ميلان كونديرا

كائن
لا تُحتمل خفّته

ترجمة: ماري طوق



ميلان كونديرا

كائن لا تُحتمل خفّته

رواية

ترجمة

ماري طوق

@ketab_n

المركز الثقافي العربي

ميلان كونديرا

كائن لا تُحتمل خفّته

هذه ترجمة لرواية:

L'insoutenable légèreté de l'être

© Milan Kundera, 1984

الكتاب

كائن لا تُحتمل خفّته

تأليف

ميلان كونديرا

ترجمة

ماري طوق

الطبعة

الثالثة، 2013

عدد الصفحات: 320

القياس: 21.5 x 14.5

الترقيم الدولي :

ISBN: 978-9953-68-271-6

جميع الحقوق محفوظة

الناشر

المركز الثقافي العربي

الدار البيضاء ـ المغرب

ص.ب : 4006 (سيدنا)

42 الشارع الملكي (الأحباس)

هاتف: 0522 303339 ـ 0522 307651

فاكس: 305726 522 212+

Email: markaz@wanadoo.net.ma

بيروت ـ لبنان

ص.ب : 5158 ـ 113 الحمراء

شارع جاندارك ـ بناية المقدسي

هاتف: 750507 01 ـ 352826 01

فاكس: 343701 1 961+

Email: cca _casa_bey@yahoo.com

القسم الأول

الخفّة والثقل

1

العَوْدُ الأبدي فكرة يكتنفها الغموض وبها أربك نيتشه الكثير من الفلاسفة: أن نتصور أنّ كل شيء سيتكرر ذات يوم كما عشناه في السابق، وأنَّ هذا التكرار بالذات سيتكرر بلا نهاية! ماذا تعني هذه الخرافة المجنونة؟

تؤكد خرافة العَوْدِ الأبدي، سلباً، أنّ الحياة التي تختفي نهائياً، والتي لا تعود قط إنما هي أشبه بظل ودون وزنٍ وميّتة سلفاً. ومهما تكن هذه الحياة فظيعة أو جميلة أو رائعة فإنّ هذه الفظاعة وهذا الجمال وهذه الروعة لا تعني شيئاً. هي غير ذات أهمية مثل حرب وقعت في القرن الرابع عشر بين مملكتين أفريقيتين فما غيَّرت شيئاً في وجه التاريخ، مع أن ثلاثمائة ألف زنجي لاقوا فيها حتفهم وفي عذابات تفوق الوصف. فهل كان سيتغير شيء لو أنّ هذه الحرب بين المملكتين الأفريقيتين في القرن الرابع عشر قد تكررت مراتٍ لا حصر لها في سياق العود الأبدي؟

بلى: كانت ستؤول إلى كتلة متراصفة من الجماجم، وتفاهتها ستكون متصلة دون توقّف.

ولو قُدِّر للثورة الفرنسية أن تتكرر باستمرار، لكان المؤرخون الفرنسيون أقل فخراً بروبسبيير. ولكن، بما أنهم يتحدثون عن شيء لن يرجع ثانية، فإنّ السنوات الدامية تصير مجرّد كلمات ونظريات ومجادلات؛ تصير أكثر خفة من الزّغب ولا تعود مخيفة. هنالك فرق شاسع بين روبسبيير الذي لم يظهر سوى مرة في التاريخ وروبسبيير الذي يعود بشكل دائم ليقطع رؤوس الفرنسيين.

لنقل إذاً إنّ فكرة العود الأبدي تمثّل أفقاً لا تبدو فيه الأشياء كما نعرفها: تظهر لنا من دون الظروف التخفيفية لعرضيتها. هذه الظروف التخفيفية تمنعنا في الحقيقة من إصدار حكم معيّن. فهل بالإمكان إدانة ما هو زائل؟ إنّ غيوم المغيب البرتقالية تضفي على كل شيء ألق الحنين، حتى على المقصلة.

منذ زمن ليس ببعيد باغتني شعور غير معقول: كنت أتصفح كتاباً عن هتلر فوجدت نفسي متأثراً أمام بعض من صوره. ذكّرتني بزمن طفولتي التي عشتها خلال الحرب. كثيرون من أفراد عائلتي لاقوا حتفهم في معسكرات اعتقال نازية. ولكن ما أهمية موتهم أمام صورة هتلر التي ذكّرتني بزمن غابر من حياتي، بزمن لن يعود؟

إنّ هذه المصالحة مع هتلر تفضح عمق الشذوذ الأخلاقي الملازم لعالم مبني أساساً على انعدام العَوْد. ذلك أنّ كل شيء في هذا العالم مغتفر سلفاً وكل شيء مسموح به بوقاحة.

2

لو قُدّر لكل ثانية من حياتنا أن تتكرر مرات لا حصر لها، لكنّا معلّقين على الأبدية مثلما عُلّق يسوع المسيح على صليبه. هذه الفكرة فظيعة. ففي عالم العَوْد الأبدي، كل حركة تحمل ثقل مسؤولية لا

تُطاق... وهذا ما جعل نيتشه يقول: إنّ فكرة العَوْد الأبدي هي الحمل الأكثر ثقلاً.

إذا كان العَوْد الأبدي هو الحمل الأثقل، يمكن لحيواتنا عندئذ أن تظهر على هذه القماشة الخلفية بكلّ خفّتها الرائعة.

ولكن هل الثقل فظيع حقاً، والخفّة جميلة؟

إنّ أكثر الأحمال ثقلاً يسحقنا، يلوينا تحت وطأته ويشدنا نحو الأرض. ولكن لو ألقينا مثلاً نظرة على شِعر الحب خلال العصور كلّها لرأينا أنّ المرأة ترغب في أن تتلقى حِمْل جسد الذَّكَر. إذاً، فالحمل الأكثر ثقلاً هو في الوقت ذاته صورة للاكتمال الحيوي في ذروته. فكلما كان الحِمْلُ ثقيلاً، كانت حياتنا أقرب إلى الأرض، وكانت واقعية أكثر وحقيقية أكثر.

وبالمقابل، فإنّ الكائن الإنساني عند الغياب التام للحمل يصير أكثر خفة من الهواء، محلّقاً بعيداً عن الأرض وعن الكائن الأرضي. يصير شبه واقعي وتصبح حركاته حرّة بقدر ما هي تافهة.

إذاً، ماذا تُرانا نختار، الخفة أم الثقل؟

ذاك هو السؤال الذي طرحه بارمينيدس على نفسه في القرن الخامس قبل ميلاد المسيح. حسب رأيه، العالم منقسم إلى أزواج من الأضداد: النور - الظلمة؛ السميك - الرقيق؛ الحارّ - البارد؛ الكائن - اللاكائن. كان يعتبر أن أحد قطبي التناقض إيجابي (المنير، الحار، الرقيق، الكائن) والقطب الآخر سلبي. قد يبدو لنا هذا الانقسام إلى إيجابي وسلبي في نطاق سهولة صبيانية باستثناء حالة واحدة: أيُّهما هو الإيجابي، الثِقْل أم الخِفّة؟

كان بارمينيدس يجيب: الخفيف هو الإيجابي والثقيل هو السلبي. هل كان محقّاً أم لا؟ هذا هو السؤال. وشيء واحد أكيد: النقيضان الثقيل - الخفيف هما الأكثر غموضاً والتباساً بين كل المتناقضات.

3

منذ سنوات عديدة وأنا أفكر في توماس. غير أني رأيته بوضوح للمرة الأولى في ضوء هذه الأفكار. رأيته واقفاً عند نافذة شقته وعيناه تحدقان بثبات عبر الجهة الأخرى من الفناء، إلى حائط المبنى المقابل. ولم يكن يدري ماذا عليه أن يفعل.

كان قد تعرّف إلى تيريزا منذ ثلاثة أسابيع تقريباً في مدينة صغيرة من بوهيميا، حيث أمضيا معاً ساعة على الأكثر. اصطحبَتْه إلى المحطة وانتظرت معه حتى استقلَّ القطار. بعد عشرة أيام جاءت تزوره في براغ حيث مارسا الحب في اليوم نفسه. وفي الليل أصابتها نوبة من الحمى فأمضت عنده أسبوعاً كاملاً يلازمها الزكام.

عندئذ أحسّ بحب لا يفسّر نحو هذه الفتاة التي كان يجهلها في الواقع. بدت له مثل طفلة وُضِعَت في سلة مطلية بالقطران وتُركت في النهر ليلتقطها عند ضفة سريره.

مكثت عنده أسبوعاً، ثم بعد أن شُفيت رجعت إلى المدينة التي تسكن فيها على بعد مئتي كيلومتر من براغ.. هنا تتموضع اللحظة الحاسمة في حياة توماس والتي كنت أحدثكم عنها لتوّي: إنه واقف عند النافذة وعيناه محدقتان عبر الجهة الأخرى من الفناء، إلى حائط المبنى المقابل ويفكر:

هل عليه أن يدعوها للإقامة في براغ؟ هذه مسؤولية ترعبه. لماذا لا يدعوها الآن إليه، هكذا تجيئه في الحال لتقدم له حياتها كلها.

أو هل يجب التخلي عن هذه الفكرة؟ وفي هذه الحالة تبقى تيريزا خادمة في مشرب جعة في حيّ صغير من الريف، وهكذا لا يعود يراها.

هل يريدها أن تنضمّ إليه أم لا؟

ينظر عبر الفناء، عيناه محدقتان إلى الحائط المقابل ويبحث عن حل.

يرجع أيضاً وأيضاً إلى صورة المرأة المستلقية على سريره، لم تكن تذكّره بأحد من حياته السابقة. لم تكن عشيقة ولا زوجة. بل كانت طفلاً أخرجه من سلة مطلية بالقطران ووضعه على ضفة سريره. كانت قد غفت. جثا أمامها. كان لهاثها المحموم متسارعاً وسمع تأوهاً خافتاً. ألصق وجهه بوجهها وهمس لها كلمات مؤاسية أثناء نومها. في غضون لحظة بدا له أنها تتنفس بهدوء أكثر وأنّ وجهها يستدير تلقائياً نحو وجهه. كان يشمّ رائحة الحمّى الحامزة من شفتيها وكان يتنشقها وكأنه يريد أن يمتلئ بحميم جسدها. عندما تصوّر أنها كانت تقيم عنده منذ سنوات وأنها الآن تحتضر. أحسّ فجأة أنه لا يمكن له أن يعيش بعد موتها. بل سيتمدد قربها ويموت معها. وإذ هزّت كيانه هذه الرؤية، دفن وجهه في الوسادة قرب وجهها وبقي طويلاً على هذه الحال.

الآن، ها هو واقف عند النافذة يتذكر هذه اللحظة. هل كان ذلك غير الحب وقد أراد أن يعلن عن نفسه بهذه الطريقة؟

ولكن هل كان ذلك هو الحب فعلاً؟ كان متيقناً من أنه كان يرغب في الموت إلى جوارها، وهذا الشعور كان مغالىً فيه إلى حد بعيد، فهو يراها للمرة الثانية في حياته. أم كان بالأحرى رد فعل هستيرياً لرجل أدرك في أعماقه عدم قدرته على الحب فَراح يلعب، لكن مع نفسه، مهزلة العشق؟ في الوقت ذاته، كان وعيه الباطن مرتخياً إلى درجة أنه اختار لتمثيليته هذه خادمة مقهى ريفية مسكينة لم يكن لها عملياً أي حظ في الدخول إلى حياته!

كان ينظر إلى حيطان الفناء المتسخة من دون أن يفهم إذا كان ما يعانيه جنوناً أم حباً.

كان بإمكان رجل حقيقي في هذه الحالة أن يتصرف على الفور. لذلك كان يأخذ على نفسه هذا التردد وحرمان أجمل لحظة في حياته من كل معنى، (كان جاثياً أمام سرير المرأة الشابة وهو مقتنع بأنه لن يقوى على العيش من بعدها).

كان يُثقل على نفسه باللوم والتوبيخ، ولكنه اقتنع في النهاية بأنّ عدم معرفته لما يريده أمر طبيعي جداً.

لا يمكن للإنسان أبداً أن يُدرك ماذا عليه أن يفعل، لأنه لا يملك إلاّ حياة واحدة، لا يسعه مقارنتها بِحَيوات سابقة ولا إصلاحها في حيوات لاحقة.

أيهما هو الأفضل، العيش مع تيريزا أم البقاء وحيداً؟

لا توجد وسيلة لنتحقق أي قرار هو الصحيح، لأنه لا سبيل لأيّ مقارنة. كل شيء نعيشه دفعة واحدة، مرةً أولى ودون تحضير. مثل ممثل يظهر على الخشبة دون أي تمرين سابق. ولكن ما الذي يمكن أن تساويه الحياة إذا كان التمرين الأول هو الحياة نفسها؟ هذا ما يجعل الحياة شبيهة دائماً بالمخطّط الأوّلي لعمل فني، ولكن حتى كلمة «مخطّط» لا تفي بالغرض. فهي تبقى دائماً مسوّدة لشيء ما، رسماً أولياً للوحة ما. أما مخطّط حياتنا فهو مخطّط للاشيء ورسم أوّلي دون لوحة.

ردّد توماس المثل الألماني القائل: مرة واحدة لا تُحْسَب، مرة واحدة هي أبداً. أن لا تستطيع العيش إلاّ حياة واحدة كأنك لم تعش البتة.

4

لكن، ذات يوم، وأثناء استراحة بين جراحتين، أبلغَتْه ممرضة أنه مطلوب على الهاتف. سمع صوت تيريزا عبر السماعة. كانت تخابره

من المحطة. سرّ لذلك. لسوء الحظ كان مشغولاً هذا المساء فلم يدعُها لزيارته إلاّ في اليوم التالي. ما إن أقفل السماعة حتى ندم لأنه لم يطلب منها أن تأتي في الحال. كان الوقت لا يزال يسمح له بإلغاء موعده. تساءل عمّا ستفعله تيريزا في براغ طوال الساعات الست والثلاثين التي تفصلهما عن لقائهما، فرغب في ركوب سيارته والانطلاق بها بحثاً عنها في شوارع المدينة.

وصلت مساء ذلك اليوم التالي. كانت تحمل حقيبة ذات حزام طويل. وجدها أكثر أناقة من المرة السابقة. كانت تتأبط كتاباً ضخماً: «آنّا كارنينا» لتولستوي. كانت تصرفاتها مرحة بل ربما صاخبة. وكانت تجهد لتبرهن أنّ مرورها لم يكن إلاّ من باب الصدفة وحسب، وبسبب ظروف خاصة: فوجودها في براغ كان لدواعٍ مهنية وربما (كانت مزاعمها غامضة جداً) للبحث عن وظيفة جديدة.

بعدها، وجدا نفسيْهما ممدّدين على السرير جنباً إلى جنب عاريين ومنهكين. كان المساء قد حلّ. سألها عن مكان إقامتها وأراد اصطحابها في السيارة. أجابت بانزعاج بأنها ستفتّش عن فندق وأنها أوْدعت حقيبتها في المحطة.

عشية البارحة ليس إلا، كان يخشى أن تأتي مانحة إيّاه حياتها فيما لو دعاها للمكوث عنده في براغ. الآن عندما سمعها تقول له إنّ حقيبتها كانت في المحطة، فكّر أنها وضعت حياتها في هذه الحقيبة وأودعتها في المحطة قبل أن تمنحه إياها.

صعد إلى جانبها في سيارته المتوقفة أمام البناية، ذهب إلى المحطة فأمسك بالحقيبة (كانت ضخمة وثقيلة للغاية) وأتى بها وتيريزا إلى بيته.

كيف حدث أنه قرر بهذه السرعة في حين أنه كان يتردد ما يقارب الخمسة عشر يوماً ولم يرسل لها حتى بطاقة بريدية؟

كان هو نفسه مدهوشاً: كان يتصرف بخلاف مبادئه. ها قد مرّت عشر سنوات على طلاقه من زوجته الأولى، وهو يعيش طلاقه في جو من الابتهاج مثلما يحتفل أناس آخرون بزواجهم. كان قد فهم إذ ذاك أنه لم يُخلق ليعيش حياته مع امرأة واحدة، أياً تكن هذه المرأة، وأنه غير قادر على أن يكون هو نفسه إلاّ عازباً. كان يحرص إذاً كل الحرص على تنسيق نظام حياته بشكل لا يمكن معه لأية امرأة أن تأتي لتقيم عنده مع حقيبتها. وعلاوة على ذلك، هو لا يملك إلاّ سريراً واحداً. ومع أنه سرير واسع بما فيه الكفاية، فإنه كان يؤكد لشريكاته أنه لا يستطيع النوم مع أحد على فراش مشترك. كان يُعيدهنّ جميعهنّ إلى منازلهنّ بعد حلول منتصف الليل. من جهة أخرى، حين بقيت تيريزا عنده في المرة الأولى بسبب الزكام، لم ينم إلى جوارها، بل أمضى ليلته الأولى على مقعد كبير، ولياليه المتتالية في عيادته في المستشفى على كرسي طويل كان يستعمله أثناء الخدمة الليلية.

لكنه في هذه المرة نام قربها. عندما استيقظ في الصباح وجد أن تيريزا لا تزال نائمة وهي تمسك بيده. هل بقيا ممسكَيْن بأيديهما هكذا طوال الليل؟ كان يصعب عليه تصديق هذا الأمر.

كانت تتنفّس بعمق أثناء نومها وتمسك بيده (بقوة، لم يكن قادراً على الإفلات من قبضتها)، وكانت الحقيبة الثقيلة جدّاً ملقاة قرب السرير.

لم يكن يجرؤ على سحب يده من قبضتها لئلا يوقظها، فاستدار بحذر على جنبه ليتمكن من مراقبتها بشكل أفضل.

مرة أخرى قال في نفسه: إنّ تيريزا طفل وُضع في سلة مطلية بالقطران ورُميت في مجرى النهر. هل في إمكان المرء أن يترك سلة في داخلها طفل تنجرف مع مياه النهر الهادرة؟ لو لم تُخرج ابنة فرعون سلة موسى الطفل من الماء لَمَا كان العهد القديم ولا كانت معه

حضارتنا! في بداية أساطير كثيرة هناك أحد ما ينقذ طفلاً لقيطاً. لو لم يلتقط «بوليت أوديب» الطفل لما كتب سوفوكليس أجمل مسرحياته التراجيدية.

لم يكن توماس يدرك من قبل أنّ الاستعارات شيء خطير. لا يمكننا أن نمزح مع الاستعارات. فالحب قد يولد من استعارة واحدة.

5

كان قد عاش سنتين تقريباً مع زوجته وأنجب منها طفلاً. عهد القاضي في حكم الطلاق بالطفل للأم وأجبر توماس على أن يقدم لهما ثلث معاشه. إلى جانب ذلك، كفل له بأنه يستطيع رؤية ابنه مرتين في الشهر.

ولكن كلّما كان يريد رؤية ابنه كانت الأم تُرجئ الموعد. لو أغدق عليهما بهدايا فخمة لكان في وسعه طبعاً أن يراه بطريقة أسهل. أدرك إذاً أنه يُفترض به أن يدفع للأم ثمن حب ابنه، وأن يدفع سلفاً. كان يتخيّل نفسه وهو يلقّن ابنه أفكاراً تناقض في كل شيء أفكار أمه، وكانت هذه الفكرة بالذات تنهكه. منعته الأم ذات يوم أحَد من الخروج مع ابنه في آخر لحظة، فقرر ألا يعود لرؤيته أبداً.

وعلى كل حال، ما الذي يجبره على التعلق بهذا الطفل دون سواه؟ لا شيء يربطه به غير ليلة طائشة. كان على استعداد لأن يدفع ما عليه من مال بأمانة ولكن لا يذهب بأحد الأمر إلى حد أن يطلب منه، باسم مشاعر أبوية غير محددة، أن يناضل لاكتساب حقه كأب!

من البديهي ألا يكون أحد على استعداد للقبول بهذا المنطق. فوالداه بالذات لاماه وأوضحا له بأنه هو توماس، لو رفض الاهتمام بابنه فسيتوقفان هما أيضاً عن الاهتمام بابنهما. لذلك، كانا يستمران في

التعاطي مع كنّتهما بمودة تفاخرية، متبجّحين أمام الأقارب بموقفهما النموذجي وبصواب أحكامهما.

نجح إذاً خلال فترة قصيرة في التخلص من زوجة وابن وأم وأب. ولم يتبقَّ له مما مضى إلاّ الخوف من النساء. كان يرغب فيهن إنما كان يخاف منهن. بين الخوف والحب وجب عليه أن يجد تسوية ما، تسوية سمّاها «الصداقة الجنسية». كان يؤكد أمام عشيقاته: وحدها العلاقة المجردة من العواطف، حيث لا يمكن لأحد من الشريكين أن يدّعي أنّ له حقوقاً على حياة الآخر وحريته، يمكنها أن تجلب السعادة للاثنين معاً.

وحتى يتمّ له اليقين بأن الصداقة الجنسية لا تُخلي المكان أبداً لعدائية الحب، فإنه لم يكن يرى عشيقاته الدائمات إلاّ في فترات متباعدة جداً. كان يعتبر أنّ هذه الطريقة هي المثلى، ويفتخر بها أمام أصدقائه: «علينا اعتماد القاعدة الثلاثية. يمكننا أن نرى المرأة نفسها في فترات متقاربة جداً شريطة ألا تزيد على ثلاث مرات. أو يمكننا أن نعاشرها لسنوات طويلة لكن شريطة أن نترك على الأقل مهلة ثلاثة أسابيع بين اللقاء والآخر».

كان هذا النظام يمنح توماس إمكانية ألا يقطع علاقاته بعشيقاته الدائمات وأن يكون له في الوقت نفسه عشيقات عابرات. لم يكن أحد يفهمه. كانت سابينا وحدها من بين جميع صديقاته هي التي تفهمه. كانت رسّامة. كانت تقول: أحبك كثيراً لأنك نقيض «الكيتش» تماماً. لا يمكنك أن تكون في أي سيناريو لفيلم أميركي أو لفيلم روسي غير حالة مثيرة للقرف.

والحالة هذه طلب من سابينا أن تساعده على إيجاد عمل لتيريزا. وحَسَب ما تُلزم القواعد غير المكتوبة للصداقة الجنسية، وعدته بأن

تبذل جهدها. وفعلاً لم تتأخر في إيجاد وظيفة لها في مختبر للصور في إحدى المجلات الأسبوعية. لم تكن هذه الوظيفة تتطلب كفاءة معينة، ولكنها تمكنت من رفع تيريزا من منزلة الساقية في حانة إلى منزلة موظفة في الصحافة. قدّمتها سابينا بنفسها إلى مكتب التحرير، ففكر توماس حينئذ أنه لم يجد في حياته صديقة أفضل منها.

6

كانت شرعة الصداقة الجنسية، غير المكتوبة، تستدعي إلغاء الحب من حياة توماس. فلو أنه خرق هذا الشرط لوجدت عشيقاته الأخريات أنفسهن في وضع دوني ولَثُرْن لذلك.

فقد دبّر إذن لتيريزا شقةً صغيرة مستأجرة من مستأجر حيث نقلت إلى هناك حقيبتها الثقيلة. كان راغباً في السهر عليها وحمايتها، وفي الاغتباط بحضورها. لكنه لم يكن يشعر بحاجة تستدعيه لتغيير نمط حياته، ولم يكن يريد، إلى ذلك، أن يعرف أحد أنها تنام عنده. فالنوم المشترك هو جسم الجريمة في الحبّ.

لم يكن ينام قط مع النساء الأخريات. كان الأمر سهلاً حين يذهب لرؤيتهن في بيوتهن، فباستطاعته الذهاب والحالة هذه ساعة يشاء. ولكن الأمر كان أكثر مشقة حين يأتين إلى عنده فيجد نفسه مضطراً لأن يشرح لهن بأنه سيرجعهن إلى بيوتهن بعد حلول منتصف الليل. والسبب أنه يعاني من الأرق ولا يمكنه أن يغفو بوجود أحد ما في جواره. لم تكن هذه الحجة منافية للحقيقة، ولكن السبب الجوهري كان أسوأ من ذلك، ولم يكن يجرؤ على الاعتراف به لشريكاته: في اللحظة التي تلي الجنس، كان يشعر برغبة جامحة في البقاء وحيداً. كانت تنفره فكرة أن يستيقظ في وقت متأخر من الليل ويجد نفسه بالقرب من كائن غريب. كان يمقت نهوض الزوجين عند

الصباح ولا يرغب في أن يسمعه أحد وهو يغسل أسنانه في الحمام، ثمّ إنّ ألفة الإفطار المزدوج لم تكن تستهويه.

من أجل ذلك فوجئ للغاية عندما استيقظ ووجد أنّ تيريزا تشدّ على يده بقوة! كان ينظر إليها غير مستوعب تماماً ما الذي حدث. فاستعاد الساعات التي مرّت وأحس أنه يتنشق منه عطر سعادة غريبة.

منذ ذلك الحين وكلاهما يغتبط سلفاً بالنوم سوية. وأميل تقريباً للقول بأنّ الهدف من الجماع بالنسبة لهما لم يكن النشوة بل النعاس الذي يعقبها. وهي، خاصة، لم تكن تستطيع أن تنام من دونه. لو صودف وبقيت وحيدة في شقتها الصغيرة (التي لم تعد إلاّ مجرد خدعة) كانت غير قادرة على إغماض جفن طوال الليل. أما بين ذراعيه فكانت تغفو دائماً مهما تكن درجة اضطرابها. كان يروي من أجلها بصوت خافت قصصاً يبتدعها أو ترّهاتٍ وكلمات مضحكة يعيدها بنبرة رتيبة. كانت هذه الكلمات تتحول في مخيّلتها إلى رؤى مشوّشة تأخذ بيدها إلى الحلم الأول. كان يملك تأثيراً خارقاً على جعلها تغفو وكانت تغفو في الدقيقة التي يقرر هو أن ينتقيها.

كانت تمسك به أثناء النوم كما فعلت في أول ليلة: تشدّ بقوة على معصمه أو على إصبع من أصابعه أو على عرقوبه، وكان عليه أن يستعين بحيلة ما كي يفلت منها دون أن يوقظها. فيسحب إصبعه (معصمه أو عرقوبه) من قبضتها، مما كان يجعلها تستيقظ قليلاً، ذلك أنها كانت تراقبه بانتباه حتى أثناء نومه. كان يدسّ في يدها بدلاً من معصمه شيئاً ما ليهدّئ من روعها (بيجاما ملفوفة أو خفّاً أو كتاباً) فتضغط عليه في الحال وبقوّة كأنه قطعة من جسده.

ذات يوم كان يحاول أنّ يجعلها تغفو وكانت هي لا تزال في المدخل الأول للنوم وتقدر أن تردّ على أسئلته. قال لها: «حسناً، إني

ذاهب الآن». سألته: «إلى أين؟». فقال لها بلهجة حازمة: «إنّي خارج». فانتصبت في سريرها وقالت: «سأذهب معك». قال: «لا، لا أريد. إني ذاهب للأبد». ثم خرج من الغرفة إلى المدخل. فنهضت وتبعته إلى المدخل وهي ترفرف بعينيها. كانت عارية تحت قميص قصير، وكان وجهها جامداً من دون تعابير ولكن حركاتها نشِطة. خرج من المدخل إلى الرواق (الرواق المشترك للمستأجرين) وأغلق الباب في وجهها. ففتحت الباب بحركة عنيفة وتبعته مقتنعة وهي عند حدود النوم أنه ينوي الذهاب إلى الأبد وأن عليها أن تستبقيه. نزل طابقاً ثم توقّف عند سفرة الدرج وانتظرها. فلحقت به وأمسكته من يده وأعادته إلى قربها في السرير.

فكّر توماس: إنّ مضاجعة امرأة والنوم معها رغبتان ليستا مختلفتين فحسب بل متناقضتين أيضاً. فالحب لا يتجلى بالرغبة في ممارسة الجنس (وهذه الرغبة تنطبق على عدد لا يُحصى من النساء) ولكن بالرغبة في النوم المشترك (وهذه الرغبة لا تخصّ إلاّ امرأة واحدة).

7

عند منتصف الليل، أخذت تيريزا تنتحب أثناء نومها. فأيقظها توماس ولكنها حين رأت وجهه قالت بحقد: «أُغرب عن وجهي! أُغرب عن وجهي!». ثم روت له ما رأته في المنام: كانا في مكان وبرفقتهما سابينا، في غرفة شاسعة. كان هناك سرير في وسط الغرفة وكأنما وسط حلبة مسرح. أمرها توماس بالبقاء في الزاوية وضاجع سابينا على مرأى منها. كانت تنظر إلى هذا المشهد فيسبب لها عذاباً هائلاً. ثم أخذت تغرز إبراً تحت أظافرها مطفئة ألم النفس بألم الجسد. «كان هذا يؤلمني بشكل فظيع»، قالت وشدّت على قبضتيها كما لو أنّ يديها كانتا فعلاً مثختين بالجراح.

ضمّها بين ذراعيه (كانت ترتجف دون توقّف) فغفت شيئاً فشيئاً وهي تعانقه.

وإذ فكر صباح اليوم التالي في هذا الحلم تذكّر شيئاً. فتح درج مكتبه وأخرج حزمة رسائل من سابينا. بلحظة عثر على المقطع التالي: «أرغب في أن أضاجعك داخل مُحترفي وكأننا على حلبة مسرح. سيكون هناك أناس حوالينا ولن يكون لهم الحق في الاقتراب. ولكن لن يتمكنوا من إشاحة بصرهم عنا...».

والأسوأ أنّ هذه الرسالة كانت مرفقة بالتاريخ. كانت رسالة حديثة العهد مكتوبة بعد انقضاء وقت طويل على وجود تيريزا عند توماس.

استشاط غضباً: «فتشْتِ في رسائلي!»

قالت من دون أن تحاول الإنكار: «حسناً، بإمكانك طردي!».

لكنه لم يطردها. كان يراها هناك، تلتصق بحائط محترف سابينا وهي تغرز إبراً تحت أظافرها. فضمّ أصابعها في يديه وداعبها ثم حملها إلى شفتيه وقبّلها وكأن آثاراً من دم فضُلَتْ هناك.

ولكن ابتداء من هذه اللحظة بدا وكأن كل شيء يتآمر ضده. فلم يكن ليمرّ يوم إلاّ وتعرف فيه شيئاً جديداً عن مغامراته السرية.

في بادئ الأمر كان ينفي كل شيء، ولكن حين تكون الأدلة صارخة، كان يحاول أن يثبت أن لا تناقض بين حياته كرجل مرتبط بعدة نساء وبين حبه لتيريزا! لم يكن منطقياً في ما يقول. فتارة كان ينفي خياناته، ويبررها تارة أخرى.

كان يتصل ذات يوم بصديقة له ليتّفق معها على موعد. حين أقفل الخط سمع ضجة غريبة في الغرفة المجاورة، ضجة تشبه اصطكاك الأسنان.

كانت قد جاءت إليه صدفة على غير علم منه. وكانت تمسك في

يدها زجاجة مهدّئ وتشرب من عنقها فترتجف يدها ويرتطم زجاج القنينة بأسنانها.

هبّ لنجدتها كمن يريد تخليصها من الغرق. سقطت قنينة الناردين وأحدثت بقعة كبيرة على السجادة. كانت تتخبط بين ذراعيه محاولة الإفلات منه فظلّ ممسكاً بها هكذا لمدة ربع ساعة، إلى أن هدأت.

كان يدرك أنّ حالته متعذر تبريرها لأنها مبنية أصلاً على لامساواة تامة:

كانا قد ذهبا معاً، قبل اكتشافها لمراسلاته مع سابينا بوقت طويل، إلى ملهى برفقة بعض الأصحاب احتفالاً بتسلّم تيريزا وظيفتها الجديدة. كانت قد تركت مختبر الصور لتصبح مصوِّرة في المجلة. وبما أنه لا يهوى الرقص، تولّى إذاً أحد زملائه الجدد في المستشفى أمر تيريزا، كانا ينزلقان بخفة رائعة على حلبة الرقص، وبدت له تيريزا أجمل من أي وقت مضى. كان مذهولاً عندما رآها تستبق رغبة مراقصها بدقة وانصياع وبأقلّ من ثانية بدت له هذه الرقصة وكأنها تؤكد أنّ إخلاص تيريزا ورغبتها الجارفة في أن تنفذ ما يجول في خاطر توماس ليسا مرتبطين بالضرورة بشخص توماس، إنما هما على أهبة للتجاوب مع نداء أي رجل تصادفه. لم يكن أسهل عليه من تصور تيريزا وهذا الزميل الشاب في وضع عاشقين. كانت هذه السهولة التي كان يستطيع معها أن يتصورهما في مثل هذا الوضع، تجرحه! كان جسد تيريزا قابلاً تماماً لأن يتصوره مستغرقاً في عناق عاطفي مع أي جسد ذكر كان، هذه الفكرة عكّرت مزاجه. عندما رجعا في وقت متأخر من الليل، اعترف لها بأنه كان يشعر بالغيرة.

كانت هذه الغيرة غير المبررة والمنبثقة من تصور نظري بحت، برهاناً على أنه يعتبر وفاءها له شرطاً واجباً. ولكن، والحالة هذه، كيف بإمكانه إذاً أن يستاء منها حين تغار من عشيقاته الموجودات فعلاً؟

أثناء النهار، كانت تيريزا تحاول جاهدة (لكن دون أن تتمكن فعلاً) أن تصدق ما يقوله توماس وأن تكون سعيدة كما فعلت حتى الآن. غير أنّ الغيرة المكبوتة في النهار كانت تظهر بشكل أكثر عنفاً في أحلامها التي تنتهي دائماً بنحيب لا ينقطع إلاّ حين يوقظها توماس.

كانت أحلامها تتكرر على شكل حلقات متنوعة أو مسلسل تلفزيوني. ثمة حلم كان يتكرر باستمرار على سبيل المثال، وهو حلم الهررة التي تقفز إلى وجهها مُنشبة مخالبها في جلدها. في الحقيقة يمكن تفسير هذا الحلم بسهولة: الهرة في اللغة التشيكية كلمة عامية تعني فتاة جميلة. كانت تيريزا إذاً تشعر أنها مهددة من النساء، كل النساء. فالنساء كلُّهن عشيقات محتملات لتوماس ولهذا فهي تخاف منهن.

في سلسلة أخرى من الأحلام، كانت تُرسل إلى الموت. أيقظها ذات ليلة وهي تزعق من الذعر فروت له هذا الحلم: كانت هناك بركة سباحة كبيرة مسقوفة. كنا نحو العشرين من النساء فقط. كنا جميعاً عاريات وكان علينا أن نسير الواحدة تلو الأخرى حول البركة. كانت هناك سلة كبيرة تتدلى من السقف وفي داخلها رجل يرتدي قبعة كبيرة الأطراف تخفي وجهه، لكني كنت أعلم أنه أنت. كنتَ تعطينا الأوامر وتصرخ، وكان علينا أن نغني، ونحن نسير، ونثني ركابنا، وحين تنسى امرأة أن تثني ركبتيها، كنتَ تطلق عليها الرصاص من مسدس فتسقط قتيلة داخل البركة، فتأخذ الأخريات في الضحك ثم في الغناء بقوة أكبر. أما أنت فلم تكن تفارقنا لحظة واحدة، ما إن تخطئ واحدة حتى تُرديها قتيلة. كانت البركة ملأى بالجثث العائمة على وجه الماء. وأنا كنت أعرف أنني لن أقدر على تنفيذ انثناءتي المقبلة وأنك ستقتلني.

أما السلسلة الثالثة من أحلامها فكانت تروي ما الذي يحدث لها بعد موتها.

كانت ترقد في عربة كبيرة للموتى شبيهة بشاحنة نقل انتشرت حولها جثث نساء لا عدّ لها بحيث إنّ الباب الخلفي بقي مفتوحاً وتدلّت منه السيقان.

كانت تيريزا تزعق: «انظروا! لست ميتة، ما زلت أحتفظ بحواسي كافةً!»

- «نحن أيضاً لا نزال نحتفظ بحواسنا كلّها»، قالت الجثث هازئة.

كان ضحكهن يشبه تماماً ضحك أولئك النساء اللواتي لا يزلن على قيد الحياة، اللواتي كنّ يقلن لها فيما مضى وبمتعة إنّ أسنانها ستفسد وإنّ مبيضَيْها سيُصيبهما المرض وإنّ التجاعيد ستغزوها. وهذا طبيعي جداً، لأن أسنانهنّ، هنّ، قد فسدت ومبيضهن أصابه المرض وقد غزتهن التجاعيد. وها هنّ يشرحنّ لها الآن، وهنّ يضحكن الضحكة ذاتها، أنها ميتة وأنّ كل شيء منتظم.

فجأة شعرت برغبة في التبوّل فصرخت: «لكن بما أني أشعر برغبة في التبوّل فهاكن الدليل على أنني لسْتُ ميتة!».

ومن جديد ضحكن ملء أشداقهن: «هذا أيضاً طبيعي أن تشعري برغبة في التبوّل، فحواسك ستبقى كما عهدْتها لوقت طويل، كمثل الأشخاص الذين بترت لهم أيديهم، إذ ينتابهم الشعور بوجودها لوقت طويل. نحن أيضاً لم يعد لدينا بَوْل ونشعر مع ذلك برغبة دائمة في التبوّل.

التصقت تيريزا بتوماس بقوة في السرير وهي تقول: «كن جميعهن يخاطبنني بلا كلفة وكأنهن يعرفنني منذ الأزل، كأنهن كن صديقاتي. أما أنا فكنت خائفة من أُجبر على البقاء معهن إلى الأبد».

9

جميع اللغات المتحدرة من أصل لاتيني تصوغ كلمة «كومباسيون» أي الشفقة انطلاقاً من أداة التصدير "com" مع إضافة الجذر "passio" الذي يعني في الأصل «ألم». تترجم هذه الكلمة في اللغات الأخرى، في التشيكية مثلاً أو البولونية أو الألمانية أو السويدية، إلى كلمة مؤلفة من أداة تصدير مماثلة ومتبوعة بكلمة «شعور». (إلى سو - سيت soucit في التشيكية؛ wspolczucie في البولونية، mit-gefûhl، في الألمانية؛ med-kânsla في السويدية).

كلمة «شفقة» تعني في اللغات المتحدرة من أصل لاتيني أننا لا نستطيع أن نشاهد ألم الآخر بقلب بارد. وبكلمة أخرى: نشعر بالتعاطف مع من يتألم. هناك كلمة أخرى لها المعنى نفسه تقريباً وهي الرأفة (في الإنكليزية "pity" وفي الإيطالية "pietà"، إلخ). وهي توحي أيضاً بنوع من الرأفة نحو الكائن الذي يتألم. أن نشعر بالرأفة تجاه امرأة فهذا يعني أن نكون أوفر حظاً منها، وأن ننحني نزولاً حتى مستواها.

من هنا فإنّ كلمة «شفقة» توحي عموماً بالارتياب، وهي تعني شعوراً يُعتبر أقل منزلة ولا علاقة له بالحب إطلاقاً. أن نحب أحداً شفقة به فهذا يعني أننا لا نحبّه حقاً.

في إطار اللغات التي تصوغ كلمة «شفقة»، ليس من الجذر «ألم» "passio"، إنما من كلمة "sentiment" أي شعور، تستعمل الكلمة في المعنى نفسه تقريباً. لكن يصعب القول إن كانت تحدد شعوراً سيئاً أو وضيعاً. فالقوة الخفية الكامنة في اشتقاق هذه الكلمة تضفي عليها ضوءاً آخر وتضمنها معنى أغنى: أن نشعر بالشفقة (مشاطرة الشعور) "co-sentiment" فمعنى ذلك أن نتمكن من مشاطرة الآخرة تعاسته.

بل معنى ذلك أيضاً أن نشاطره مطلق شعور آخر: الفرح أو القلق أو السعادة أو الألم. هذه الشفقة بالذات (بمعنى soucit و wspolczucie و mit-gefûhl) تعني إذاً القدرة القصوى على التخيل العاطفي وفن التخاطر بين الانفعالات. وهذا الشعور هو الأسمى في سلّم المشاعر.

عندما حلمت تيريزا في نومها بأنها تغرز إبراً تحت أصابعها فضحت نفسها وكشفت بذلك لتوماس أنها كانت تفتش في أدراجه سراً. لو أنّ امرأة أخرى تصرفت كذلك لكان توماس امتنع نهائياً عن التعاطي معها. وبما أنّ تيريزا كانت واعية لهذا الأمر، فقد قالت له: «اطردني». ولكن توماس لم يمتنع عن طردها فحسب، بل أمسك يدها وقبَّل رؤوس أصابعها. لأنه في هذه اللحظة كان يعاني هو أيضاً من الألم الذي كانت تشعر به تحت أظافرها، كأنّ أعصاب أصابع تيريزا متصلة مباشرة بدماغه هو.

من لا يملك الأعطية الشيطانية للشفقة (أي مشاطرة الشعور) سيُدين تصرّف تيريزا ببرودة، لأن حياة الآخر الخاصة شيء مقدس، ولأنه يجب ألا نفتح الأدراج حيث يحتفظ برسائله الشخصية. ولكن، وبما أنّ الرأفة أمست قدر توماس (أو لعنة حياته)، خُيّل إليه إذاً أنه هو نفسه جثا أمام درج مكتبه المفتوح، غير قادر على إشاحة بصره عن الجمل المكتوبة بيد سابينا. كان يتفهّم شعور تيريزا ولم يكن قادراً على الحقد عليها فحسب، بل كان حبه لها يزداد أكثر فأكثر.

10

كانت تصرفات تيريزا تزداد فظاظة وتشوشاً. ها سنتان قد مرّتا على اكتشافها خياناته، وكل شيء يسير من سيّئ إلى أسوأ. كأن ذلك دون خلاص.

كيف ذلك! ألا يمكنه أن يحسم أمره مع صداقاته الجنسية؟ لا،

فهذا الأمر فد يفتته.. لم تكن لديه القدرة ليتحكم بشهيته للنساء الأخريات. وحتى لو حصل هذا الأمر فماذا سينفع. لا أحد مثله يعرف أن مغامراته لا تشكل أي خطر على تيريزا. فلماذا الإقلاع عنها إذاً؟ كان هذا الافتراض يبدو له سخيفاً قدر ما هو سخيف الإقلاع عن الذهاب لحضور مباراة في كرة القدم.

ولكن لا يزال في المستطاع الحديثُ عن المتعة؟ كان ما إن يذهب لموافاة إحدى عشيقاته حتى يشعر بالعدائية حيالها مقسماً على أنها المرة الأخيرة التي سيراها فيها. كان يرى صورة تيريزا ماثلة أمام عينيه، وكان عليه أن يسكر على عجل كي لا يعود للتفكير فيها. فمنذ أن عرفها وهو غير قادر على مضاجعة النساء الأخريات من دون اللجوء إلى الكحول! ولكن لهاثه الذي تفوح منه رائحة الكحول كان بمثابة دليل بسيط يفسح المجال أمام تيريزا لتكتشف خياناته بسهولة أكبر.

ها قد انغلق الفخ عليه: ما إن يذهب لموافاتهن حتى لا يعود يشعر بالرغبة فيهن. ولكن ما إن يمر عليه يوم واحد دونهن، حتى يختلق رقم هاتف ليحدّد موعداً مع إحداهن.

كان يشعر أنه أحسن ما يكون عند سابينا. فهو يعرف أنها كتومة، وعندما يكون معها عليه ألا يخشى من افتضاح أمره. كانت ذكرى حياته النموذجية كرجل عازب تطفو أمامه في المحترف مثل ذكرى غابرة.

ربما لم يكن يدرك هو نفسه إلى أي حد قد تغير: كان يخاف أن يرجع متأخراً إلى البيت لأن تيريزا في انتظاره. لاحظت سابينا ذات مرة أنه كان ينظر إلى ساعته خلال المضاجعة، وأنه كان يسعى إلى تسريع النهاية.

ثم أخذت تجول المحترف عارية وبمشية متكسرة. ثم توقفت أمام لوحة غير مكتملة موضوعة على حامل اللوحات، وأخذت تسترق النظر

إلى توماس الذي كان يرتدي ثيابه على عجل.

ارتدى ثيابه وظلّت إحدى قدميه عارية. فنظر حواليه ثم زحف وأخذ يفتّش عن شيء ما تحت الطاولة.

قالت: «حين أنظر إليك، أشعر أنك موشك على التماثل مع موضوع لوحاتي الأبدي: التقاء عالمين في عرض مزدوج. فمن خلف هيئة توماس الإباحي وجه لا يصدق للعاشق الرومانسي. أو على العكس: من خلال صورة تريستان الذي لا يفكر إلاّ في تيريزا يلوح العالم الجميل المعذور للإباحي».

انتصب توماس وسمع بأذن شاردة كلمات سابينا:

«سألته: عمَّ تفتّش؟

- عن جوربي.

فتشتُ معه في الغرفة ثم زحفتُ وأخذت تبحث تحت الطاولة:

- قالت سابينا: لا يوجد جورب هنا.. من المؤكد أنك نسيت أن ترتديه قبل مجيئك.

- كيف لم أرتدِه! زعق توماس وهو ينظر إلى ساعته. فلم آتِ بجورب واحدٍ طبعاً.

- ليس هذا بأمر مستبعد. أنت ساهمٌ معظم الوقت منذ فترة. مستعجل دائماً وتنظر إلى ساعتك. ليس بالمستغرب إذاً أن تكون قد نسيت ارتداء جوربك».

عندها قرر أن يرتدي حذاءه حتى بقدمٍ عارية.

«الجوّ بارد في الخارج، قالت سابينا. سأعيرك جورباً».

كان يعرف جيداً أنّ هذه طريقة للانتقام. لقد قامت بإخفاء جوربه لتعاقبه على أنه نظر إلى ساعته خلال الجماع. ولكن مع هذا البرد في

الخارج لم يتبقّ له إلاّ الخضوع. رجع إلى البيت وهو يرتدي جوربه في قدم، وفي القدم الأخرى جورباً نسائياً أبيض ملفوفاً عند عرقوبه.

كان واقعاً في ورطة لا خلاص منها: ذلك أنه كان موسوماً في نظر عشيقاته بالوصمة الشائنة لحبّه لتيريزا، وموسوماً في نظر تيريزا بالوصمة الشائنة لمغامراته مع عشيقاته.

11

تزوّجها ليخفّف من عذابها، (صار في إمكانهما أخيراً أن يلغيا عقد الإيجار من المستأجر، فهي لم تسكن في الشقة الصغيرة منذ فترة بعيدة) واقتنى لها جرو كلب صغيراً.

كانت الكلبة الأم من فصيلة سان - برنار تخص زميلاً لتوماس، والأب عسبور أحد الجيران من فصيلة (الكلب الذئب). لم يعد أحد منهما راغباً في تربية هجناء صغار، وكانت فكرة قتلها تعذّب زميله.

كان على توماس إذاً اقتناء أحد الجراء عارفاً أنّ الجراء التي لا يقتنيها ستموت. كان يشعر بأنه مثل رئيس جمهورية يقف أمامه أربعة محكومين بالإعدام، وهو لا يمكنه أن يعفو إلاّ عن واحد فقط. وفي النهاية اختار أحد الجراء وكان أنثى يشبه جسدها أبيها العسبور ورأسها يذكّر بأمها (السان - برنار). أخذها إلى تيريزا فحملت الجروة وضمّتها إلى صدرها فبالت فوراً على قميصها.

وجب عليهما بعد ذلك إيجاد اسم للكلبة. كان توماس يرغب في اسم يعرف الآخرون من خلاله بأنّ هذه الكلبة تخصّ تيريزا دون غيرها. فتذكّر عندئذ الكتاب الذي كانت تتأبطه حين جاءت إلى براغ دون أن تعلمه. واقترح بأن تسمّى الكلبة «تولستوي».

لكن تيريزا احتجت:

- «لا يمكنك أن تسمّيها تولستوي فهي أنثى. فلنسمّها بالأحرى آنّا كارنينا».

- ليس في الإمكان تسميتها آنّا كارنينا، لأن لا وجود لامرأة تملك مثل هذا الفم الضحوك، قال توماس. فلنسمّها كارنينا بالأحرى، أجل كارنينا، هذه بالضبط الصورة التي تخيّلتها فيها.

- لكن ألن تُربك تسميتها كارنينا حياتها الجنسية؟

- محتمل، قال توماس. أن تصير الكلبة ذات ميول سحاقية إذا ناداها أصحابها باسم كلب.

وأغرب ما في الأمر أن تكهّن توماس كان في محله. تتعلق الكلبات عادة بصاحبها أكثر مما تتعلق بصاحبتها. ولكن حالة كارنينا كانت بخلاف ذلك. قررت أن تتعلق بتيريزا وكان توماس ممتناً لها. . كان يداعب رأسها وهو يقول: «أنتِ على حق يا كارنينا. هذا بالضبط ما كنت أنتظره منك. بما أنني لن أتوصل إلى ذلك بمفردي وجب عليك أن تساعديني».

ولكنه لم يكن يتوصل إلى إسعاد تيريزا حتى بمعونة كارنينا. أدرك ذلك بعد مرور عشرة أيام على احتلال الدبابات الروسية لبلاده. كان ذلك في آب/ أغسطس 1968 وكان يتصل بتوماس يومياً مدير مستوصف خاص في زوريخ كان تعرّف إليه خلال مؤتمر عالمي. كان خائفاً على مصير توماس فعرض عليه الذهاب لتولّي منصب هناك.

12

إذا كان توماس قد رفض بلا تردّد عرض الطبيب السويسري فهذا بسبب تيريزا. . كان يعتقد أنها لا ترغب في الذهاب إلى هناك. من جهة أخرى، أمضت تيريزا الأيام السبعة الأولى من الاحتلال في حالة

من الرعدة أشبه بالسعادة. كانت تجول الشوارع وفي يدها آلة تصوير. كانت توزع أفلامها على الصحافيين الأجانب الذين يتقاتلون للحصول عليها.. وذات يوم أظهرت جسارة فائقة والتقطت عن قرب صورة لضابط روسي وهو يشهر مسدسه في وجه المتظاهرين. فأُلقي القبض عليها وأمضت ليلة في المركز الروسي العام. ومع أنهم هدّدوها بالقتل عادت لتلتقط الصور في الشوارع ما إن أطلقوا سراحها.

لكن كم كانت دهشة توماس كبيرة عندما قالت له في اليوم العاشر للاحتلال:

- «أحقاً لا تريد الذهاب إلى سويسرا؟

- ولماذا أذهب؟

- هنا يريدون محاسبتك».

فاستدرك توماي بلهجة مستسلمة:

- ومن لا يريدون محاسبته. ولكن قولي لي: هل أنت قادرة على العيش في الخارج؟

- وما الذي يمنع؟

- بعدما رأيتك مستعدّة للتضحية بحياتك من أجل بلادك، أتساءل الآن كيف بإمكانك أن تغادريها؟

- «مذ رجع دوبتشك، تغيّر كل شيء». قالت تيريزا.

كان هذا صحيحاً: المرح العام لم يدم إلا فترة الأيام السبعة الأولى للاحتلال.. ذلك أن الجيش الروسي اقتاد رجال الدولة التشيكيين وكأنهم مجرمون. لا أحد كان يعرف أين مكانهم، وكان الجميع خائفين على مصيرهم، وكان الحقد على الروس يُسكر مثل الكحول. كانت تلك أيام العيد المسكر للكراهية. كانت تغطي مدن بوهيميا آلاف الملصقات المرسومة باليد والمرفقة بكتابات تهكميّة،

وقصائد هجاء ورسوم كاريكاتورية تصور بريجنيف وجيشه. كان الجميع يهزأون منه كمن يهزأ من فرقة مهرّجين جهلاء. ولكن لا يمكن لعيد أن يستمر إلى الأبد. فخلال هذا الوقت كان الروس قد أرغموا رجال الدولة التشيكيين المخطوفين على توقيع تسوية في موسكو. ثم رجع دوبتشك مع هذه التسوية إلى براغ وقرأ خطابه عبر الإذاعة. كانت أيام الاحتجاز الستة قد أضعفته إلى درجة لم يعد يستطيع معها الكلام إلا بصعوبة. كان يتأتئ ويلتقط أنفاسه عند منتصفِ كل جملة مسجّلاً وقفات لا تنتهي تدوم ما يقارب نصف الدقيقة.

أنقذت التسوية البلاد مما هو أسوأ: الإعدامات، والنفي بالجملة إلى سيبيريا الذي كان يخيف الجميع. ولكن شيئاً واحداً بدا واضحاً في تلك الساعة: كان على بوهيميا أن تنحني أمام الغازي وأن تتأتئ إلى الأبد وأن تلتقط أنفاسها كما فعل ألكسندر دوبتشك. فالعيد انتهى وتمّ الدخول في معترك الذلّ اليومي.

كانت تيريزا تشرح كل هذا لتوماس وكان يعلم أن ما تقوله صحيح. لكن خلف هذه الحقيقة يختبئ سبب آخر أكثر أهمية وهو ما يجعل تيريزا راغبة في ترك براغ: أضحت حياتها هنا تعيسة.

عاشت اجمل أيام حياتها وهي تلتقط صوراً للجنود الروس في شوارع براغ، معرّضة نفسها للخطر. خلال تلك الأيام فقط انقطع المسلسل التلفزيوني لأحلامها، وصارت لياليها ناعمة البال. فقد حمل الروس لها الصفاء مع دبّاباتهم. أما الآن وقد انتهى العيد، عادت تخاف من لياليها وترغب في الفرار منها. فبعد أن اكتشفت أن هناك ظروفاً معيّنة تستطيع أن تشعر فيها أنها أكثر قوة ورضى عن ذاتها، وقد رغبت في السفر علّها تحظى بظروف مماثلة هناك.

- «ألا يزعجك أن تكون سابينا هاجرت إلى سويسرا؟». سأل توماس.

قالت تيريزا: جنيف ليست زوريخ. هناك ستزعجني أقلّ مما كانت نزعجني في براغ، أنا متأكدة.

ليس سعيداً من يرغب في ترك المكان الذي عاش فيه. امتثل توماس لرغبة تيريزا هذه في الهجرة كما يمتثل متّهم لحكم المحكمة. فخضع للأمر وألفى نفسه فيما بعد بصحبة تيريزا وكارنينا في أكبر مدينة من مدن سويسرا.

13

اشترى توماس سريراً ليتمكن من الإقامة في منزل جديد فارغ (إذ لم يكن في حوزتهما مال لشراء أثاث آخر) وأكبَّ على العمل بهمَّة رجل مسعور يبدأ حياة جديدة وهو في سن الأربعين.

اتصل مرات عديدة بسابينا في جنيف.. من حسن حظّها أنها كانت تفتتح معرضاً هناك قبل ثمانية أيام من الاجتياح الروسي، فاشترى هواة الرسم السويسريون جميع لوحاتها بدافع من التعاطف مع بلدها الصغير.

«أصبحتُ ثرية بفضل الروس!». قالت وهي تقهقه عبر الهاتف. ثم دعت توماس لزيارة محترفها الجديد مؤكدة له أنه لا يختلف في شيء عن محترفها في براغ.

كان راغباً بكل طيبة خاطر في الذهاب لرؤيتها ولكنه لم يكن يجد ذريعة ليبرر سفره أمام تيريزا. وهذا ما دفع بسابينا للمجيء إلى زوريخ. نزلت في أحد الفنادق. ذهب توماس لرؤيتها بعد انتهائه من عمله وأنبأها بقدومه من مكتب الاستعلامات ثم صعد إلى غرفتها. فتحت له الباب ثم انتصبت أمامه على ساقيها الجميلتين الرشيقتين وهي متعرية إلاّ من سليب وصدرية. كانت تضع على رأسها قبعة وتمعن النظر إلى

توماس من دون أن تتحرك أو تنبس بكلمة. وبقي توماس هو أيضاً جامداً وصامتاً. ثم أحسّ أنه كان منفعلاً جدّاً. فنزع القبعة عن رأسها ووضعها على طاولة السرير ثم تضاجعا دون أن ينبسا بكلمة.

عندما قفل عائداً من الفندق إلى منزله فِي زوريخ، (المؤثث منذ فترة طويلة بطاولة وكراسٍ وكنبات وسجادة) فكّر وهو مغتبط بأنه يحمل معه نمط حياته كما تحمل الحلزونة بيتها. كانت تيريزا وسابينا تؤلفان قطبي حياته، قطبين متباعدين ومتناقضين، ومع ذلك، جميلين.

وبما أنه كان يحمل معه نمط حياته إلى كل مكان كشيء زائدٍ في جسده، كانت تيريزا تستمر في رؤية الأحلام نفسها.

بعد أن مرّت على وجودهما في زوريخ ستة أو سبعة أشهر، وجد عند عودته متأخراً ذات مساء، رسالة على الطاولة. كانت تخبره فيها أنها رجعت إلى براغ، وأنها رحلت لأنها لم تعد تقوى على العيش في الخارج.. كانت تعي جيداً أنه يُفترض بها أن تكون سنداً لتوماس لكنها تعي أيضاً أنها غير قادرة على ذلك. كانت لسذاجتها تظن أن الحياة في الخارج سوف تغيّرها. إذ خُيّل إليها أنها لن تعود خسيسة بعدما عايشت أيام الاجتياح، بل سوف تصبح من الآن فصاعداً ناضجة ومتعقّلة وشُجاعة. إلا أنها بالغت في تقدير نفسها. فاكتشفت لاحقاً أنها بمثابة عبء عليه وهذا بالضبط ما لم تكن ترغب فيه. فأرادت استدراك النتائج قبل فوات الأوان. وليسامحها أيضاً لأنها اصطحبت كارنينا معها.

تناول حبوباً منوّمة من عيار قوي لكن لم يغمض له جفن حتى الصباح، ومن حُسن الحظ أن اليوم كان يوم سبت وفي إمكانه البقاء في منزله. للمرة الخمسين راجع الموقف برمّته: لم تعد الحدود بين بوهيميا وبقية دول العالم مفتوحة كما كانت إبّان الفترة التي سافرا فيها. فلا البرقيات ولا الاتصالات كانت لتعيد تيريزا، لأن السلطات لن

تسمح لها بالخروج. كان رحيل تيريزا نهائياً وكان هو غير قادرٍ على أن يصدّق ذلك.

14

كانت فكرة أنه عاجز عن فعل شيء تغرقه في حالة من الذهول وتهدّئ من روعه في آن. لا أحد كان يجبره على أن يأخذ قراراً. ولا عاد بحاجة إلى تأمّل حائط المبنى المقابل وهو يتساءل إذا كان راغباً في العيش معها أم لا. لقد قررت تيريزا بنفسها كل شيء.

ذهب ليتناول غداءه في مطعم. كان يشعر أنه حزين. لكن يأسَه الأولي أخذ يتلاشى، أثناء تناوله الوجبة، وكأنه قد فَتُرَ وفقد من زخمه، مُخلياً المكان للكآبة. كان يستعيد السنوات التي أمضاها برفقتها ويفكّر أن قصّتهما لا يمكنها أن تنتهي بشكل أفضل. فحتى لو خُلقت من جديد لما قُدّر لها أن تنتهي بطريقة أخرى:

ذات يوم جاءت تيريزا لزيارته دون أن تُعلمه. وذات يوم رحلت بالطريقة نفسها، وصلت مع حقيبة ثقيلة وعادت بحقيبة ثقيلة.

دفع ثمن الغداء وخرج من المطعم، ثم ذهب للقيام بجولة في الشوارع مفعماً بكآبة كان شعوره بلذّتها يتزايد. وراءه سبع سنوات مع تيريزا وها قد اكتشف الآن أن هذه السنوات هي أجمل في الذكرى منها في الواقع.

كان الحب بينه وبين تيريزا جميلاً، بكل تأكيد، ولكنه كان متعباً: وجب عليه دائماً أن يخفي أمراً ما، وأن يتكتم، وأن يستدرك، وأن يرفع من معنوياتها، وأن يواسيها، وأن يثبت باستمرار حبّه لها، وأن يتلقّى ملامات غيرتها وألمها وأحلامها، وأن يشعر بالذنب، وأن يبرر نفيه وأن يعتذر. الآن لقد زال التعب ولم تبقَ إلا الأشياء الجميلة.

كانت سهرة السبت لا تزال في بدايتها. وكان يتجول وحيداً للمرة الأولى في زوريخ ويتنشّق عميقاً عطر حريته. ها إنّ المغامرة تترصد له عند زاوية كل شارع، وها إنّ المستقبل يرجع غامضاً من جديد.. كان يعود إلى حياته كعازب، هذه الحياة التي كان على يقين من أنه مقدّر لها، لأنها الحياة الوحيدة التي يمكن أن يكون فيها الشخص الذي هو حقاً.

عاش سبع سنوات متقيداً بتيريزا، وتيريزا لاحقت بنظراتها كل خطوة من خطواته، كما لو أنها أوثقت قدميه بكرة المحكومين بالإعدام. أما الآن فقد صارت خطوته فجأة أكثر خفة.. كان يحلّق تقريباً في فضاء بارمينيدس السحري: كان يتذوق الطعم العذب لخفّة الكائن.

هل كان راغباً في الاتصال بسابينا في جنيف أو مخابرة إحدى نساء زوريخ اللواتي تعرّف إليهن مؤخراً؟ لا لم تكن لديه أدنى رغبة في ذلك. كان يعرف أنّ ذكرى تيريزا سوف تسبب له ألماً مبرحاً إن هو اجتمع بواحدة أخرى.

15

دام هذا الافتتان الغريب الكئيب حتى مساء الأحد. نهار الإثنين تغيّر كل شيء. غزت تيريزا فكره فجأة: كان يحسّ بما كانت تعانيه وهي تكتب رسالتها الوداعية. أحسّ كم أن يديها ارتجفتا. كان يراها تجرّ حقيبتها الثقيلة ورسن كارنينا باليد الأخرى، وكان يتخيّلها تدير المفتاح في قفل الشقة في براغ فيشعر بأسى الوحدة يعصف في وجهها عندما تفتح الباب.

كان شعوره بالشفقة، (لعنة تبادل العواطف من شخص لآخر) خلال هذين اليومين من الكآبة العذبة، يستريح. كانت الشفقة ترقد كما

يرقد عامل المنجم يوم الأحد بعد أسبوعٍ مضنٍ لكي يتمكن من العودة للعمل في الأعماق نهار الإثنين.

كان توماس يعاين مريضاً في عيادته فإذا به يتخيّل تيريزا مكانه. فذكّر نفسه: لا تفكر فيها! لا تفكر فيها! وقال في نفسه: أنا مريض بالشفقة. جيّد أنها فكرت في الذهاب وأنني لن أراها بعد اليوم. عليَّ أن أتحرّر ليس منها فحسب بل من شفقتي أيضاً، ذلك المرض الذي لم يكن لي عهد به والذي انتقلت إليَّ جرثومته العصيّة على الشفاء.

كان قد أحسّ يومي السبت والأحد بعذوبة خفة الكائن تأتيه من عمق المستقبل. أما يوم الإثنين فأحسّ نفسه تحت ثقل حمل لا عهد له به من قبل. فالأطنان الحديدية للدبابات الروسية مجتمعة لم تكن شيئاً مقارنة بهذا الحمل. إن ألمنا الشخصي ليس أثقل من الألم الذي نعانيه مع الآخر ومن أجل الآخر وفي مكان الآخر؛ ألم يضاعفه الخيال وترجّعه مئات الأصداء.

كان ينهر نفسه ويأمرها بألاّ تمتثل للشفقة، وكانت الشفقة تُصغي إليه حانية الرأس كأنها متهم. كانت الشفقة تعرف بأنها تتجاوز حدودها ولكنها ظلّت تعاند سراً. مما حدا توماس بعد خمسة أيام من رحيل تيريزا على إبلاغ رئيس العيادة (وهو الشخص ذاته الذي كان يتصل به يومياً في براغ إبّان الاجتياح الروسي) بأنّ عليه أن يعود على وجه السرعة. كان يشعر بالخجل عارفاً بأنّ المدير سيجد تصرّفه هذا غير مسؤول ولا يُغتفر. رغب ألف مرة في أن يعترف له بكل شيء وفي أن يحدّثه عن تيريزا والرسالة التي تركتها على الطاولة. ولكنه لم يفعل. إنّ طبيباً سويسرياً لا يمكنه أن يرى في تصرّف تيريزا غير عمل هستيري يسبب الغيظ. وتوماس لن يسمح لأحد بأن يُسيء الظن بتيريزا.

كان المدير مغتاظاً بالفعل.

هزَّ توماس كتفيه وقال: «ليس من ذلك بدٌّ».

كان ذلك تلميحاً إلى العبارة الموسيقية الأخيرة من رباعية بيتهوڤن الأخيرة التي تتألف من هاتين الفكرتين.

أليس من ذلك بدٌّ؟

ليس من ذلك بدّ. ليس من ذلك بدّ.

ولكي يكون معنى هذه الكلمات واضحاً جلياً، دوّن بيتهوفن في مطلع العبارة الموسيقية الأخيرة الكلمات التالية: «القرار الموزون بصرامة».

كان توماس يجد نفسه، من الآن، بفضل هذا التلميح إلى بيتهوڤن، في جوار تيريزا. فهي كانت أجبرته على شراء أسطوانات لرباعيات بيتهوڤن وسوناتاته.

في أية حال، كان هذا التلميح مؤاتياً أكثر مما تصوّر، فالمدير كان مولعاً بالموسيقى. قال له وهو يبتسم ابتسامة مشرقة مقلّداً بصوته نَغَم بيتهوڤن: «أليس من ذلك بدّ؟»

وقال توماس مرة أخرى: «أجل، ليس من ذلك بدّا».

16

يبدو أنّ بيتهوڤن بخلاف بارمينيدس، كان يعتبر الثقل شيئاً إيجابياً. فعبارة «القرار الموزون بصرامة» مقرونة بصوت القدر («ليس من ذلك بدّ»). إذاً الثقل والضرورة والقيمة ثلاثة مفاهيم متلازمة جوهرياً: لا شأن إلاّ لما هو ضروري، ولا قيمة إلاّ لما له وزن.

هذه القناعة نابعة من موسيقى بيتهوڤن. ومع أنه من الممكن (إن لم يكن على الأرجح) أن تقع مسؤوليتها على شارحي بيتهوڤن أكثر مما تقع على بيتهوڤن نفسه، فإننا جميعاً نشاطرها اليوم: فما يصنع عَظَمة

الإنسان بالنسبة لنا هو أن يحمل قدره كما كان «أطلس» يحمل قبة السماء فوق كتفيه. إنّ البطل البيتهوفنيّ ربّاع يرفع أثقالاً ميتافيزيقية.

كان توماس يسير باتجاه الحدود السويسرية، وفي تصوّري أنّ بيتهوفن كان شخصياً بجبينه المقطب وشعره الأشعث، يدير جوقة موسيقى الإطفائيين المحليين عازفاً على شرف وداعه للهجرة لحن مارش عسكري عنوانه: «ليس من ذلك بدّ!».

ولكنّه وجد نفسه، بعد عبوره الحدود التشيكية، وجهاً لوجه أمام رتل من الدبابات الروسية. فأوقف سيارته عند مفرق طريق وانتظر مدة نصف ساعة إلى أن مرّت.

تمركز جنديٌّ دبابةٍ مخيف يرتدي بذلة سوداء وسط مفرق الطرق وأخذ ينظّم السير وكأنّ طرق بوهيميا تخصه هو دون سواه.

«ليس من ذلك بدّ!». كان توماس يردد في نفسه ولكنه لم يلبث أن يشك في ذلك: «أكان لا بدّ من ذلك حقاً؟».

نعم، كان البقاء في زوريخ وترك تيريزا وحدها في براغ، أمراً غير محتمل.

ولكن كم من الوقت كان سيمرّ والشفقة تعذبه؟ الحياة بطولها؟ أم سنة؟ أم شهر؟ أم أسبوع واحد؟

كيف بإمكانه أن يعرف، كيف بإمكانه أن يتحقق من ذلك؟

يمكن لأي طالب خلال قيامه بالتمارين العملية للفيزياء، أن يقوم بتجارب معيّنة لإثبات صحة الافتراض العلمي. أما الإنسان فلا يملك إلاّ حياة واحدة ولا يملك أية إمكانية لإثبات الافتراض عبر التجربة.. لذلك، فهو لن يعرف أبداً إن كان على حق أم لا في امتثاله لشعوره.

هذا ما كان يفكر فيه وهو يفتح باب الشقة. قفزت كارنينا إلى وجهه مما سهّل لحظة اللقاء. كانت الرغبة في الارتماء بين ذراعي

تيريزا، (هذه الرغبة التي كانت تجتاحه لحظة صعوده إلى السيارة في زوريخ)، قد تلاشت تماماً. لقد كانا يقفان وجهاً لوجه وسط سهل يغطيه الثلج وكانا يرتجفان من البرد.

17

منذ اليوم الأول للاحتلال والطائرات الروسية تحلّق طوال الليل في أجواء براغ. كان توماس غير قادر على النوم لأنه فَقَد التعود على هذه الضجة. أخذ يتقلب في جميع الاتجاهات إلى جانب تيريزا المستغرقة في النوم. كان يفكر في حديث جرى منذ سنوات تحدثا خلاله عن صديقه ز. . . ، حيث صرَّحت له آنذاك بذلك: «لو لم ألتقِ بك لوقعت في غرامه بالتأكيد».

منذ ذلك الحين أغرقت هذه الكلمات توماس في كآبة غريبة. كأنه فهم فجأة أنّ الصدفة هي التي جعلت تيريزا تتيّم به هو بدلاً من صديقه ز. . . ، وأنه يوجد، خارج نطاق حبها المتحقق لتوماس، إمكانات لا حصر لها من احتمالات الوقوع في غرام رجال آخرين.

في اعتقادنا جميعاً أنه لا يُعقل لحبّ حياتنا أن يكون شيئاً ما خفيفاً، دون وزن. كلنا نتصور أنّ حبنا هو قَدَرُنا وأنّ حياتنا من دونه لن تعود حياتنا. كما وأننا نقنع أنفسنا بأنّ بيتهوفن شخصياً بجبينه المقطّب وشعره الأشعث، يعزف من أجل حبنا الكبير لحن: «ليس من ذلك بدّ».

كان توماس يتذكر تعليق تيريزا حول صديقه ز. . . مستنتجاً أنّ قصة حب حياته لا ترتكز في النهاية على «ليس من ذلك بدّ»، بل تستند بالأحرى إلى «كان من الممكن أن يحدث هذا تماماً بطريقة مغايرة. . . ».

لسبع سنوات خَلَتْ أُعلن «صُدفة» عن وجود حالة خطيرة لالتهاب السحايا في مستشفى المدينة التي تسكن فيها تيريزا. فاستدعي رئيس القسم في المستشفى الذي كان توماس يعمل فيه لمعاينة هذه الحالة على وجه السرعة. ولكن، وعلى سبيل «الصدفة»، كان رئيس القسم يعاني من ألم عرق النَّسا، ولم يكن بإمكانه أن يتحرك. فأرسل توماس نيابة عنه إلى ذلك المستشفى الريفي.. كان في المدينة خمسة فنادق، ولكن توماس نزل «صُدفة» في الفندق الذي تعمل فيه تيريزا. وجلس «صدفة» في مشرب الجعة لتمضية الوقت قبل مجيء القطار. وكانت تيريزا تقوم بعملها «صدفة» فقدّمَتْ «صُدفة» المشروب لتوماس. وهكذا وجب إذاً وجود حلقة من ست صُدَفٍ لتدفع بتوماس إلى تيريزا. وكأنه في حال تُرك لذاته، لما كان اقتاده شيء إليها.

رجع إلى بوهيميا من أجلها. إنّ قراراً بهذه الأهمية يستند إلى علاقة حب هي من العَرَضية بحيث إنها لم تكن لتبصر النور لو لم يُصَبْ رئيس القسم بعرق النَّسا منذ سبع سنوات. وها إنّ هذه المرأة التي هي التجسيد المطلق للصدفة، تنام الآن إلى جانبه وهي تتنفس تنفّساً عميقاً.

كان الوقت متأخراً وبدأ توماس يشعر بألم في معدته، كما يحصل له عادة في لحظات الضيق.

تحوّل تنفس تيريزا لمرة أو لمرتين إلى غطيط خفيف. لم يكن توماس يشعر بأدنى شعور من الشفقة. شعور واحد فقط: ضغطٌ في فجوة معدته، وخيبة من قراره بالعودة.

القسم الثاني

الروح والجسد

1

ستكون سذاجة من قِبَل الكاتب أن يجعل القارئ يعتقد أنّ شخصياته وُجدت فعلاً. لا، هي لم تخلق من جسد امرأة أمّ بل من بضع جمل موحية أو من موقف حرج. توماس مثلاً خُلِق من جملة: مرة واحدة لا تُحسب، مرة واحدة هي أبداً. أما تيريزا فخُلِقتْ من بضع قرقرات معويّة.

حين تخطت في المرة الأولى عتبة شقة توماس، أخذت أمعاؤها تقرقر. يجب ألا نُفاجأ فهي لم تتناول غداءها ولا عشاءها بعد، بل اكتفت بسندويش تناولته آخر الصبيحة على رصيف المحطة، قبل أن تصعد إلى القطار. ذلك أنها كانت مأخوذة بفكرة سفرها الجريئة مما أنساها الأكل. لكن حين لا نهتم بجسدنا، نصير عندئذ ضحايا له بسهولة. أيّ عذاب في أن تسمع بطنها يتكلم وهي تقابل توماس! أوشكت أن تبكي. ولكن توماس، لحسن الحظّ، عانقها بعد عشر ثوانٍ واستطاعت بذلك أن تنسى أصوات بطنها.

2

خُلِقت تيريزا إذاً من حالة تعبّر بشكل سافر عن ثنائية الجسد والروح، تلك التجربة الإنسانية الأساسية.

قديماً، كان الإنسان يسمع بدهشة هذا الضرب المنتظم الذي يأتيه من عمق صدره، ويتساءل عمَّا يكون. لم يكن بإمكانه أن يعدّ نفسه مماثلاً لشيء مجهول وغريب اسمه الجسد. كان الجسد بمثابة قفص، في داخله شيء ما ينظر ويسمع ويخاف ويُفكر ويُدهش. وهذا الشيء، هذه البقية الباقية، هذه النتيجة الحاصلة عن الجسد، هو الروح.

اليوم، كفّ الجسد بالتأكيد عن أن يكون لغزاً: فالذي يدق في الصدر هو القلب كما بات معروفاً، والأنف ليس إلا نهاية القصبة الناتئة عن الجسد التي توصل الأوكسجين إلى الرئتين. أما الوجه فهو لوحة دفّة القيادة التي ترسو عليها أعمال الجسد كلّها: الهضم والنظر والسمع والتنفس والتفكير.

لحظةَ استطاع الإنسان أن يسمّي أجزاء الجسد، صار الجسد يُشغله أقل. كلنا نعرف أن الروح ما هي إلا نتيجة نشاط المادة السنجابية في الدماغ. وأن ثنائية الروح والجسد اختفت خلف عبارات علمية، وهي لم تعد اليوم إلا مزاعم عفا عليها الزمن، ومثيرة للسخرية. لكن يكفي أن نحب حتى الجنون وأن نسمع مع ذلك أمعاءنا تقرقر فتختفي مقولة وحدة الجسد والروح، ويختفي معها ذلك الوهم المثالي للعصر العلمي.

3

كانت تحاول أن ترى روحها من خلال جسدها. لذلك كانت تنظر مراراً إلى نفسها في المرآة. وبما أنها كانت تخاف من أن تباغتها أمها وهي في هذا الوضع، فإن هذه النظرات كانت تحمل إذاً طابع آفة سرية.

لم يكن اعتدادها بنفسها هو الذي يجذبها إلى المرآة، بل دهشتها من اكتشافها لذاتها فيها. كانت تنسى أنها أمام لوحة الدقّة التي تخصّ أعمال الجسد. كانت تظن أن روحها تنكشف عبر ملامح وجهها، ناسيةً أن الأنف هو نهاية القصبة التي توصل الهواء إلى الرئتين، لترى فيه تعبيراً صادقاً عن طبيعتها.

كانت تتأمل نفسها طويلاً في المرآة. وكان يزعجها أحياناً أن ترى على وجهها ملامح وجه أمها. لذلك، كانت تواصل بعنادٍ متزايد النظر إلى نفسها في المرآة، وهي تركّز كل جهودها لتنزع عنها سيماء أمها فيصير الوجه صفحة بيضاء لا يتبقى عليها إلاّ ما يخصّها هي. كانت اللحظة التي تستطيع فيها أن تنجح في ذلك لحظة مُسكِرة: كانت الروح حينئذ تطفو على سطح الجسد شبيهة بطاقم يقفز من قلب السفينة ويجتاح الجسر ملوّحاً بذراعيه نحو السماء، وهو يغنّي.

4

لم تكن تشبه أمها من ناحية الشكل فحسب إنما أشعر أحياناً أن حياتها أيضاً ليست إلا امتداداً لحياة أمها. كما أن جريان كرة البلياردو هو امتداد للحركة التي قامت بها ذراع اللاعب.

متى وأين بدأت هذه الحركة التي تحوّلت فيما بعد إلى حياة تيريزا؟

كان ذلك بالضبط حين امتدح تاجر من براغ جمال ابنته، أم تيريزا. كانت الأم حينذاك في سنّ الثالثة أو الرابعة، وكان يقول لها إنها تشبه عذراء (مادونا) رافائيل. فحفظت هذا الأمر جيداً، وبدل أن تصغي، وهي على مقاعد الدراسة، للأستاذ، كانت تتساءل أي رسم يمكن أن تشبه.

عندما صارت في السن التي تؤهلها للزواج، كان لديها تسعة عشاق. كانوا يطوقونها جاثين أمامها، وهي في وسط هذه الدائرة مثل أميرة. ولم تكن تعرف أيهم تختار: فالأول كان الأجمل، والثاني الأرهف، والثالث الأكثر ثراء، والرابع الأقوى كرياضي، والخامس من عائلة محترمة، والسادس ينشد لها أشعاراً، والسابع جال حول العالم، والثامن عازف كمان، والتاسع الأكثر فحولة بين الرجال. ولكنهم كانوا جميعاً يجثون بالطريقة نفسها، وعلى رُكَبِهم الانتفاخات نفسها.

واختارت في النهاية، التاسع ليس لأنه الأكثر فحولة، بل لأنه كان يتقصّد عدم الانتباه عندما كانت تهمس في أذنه أثناء الجماع: «احترس جيداًا احترس جيداً!». لذلك اضطرت للاستعجال في الزواج لأنها لم تجد طبيباً يجهضها. وهكذا ولدت تيريزا. توافد أفراد العائلة الذين لا يحصى عديدهم من كل صوب، انحنوا فوق المهد وأخذوا يُناغون. أما أم تيريزا فلم تكن تناغي. بل كانت تصمت وتفكر في العشاق الآخرين فتجدهم كلهم أفضل من التاسع. كانت أم تيريزا تحب كثيراً، مثل ابنتها، النظر في المرآة. لاحظت ذات يوم وجود تجاعيد حول عينيها ففكرت أنّ الزواج لا معنى له. التَقَتْ ذات يوم رجلاً لم يكن فحلاً إطلاقاً وكان يجرُّ وراءه عدة أعمال احتيال وطلاقَيْن. وبما أنها لم تعد تحب العشاق المنتفخة رُكَبهم، شعرت إذاً برغبة جامحة في أن تجثو بدورها فسقطت راكعة أمام النصّاب وتركت زوجها وتيريزا.

أصبح الأكثر فحولة بين الرجال أنفسهم. كان تعيساً إلى درجة أنه لم يعد يبالي بشيء، يقول ما يفكر فيه بصوت عالٍ وفي كل مكان. فانزعجت الشرطة الشيوعية من أفكاره غير اللائقة فاستجوبته وزجّته في السجن.. وهكذا طُردت تيريزا من البيت الذي خُتم بالشمع الأحمر، وانتقلت لتعيش مع أمها.

بعد فترة قصيرة توفي أتعس الرجال في السجن. أما الأم التي

لحقت بها تيريزا فانتقلت لتعيش مع النصّاب في مدينة صغيرة عند أسفل الجبال. كان زوج الأم موظفاً في مكتب والأم بائعة في أحد المخازن. رُزِقت ثلاثة أولاد أيضاً. ثم، نظرت ذات يوم إلى هيئتها في المرآة فاكتشفت أنها صارت عجوزاً وذهب جمالها.

5

وإذ أدركت أنّ كل شيء ضاع من يدها، أخذت تفتش عن مذنب. ومذنباً كان الجميعُ: مذنب زوجها الأول الفحل واللامحبوب، فهو لم يطعها عندما همست في أذنه بأن ينتبه. مذنب زوجها الثاني المحبوب والأقل فحولة، لأنه اقتادها بعيداً عن براغ إلى مدينة ريفية صغيرة، ولأنه كان يجري وراء تنانير النساء إلى درجة أنها عاشت حياة من الغيرة المتواصلة. حيال زوجيْها كانت عزلاء، دون سلاح. أما الكائن الوحيد الذي ينتمي إليها دون أن يتمكن من الإفلات منها، والرهينة التي يمكن أن تكفّر عن الآخرين كافةً، فكانت تيريزا.

على أية حال، ربما كان صحيحاً أنها مسؤولة عما حصل لأمها. فهي التقاء أخرق لحيوان منوي من الأكثر فحولة بين الرجال، وبويضة من أجمل النساء. بدأت الأم انطلاقاً من هذه الثانية المقدّرَة التي اسمها تيريزا، ماراتون حياتها الفاسدة.

كانت تردّدُ من غير كلل على مسامع تيريزا بأنّ كون المرأة أُمّاً يعني أنَّ عليها أن تضحي بكل شيء. كانت كلماتها مقنعة، فهي تعبّر عن تجربة امرأة أضاعت كل شيء بسبب ابنتها. كانت تيريزا تصغي إليها وهي مقتنعة بأنّ أعظم قيمة في الحياة هي الأمومة، وأنّ الأمومة هي التضحية المثلى. إذا كانت الأم تمثّل التضحية بحد ذاتها، فالابنة كونها بنتاً هي الخطيئة التي لا يمكن التكفير عنها.

6

بطبيعة الحال، لم تكن تيريزا على علم بواقعة تلك الليلة التي همست أمها فيها في أذن الرجل الأكثر فحولة بين الرجال، بأن ينتبه. كان الشعور بالذنب الذي أحسّت به مبهماً كالخطيئة الأصلية. وكانت تفعل كل ما في وسعها للتكفير عنه. فبعد أن أخرجَتْها أمها من المدرسة وهي في سن الخامسة عشرة، عَمِلتْ كساقية، وكانت تعطيها كل ما تجنيه. كانت على استعداد للقيام بكل ما يجعلها تستحق حبها. كانت تقوم بتنظيف البيت وتُعنى بإخوتها وأخواتها وتمضي طوال نهار الأحد في الفرك والغسيل. كان هذا الأمر يدعو إلى الأسف لأنها كانت الأذكى في صفها. كانت راغبة في أن ترتقي ولكن أنّى لها أن ترتقي في هذه المدينة الصغيرة؟ كانت تغسل الثياب واضعة كتاباً قرب المغطس، فيبتل الكتاب بقطرات الماء وهي تقلب الصفحات.

كان الاحتشام معدوماً داخل المنزل، فأُمها تتجول في الشقة وهي في ملابسها الداخلية، وأحياناً دون صدرية، وأحياناً أخرى عارية تماماً في أيام الصيف. أما زوج والدتها فلم يكن يتجول قط وهو عارٍ تماماً، إلاّ أنه كان يتحيّن دائماً فرصة وجود تيريزا في المغطس لكي يدخل إلى الحمام. فأقفلت على نفسها ذات يوم بالمفتاح ولكن أمّها وبّختها قائلة: «من تعتبرين نفسك؟ ماذا تعتقدين؟ لن يلتهم لك جمالك!».

(هذا الموقف يُظهر بوضوح أنّ كراهية الأم لابنتها كانت أقوى من غيرتها على زوجها. وبما أنّ غلطة الابنة لا حدود لها فإنها كانت تشمل أيضاً خيانات الزوج. فأن تجرؤ الابنة على الاستقلال برأيها والمطالبة بحقوقها كحقها مثلاً في أن تقفل الباب على نفسها في غرفة الحمام - أمر ترفضه الأم أكثر مما ترفض الإقرار بنيّة جنسية محتملة يضمرها الزوج لتيريزا).

ذات يوم من أيام الشتاء، كانت الأم تتجول عارية والغرفة مضاءة. فهرعت تيريزا لإنزال الستارة لكي لا يرى أحد أمها من البناية المقابلة. فسمعتها تضحك خلف ظهرها. في اليوم التالي، جاءت بعض الصديقات لزيارة أمها: جارتها وصاحبتها في المخزن، ومعلمة الحي، وامرأتان أو ثلاث كنّ يأتين بانتظام. جاءت تيريزا لتجلس معهن لحظة وبرفقتها ابن إحدى هؤلاء النسوة وهو صبي في السادسة عشرة من عمره.

فاغتنمت الأم الفرصة لتروي لصديقاتها كيف أرادت تيريزا أن تحافظ على الاحتشام. كانت تضحك وجميع النساء كن يقهقهن. ثم قالت الأم: «تيريزا لا تريد أن تعترف بأنّ الجسد الإنساني يبول ويضرط». كانت تيريزا تحمرّ خجلاً، لكن أمها تابعت مع ذلك: «وما الضرر في ذلك؟». وردّت بنفسها على سؤالها فأفلتت للحال بضع ضرطات طنانة. فانفجرت النساء كلهن بالضحك.

7

تتمخط الأم بصوتٍ عالٍ وتروي أمام الناس تفاصيل من حياتها الجنسية وتعرض طقم أسنانها. وهي تتفنّن في سحبه بضربة لسان واحدة وببراعة لافتة فتترك الفك الأعلى يسقط فوق الأسنان السفلى وهي تبتسم ملء فمها، فيصبح وجهها مقشعراً مثل جلد دجاجة.

لم يكن سلوكها برّمته إلاّ حركة عنيفة تقذف بها شبابها وجمالها. حين كان العشاق التسعة يتحلقون جاثين أمامها، كانت تحرص على عريها كل الحرص. وكانت تقيس قيمة جسدها بمعيار حشمتها. إذا كانت قد أصبحت فاحشة الآن فهذا لأنها تريد أن تسدل ستاراً سميكاً على حياتها السابقة، وأن تصرخ بأعلى صوتها قائلة إنّ الشباب والجمال اللذين غالت في تقديرهما لا يساويان شيئاً في الحقيقة.

تبدو لي تيريزا إذاً وكأنها امتداد لهذه الحركة التي قذفت بها أمها، بعيداً، حياتها كامرأة جميلة.

(وإذا رأينا أنّ لتيريزا نفسها حركات عصبية وأنّ تصرفاتها تفتقر إلى التمهّل الأنيق، فيجب ألا نُفاجأ: فهذه الحركة العنيفة الصادرة عن أمها، والمدمّرة لذاتها، هي تيريزا، تيريزا بالذات..).

8

تطالب أم تيريزا بأن تُنصَف ويعاقَب المتهم، تصرّ على أن تبقى ابنتها معها في عالم الفحش، حيث الشباب والجمال لا يساويان شيئاً، وحيث العالم مجرّد معسكر اعتقال كبير للأجساد المتشابهة وحيث الأرواح متوارية.

الآن، يمكننا أن نفهم بشكل أفضل آفة تيريزا السرية ونظراتها المتكررة أمام المرآة، فالأمر هو بمثابة صراع مع أُمها ورغبة في ألا تكون جسداً كبقية الأجساد، بل في أن ترى طاقم بحارة الروح يتدفق من قلب السفينة ليستقر على صفحة وجهها. لم يكن الأمر سهلاً فروحها كانت تختبئ في قعر الأحشاء حزينة وخائفة وخجلة من أن تظهر نفسها.

كانت على هذه الحال عندما التقت توماس للمرة الأولى. كانت تتغلغل بين السكارى في مشرب الجعة وجسدها ينوء تحت ثقل أكواب الجعة التي كانت تحملها فوق الصينية.. وكانت روحها هناك في جوف معدتها أو في البنكرياس. في هذه اللحظة سمعت توماس يناديها. كان هذا النداء ذا شأن فهو صادر عن شخص لا يعرف أمها ولا السكارى الذين تسمع كل يوم تعليقاتهم الفاحشة الرخيصة. كان وضعه كغريب يضعه في مرتبة فوق الآخرين.

وثمة شيء آخر: كان هناك كتاب مفتوح على الطاولة.. وفي هذا

المقهى لم يكن لأحد من قبل كتاب مفتوح على الطاولة. كان هذا الكتاب بالنسبة لتيريزا علامة على وجود أخوّة سرية. فهي لم تكن تملك، في مواجهة عالم التفاهة الذي يحيط بها، إلاّ سلاحاً واحداً: الكتب التي تستعيرها من مكتبة البلدية وخصوصاً الروايات. كانت تقرأ أكداساً منها، ابتداءً بـ«فيلدنغ» وانتهاءً بـ«توماس مان». كانت هذه الروايات تمنحها فرصة للهروب الخيالي، وتقتلعها من حياة لم تكن تمنحها أي إحساس بالرضى. لكنها كانت أيضاً كانت ذات مغزى بصفتها أشياء: كانت تحب أن تتنزه وهي تتأبط كتباً. كانت تميّزها عن الآخرين مثلما كانت العصا تميّز المتأنق في القرن الفائت.

(المقارنة بين الكتاب وعصا المتأنق ليست صحيحة تماماً. فالعصا التي تميّز المتأنق كانت تجعل منه شخصاً عصرياً و«على الموضة». أمّا الكتاب الذي يميّز تيريزا عن النساء الأخريات فيجعلها خارج زمانها. كانت طبعاً أكثر شباباً من أن تفهم ما هو «قديم الزي» في شخصيتها. كانت تجد المراهقين الذين يتنزهون حولها حاملين ترانزستورات زاعقة، بُلْه، ولم يكن يخطر في بالها أنهم عصريون).

إذاً، الرجل الذي كان يناديها غريب وعضو في أُخوّة سرية. كان يتكلم بلهجة مؤدبة، فأحسّت تيريزا عندئذ أنّ روحها تندفع إلى السطح عبر شرايينها كلها، وعبر جميع أوعيتها الشعرية ومسامها، لكي تتيح له رؤيتها.

9

شعر توماس، بعد رجوعه من زوريخ إلى براغ، بضيق حين فكّر أنّ لقاءه بتيريزا كان حصيلة صدف ست بعيدة الاحتمال.

لكن، خلافاً لذلك. أفلا تقاس أهمية حدث وكثرة معانيه بارتباطه بأكبر عدد ممكن من الصدف؟

وحدها الصدفة يمكن أن تكون ذات مغزى. فما يحدث بالضرورة، ما هو متوقع ويتكرر يومياً يبقى شيئاً أبكم. وحدها الصدفة ناطقة. نسعى لأن نقرأ فيها كما يقرأ الغجريون في الرسوم التي يخطها ثفل القهوة في قعر الفنجان.

كان وجود توماس، بالنسبة لتيريزا، في مشرب الجعة حيث تعمل، تجسيداً مطلقاً للصدفة. كان جالساً وحده إلى طاولة أمام كتاب مفتوح. ثم رفع عينيه ناحيتها وابتسم: «واحد كونياك».

كانت الموسيقى، في هذه اللحظة بالذات، تَبثّ عبر الراديو. ذهبت تيريزا لإحضار كأس كونياك عن طاولة المَشْرب. وأدارت زر الراديو لتزيد من قوة الصوت فهي تعرف أنّ هذه الموسيقى لبيتهوڤن، الذي تعرّفت إليه يوم أتى رباعي موسيقي من براغ للقيام بجولة في المدينة الصغيرة. ذهبت تيريزا (التي كانت تتوق «للارتقاء» كما نعلم) إلى الحفلة الموسيقية حيث كانت الصالة خالية، وهي وحدها مع الصيدلي وزوجته. كان هناك رباعيٌّ من الموسيقيين على حلبة المسرح وثلاثي من المستمعين في الصالة. ولكن الموسيقيين كانوا لطفاء جدّاً فلم يلغوا الحفلة بل عزفوا لهم وحدهم، طوال السهرة، الرباعيات الثلاث الأخيرة لبيتهوفن.

دعا الصيدلي الموسيقيين إلى العشاء بعد انتهاء الحفلة، ثم توسّل إلى المستمعة المجهولة أن تنضم إليهم. منذ ذلك الحين صار بيتهوڤن بالنسبة لها صورة عن الجانب الآخر من العالم. والآن، وفيما كانت راجعة لتقدّم لتوماس كأس الكونياك التي تناولتها عن طاولة الشرب، حاولت جاهدة القراءة في هذه الصدفة: كيف اتفق أنها سمعت موسيقى بيتهوڤن في اللحظة نفسها التي استعدّت فيها لتقديم الكونياك إلى هذا الغريب الذي استهواها؟

للصدفة وحدها مثل هذا السحر، لا الضرورة. وكي يكون حبّنا غير قابل للنسيان، يجب أن تجتمع الصدف من اللحظة الأولى مثلما اجتمعت العصافير فوق كتفي القديس فرنسيس الأسيزي.

10

ناداها ليدفع الحساب. ثم أغلق الكتاب (هذه العلامة المميزة على وجود أخوّة سرية) فرغبت في معرفة ماذا كان يقرأ.

سألها: هل يمكنك أن تسجّلي الثمن على ورقة حسابي في الفندق؟

- بالتأكيد. ما هو رقم غرفتك؟

دلّها على مفتاح معلّق في نهاية لوحة خشبية تحمل الرقم 6 مكتوباً باللون الأحمر.

قالت: «غريب. أنت تقيم في الغرفة رقم 6».

فسألها: «وما الغريب في الأمر؟».

تذكرت أنّ البناية التي كانت تقيم فيها مع أهلها في براغ قبل طلاقهما، كانت تحمل الرقم 6. ولكنها قالت شيئاً آخر تماماً (ولا يمكننا إلاّ أن نُعجَب بحيلتها): «أنت في الغرفة رقم 6. وأنا أنهي عملي في الساعة السادسة».

قال الغريب: وأنا سأستقلّ قطار الساعة السابعة.

لم تدرِ ماذا تقول. مدّت له ورقة الحساب ليوقّع عليها وحملتها إلى مكتب الاستقبال. عندما أنهت عملها كان قد ترك الطاولة، فهل فهم قصدها الخفي؟ أحبّت أنها متوفّزة عند خروجها من المطعم.

في الجهة المقابلة، وسط المدينة الصغيرة القذرة، كانت هناك

حديقة صغيرة كئيبة، شكلّت لها دائماً جزيرة جمال صغيرة: مرجة وأربع شجرات حور ومقاعد وصفصافة باكية وجنبات فرسيثية(*).

كان جالساً على مقعد يمكن منه رؤية مدخل مشرب الجعة. كانت تجلس على المقعد ذاته مساء البارحة وهي تحمل كتاباً فوق ركبتيها! فهمت حينئذ (كانت عصافير الصدفة تتجمع على كتفيها) أنّ هذا الغريب مقدّر لها. ناداها ثم دعاها للجلوس قربه. (فأحست تيريزا أن طاقم بحّارة الروح يندفع ليجتاح جسر جسدها). رافقته بعد ذلك إلى المحطة، وقبل أن يغادر أعطاها بطاقة دعوة ورقم هاتفه: «فيما لو أتيتِ صدفة إلى براغ..».

11

ولكن، وأكثر من بطاقة الدعوة هذه التي أعطاها إياها في آخر لحظة، ما شجع تيريزا على الرحيل عن بيتها وتغيير حياتها هو نداء الصدف (الكتاب، بيتهوفن، الرقم 6، المقعد الأصفر في الحديقة الصغيرة). ربما هذه الصدف القليلة (والتي هي على كل حال بسيطة وعادية وجديرة فعلاً بهذه المدينة التافهة) هي التي حرّكت حبها وصارت مصدر الطاقة الذي سترتوي منه حتى النهاية.

إن حياتنا اليومية مفخخة بالصدف وتحديداً باللقاءات العرضية بين الناس والأحداث، أي ما نسمّيه المصادفات: والمصادفة هي لحظة يقع حدثان غير متوقعين في الوقت نفسه فيتلاقيان: توماس يظهر في مشرب الجعة لحظة تُبثّ موسيقى لبيتهوفن عبر الراديو. في أغلب الأحيان تمرّ مصادفات كثيرة دون أن نلاحظها إطلاقاً. فلو أن اللحام في الزاوية جلس أمام الطاولة مكان توماس، لما كانت تيريزا لاحظت أن الراديو

(*) (forsythias) نو من النبات المعرّش.

يبثّ موسيقى لبيتهوفن (مع أن تلاقي بيتهوفن واللحام يعدُّ أيضاً مصادفة غريبة). لكن الحب المُبرعم عزّز في داخلها الشعور بالجمال وهي أبداً لن تنسى هذه الموسيقى. وفي كل مرة ستسمعها ستنفعل، وسيكون كل ما يحدث حواليها في هذه اللحظة محاطاً بهالة هذه الموسيقى، وجميلاً.

في مطلع الرواية التي كانت تتأبطها تيريزا يوم جاءت إلى براغ، تلتقي آنّا بفرونسكي في ظروف غريبة. كانا واقفين على رصيف المحطة عندما سقط أحدهم تحت القطار. وفي نهاية الرواية آنّا هي التي تُلقي بنفسها تحت القطار. قد تبدو هذه الحركة المتوازية حيث يظهر الحافز نفسه في مطلع الرواية وفي نهايتها، «روائية جدّاً». نعم، أقبلُ بذلك. لكن شريطة ألا يعني «ما هو روائي» شيئاً «مختلقاً» و«مصطنعاً» و«من دون حياة». ذلك أن الحياة الإنسانية مركّبة على هذا النحو تماماً.

فهي مركّبة مثل مقطوعة موسيقية. فالإنسان، بدافع من إحساسه بالجمال، يحوّل الحدث العرضي (موسيقى بيتهوفن أو الموت في المحطة) إلى لازمة تسجَّل في الحال في مقطوعة حياته، وهو يرجع إليها ويكررها ويغيّر فيها ويطوّرها كما يفعل أيّ موسيقيّ بالفكرة الرئيسية لسوناتته. كان بإمكان آنّا أن تضع حداً لحياتها بطريقة مختلفة تماماً. ولكن حافز المحطة والموت، هذا الحافز الذي لا يُنسى لاقترانه ببداية الحب، كان يجذبها في لحظات اليأس، بجماله القائم. فالإنسان ينسج حياته على غير علم منه وفقاً لقوانين الجمال حتى في لحظات اليأس الأشدّ قتامة.

لا يمكن إذاً أن يأخذ أحد على رواية افتتانها بالاجتماع الغمض للصدف. (مثلاً، تلاقي فرونسكي وآنّا والرصيف والموت أو تلاقي بيتهوفن وتوماس وتيريزا وكأس كونياك). لكن يمكن أن يؤخذ بِحقّ

على الإنسان أن يُعمي عينيه عن هذه الصدف فيحرم بالتالي حياته من بُعد الجمال.

12

وإذ شجَّعتها عصافير الصدف المتجمعة على كتفيها، أخذت تيريزا عطلة أسبوع دون أن تخبر أمها، وصعدت في القطار. دخلت مراراً إلى المرحاض لكي ترى نفسها في المرآة، لكي تتوسل إلى روحها بألاّ تبرح ثانيةً واحدةً جسر جسدها في هذا اليوم المصيري من حياتها. وإذا كانت تنظر إلى نفسها هكذا، اعتراها الخوف: كانت تشعر أن حلقها ملتهب.. أتراها ستصاب بالمرض في هذا اليوم المُقَدَّر؟

ولكن لا إمكان للتراجع. خابرتْه من المحطة ولحظة فُتح الباب أرسل بطنها فجأة قرقرات مفزعة، فخجلت. كأنّ أمها كانت هناك داخل بطنها تضحك لتفسد عليها لقاءها.

حسِبت أول الأمر أنه سيرميها في الخارج بسبب هذه الأصوات غير اللائقة، غير أنّه أخذها بين ذراعيه. كانت ممتنة له لأنه غير مبالٍ بقرقراتها، فقبّلته بشغف متزايد وعيناها تغشاهما الضبابة. ثم بعد دقيقة بالكاد مارسا الحب. كانت تصرخ خلال المضاجعة. فحمى الزكام قد اعترتها ونهاية القصبة التي تنقل الهواء إلى الرئتين كانت حمراء ومسدودة.

ثم رجعت في المرة الثانية مع حقيبة كدّست فيها حوائجها كلّها، وقد قررت ألاّ ترجع أبداً إلى المدينة الصغيرة. لم يدعُها إلى زيارته إلا مساء اليوم التالي، فأمضت الليلة في فندق رخيص. عند الصباح، أودعت حقيبتها في مكتب الاستعلامات في المحطة، ثم تسكعت طوال النهار في شوارع براغ وهي تتأبط «آنّا كارنينا». وعند المساء قرعت وفتح لها. لم تتخلَّ عن الكتاب وكأنه بطاقة دخولها إلى عالم توماس.

كانت عارفة أنها لا تملك جواز مرور آخر إلا هذه التذكرة التعيسة، وكان هذا يدفعها إلى البكاء. ولكي تتحاشى البكاء، أخذت تثرثر وتتكلم بصوتٍ عالٍ وتضحك. ولكن، وكما في المرة الأولى، ما إن تجاوزت العتبة حتى ضمّها بين ذراعيه ومارسا الحب. فغرقت في ضباب لا يمكن أن يُرى من خلاله شيء، ولا يُسمع سوى صراخها فقط.

13

لم يكن صراخها لهاثاً ولم يكن تأوّهاً، بل صراخ حقيقي. كانت تصرخ بصوت عالٍ إلى درجة أن توماس أبعد رأسه عن وجهها وكأن صوتها الزاعق سيثقب طبلة أذنه. لم يكن الصراخ تعبيراً عن الشبق، فالشبق هو التعبئة القصوى للحواس: نراقب الآخر بانتباه بالغ ونسمع أدنى أصواته. لكن صراخ تيريزا كان بخلاف ذلك، يريد أن يُرهق الحواس ويمنعها من الرؤية والسمع. كانت المثالية الساذجة لحبّها هي التي تزعق في داخلها راغبة في إلغاء كل التناقضات، وفي إلغاء ثنائية الروح والجسد، وحتّى في إلغاء الزمن.

أكانت عيناها مغمضتين؟ لا، لكنهما كانتا جامدتين لا تنظران إلى شيء، شاخصتين إلى فراغ السقف. وأحياناً كانت تدير رأسها تارة إلى هذه الجهة وتارة أخرى إلى تلك.

عندما هدأ صراخها، نامت قرب توماس وأمسكت بيده طوال الليل.

منذ كانت في الثامنة وهي تغفو جامعة يديها ومتخيّلة أنها تمسك الرجل الذي تحبّه، رجل حياتها. كان مفهوماً إذاً أن تشدّ بهذا العزم على يد توماس أثناء نومها: فهي كانت تتهيأ لهذا الأمر منذ الطفولة وتتمرّن عليه.

14

يُفترض بفتاة شابة تقدّم البيرة للسكارى، عوضاً عن «أن ترتقي»، وتمضي أيام الآحاد في غسل الثياب المتّسخة لإخوتها وأخواتها، يُفترض بها إذاً أن تكون قد خزّنت في داخلها حيوية هائلة لا يقدر على فهمها أولئك الذين يذهبون إلى الجامعة ويتثاءبون أمام الكتب. فتيريزا قرأت أكثر منهم وتعرف الكثير عن الحياة دون أن تعي ذلك. إذ ليس ما يميّز العصامي عن ذلك الذي يتابع دراسته، سعة الاطلاع، ولكن مستويات مختلفة من الحيوية والثقة بالنفس. كان الحماس الذي أكبّت به على الحياة عند قدومها إلى براغ، ضارياً وهشاً في آن. كانت تخشى من أن يجرؤ أحد على أن يقول لها: «السْتِ في مكانك هنا، ارجعي من حيث أتيتِ!». كان إقبالها على الحياة مشدوداً بكلّيته إلى خيط واحد: إلى صوت توماس الذي جعل روح تيريزا المنكفئة بخجل، تطفو على السطح.

صحيح أنها وجدت وظيفة في مختبر الصور ولكنها كانت غير قادرة على الاكتفاء بها. كانت تريد أن تلتقط بنفسها الصور. أعارتها سابينا صديقة توماس كتباً تحوي دراسات وافية عن الصور الشهيرة، ثم وافَتْها إلى مقهى وشرحت لها، أمام كتب مفتوحة، الأهمية التي تنطوي عليها هذه الصور. وكانت تيريزا تصغي إليها بانتباه صامت، شبيه بالانتباه الذي نادراً ما يصادفه الأستاذ على وجه أحد الطلاّب..

وهكذا فهمت تيريزا بفضل سابينا القرابة التي تجمع التصوير بالرسم. فصارت تجبر توماس على مرافقتها إلى كل المعارض وقد نجحت خلال فترة قصيرة في نشر صورها الخاصة في المجلة وتركت المختبر لتنتقل للعمل مع المصوّرين المحترفين للمجلة.

ذهبا في ذلك المساء إلى أحد الملاهي برفقة بعض الأصحاب

للاحتفال بترقيتها. ورقصوا فاغتمّ توماس. وحين ألحّت عليه ليقول لها ما به، أسرَّ إليها، أثناء العودة في الطريق، أنه شعر بالغيرة لأنه رآها ترقص مع زميله.

«أحقّاً جعلتك تغار؟»، ردّدت هذه العبارة عشرات المرات وكأنه كان يعلمها بأنها نالت جائزة نوبل، ورفضت أن تصدّق.

طوّقته بذراعيها وشرعت ترقص معه في الغرفة. إنما رقصتها لم تكن تشبه بشيء الرقصة المتمدنة التي أدّتها على حلبة الملهى قبل قليل، لا بل كانت تشبه رقصة شعبية ريفية تتألف من مجموعة قفزات غريبة. كانت تيريزا ترفع ساقيها عالياً ثم تقوم بقفزات عالية خرقاء وهي تجرّه في أركان الغرفة الأربعة.

ولكن، للأسف، ما لبثت أن أصابتها الغيرة بدورها بعد فترة قصيرة. أما غيرتها فلم تكن بالنسبة لتوماس بمثابة جائزة نوبل، ولكن حملاً لم يستطع التحرر منه إلا قبل سنة أو سنتين من وفاته.

15

كانت تسير عارية حول بركة السباحة، وسط موكب النساء الأخريات العاريات. وكان توماس واقفاً داخل سلّة معلّقة في السقف.. كان يزعق مجبراً إياهن على الغناء وثني الركاب. وما إن تقوم امرأة بخطوة خاطئة حتى يرديها قتيلة بطلقة من مسدسه.

أرغب مرة أخرى في الرجوع إلى هذا الحلم: لم يبدأ الرعب لحظة أطلق توماس الرصاصة الأولى، إنما الحلم كان مرعباً منذ البداية. أن تسير عارية وسط النساء العاريات كان بالنسبة لتيريزا الصورة الأكثر بدائية للرعب. فهي لمّا كانت تقيم مع والدتها، كانت تمنعها من أن تقفل باب الحمام بالمفتاح، وتقول لها: جسدك لا يتميز بشيء عن

الأجساد الأخرى. لذلك لا حق لك في الاحتشام ولا داعي لتخفي شيئاً موجوداً بمليارات النماذج، وبالطريقة عينها. فجميع الأجساد كانت متشابهة، ضمن عالم أمها، وتسير في صف منتظم، الواحد تلو الآخر. منذ الطفولة كان العري يمثل لتيريزا علامة التماثل الإجباري لمعسكر الاعتقال، علامة الذلّ.

ثمة شيء آخر مرعب في بداية حلمها: كان على جميع النساء أن يغنين! لم تكن إذاً أجسادهن متشابهة فقط ورخيصة بالتساوي، ومجرد آلات صوتية خالية من الروح، إنما كانت النساء، إلى ذلك، مغتبطات بأنفسهن! كان ذلك هو التضامن المتهلل لمن هنّ دون روح. كنّ سعيدات فهنّ أنزلن عن أكتافهن حمل الروح، تلك الصورة الخداعة للتفرد، وذلك الكبرياء المضحك، وها قد أصبحن جميعهن متشابهات. كانت تيريزا تشاركهن الغناء لكن من غير شعور بالغبطة. كانت تغني لأنها كانت خائفة من أن تقتلها النساء إن لم تغنِّ.

ولكن ما معنى أن توماس كان يطلق عليهن الرصاص من مسدسه فيرديهن قتيلات ويسقطن الواحدة تلو الأخرى في البركة؟

النساء المغتبطات، لكونهن يتشابهن تماماً ولا يتمايزن بشيء فيما بينهن، كنّ في الحقيقة يحتفلن بموتهن المقبل الذي سيجعل تشابههن مطلقاً. ولم تكن فرقعة الطلقة النارية إلاّ الخاتمة السعيدة لمشيهن الجنائزي. كنّ يضحكن متهللات لكل طلقة مسدس، ثم يتصاعد غناؤهن بقوة أكبر حين تنزلق إحدى الجثث ببطء لتغرق في الماء.

ولماذا كان توماس بالذات هو الذي يطلق النار؟ ولماذا أيضاً كان يريد أن يطلق النار على تيريزا؟

لأنه هو الذي أرسلها إلى هناك وسط أولئك النساء. هذا ما كان الحلم يريد أن يقوله لتوماس، لأنّ تيريزا لا تعرف أن تقول ذلك

بنفسها. لقد جاءت لتعيش معه هاربة من عالم أمها حيث جميع الأجساد متساوية. جاءت لتعيش معه آملة أن يصبح جسدها فريداً وغير قابل للاستبدال. لكن، ها هو بدوره يرسم بنفسه الإشارة التي تساويها بالأخريات: فهو كان يقبّلهن جميعاً بالطريقة نفسها ويغدق عليهن المداعبات ذاتها ولم يكن هناك فرق واحد، ولا فرق، أي فرق بين جسد تيريزا والأجساد الأخرى. كان قد أعادها إلى العالم الذي ظنّت أنها أفلتت منه، أرسلها لتسير عارية في ركب النساء العاريات.

16

كانت ترى بالتناوب ثلاث سلاسل من الأحلام: كانت السلسلة الأولى حيث تعاقبها الهررة بشراسة، تعبّر عما كانت تعانيه وهي على قيد الحياة. والسلسلة الثانية التي تُظهر صوراً متعددة شتّى بشأن إعدامها. أما السلسلة الثالثة فكانت تحكي عن حياتها في العالم الآخر، حيث يصبح الذلّ حالة أبدية.

لم تكن هذه الأحلام بحاجة إلى حلّ رموزها، فهي توجّه اتهاماً واضحاً إلى توماس، واضحاً إلى درجة أنّ توماس لم يعد له من حيلة سوى الصمت ومداعبة تيريزا وهو مطأطأ الرأس.

زد على ذلك أنّ هذه الأحلام، إلى فصاحتها، كانت جميلة. لقد أغفل فرويد هذا الجانب في نظريته عن الأحلام. فالحلم ليس فقط بلاغاً (بلاغاً مرمّزاً عند الاقتضاء) بل هو أيضاً نشاط جمالي ولعبة للخيال. وهذه اللعبة هي بحد ذاتها قيمة. فالحلم هو البرهان على أنّ التخيل وتصوّر ما ليس له وجود، هو إحدى الحاجات الأساسية للإنسان، وهنا يكمن أصل الخطر الخادع الكامن في الحلم. فلو أنّ الحلم ليس جميلاً، لأمكننا نسيانه بسهولة. لذلك، كانت تيريزا ترجع باستمرار إلى أحلامها وتعيدها في مخيلتها وتختلق منها أساطير. أمّا

توماس فكان يعيش تحت سلطان السحر المنوّم، سحر الجمال الأليم لأحلام تيريزا.

في ذات يوم، قال لها فيما كانا جالسين إلى طاولة في إحدى الحانات: «تيريزا، حبيبتي تيريزا، أنت تبتعدين عني. إلى أين تبغين الذهاب؟ تحلمين كل يوم بالموت كما لو أنك راغبة فيه حقّاً..».

كان النهار مشرقاً، وكان العقل والإرادة قد أمسكا الدفة من جديد. كانت نقطة من النبيذ الأحمر تسيل ببطء على حافة الكأس فيما تيريزا تقول: «ليس في استطاعتي حيلة. أفهم كل شيء وأعرف أنك تحبني. أعرف أيضاً أنّ خياناتك لا تحمل أي طابع مأساوي...».

كانت تنظر إليه بحب ولكن يتملكها الخوف من المساء الآتي، الخوف من أحلامها، فحياتها مقسومة إلى شطرين، والليل والنهار يتزاحمان للتأثير عليها.

17

من يبغي «الارتقاء» باستمرار، عليه أن يستعدّ يوماً للإصابة بالدوار. لكن ما هو الدوار؟ أهو الخوف من السقوط؟ ولكن لماذا نُصاب بالدوار على شرفة السطح حتى ولو كانت مزوّدة بدرابزين متين؟ ذلك أنّ الدوار شيء مختلف عن الخوف من السقوط. إنه صوت الفراغ ينادينا من الأسفل فيجذبنا ويفتننا. إنه الرغبة في السقوط التي نقاومها فيما بعد فنُصاب بالذعر.

موكب النساء العاريات حول البركة، الجثث المغتبطة بموت تيريزا في عربة الموتى، كل ذلك يؤلف الهاوية التي ترعبها والتي هربت منها ذات مرة ولكنها تجذبها في آن بطريقة غامضة. كان هذا هو دوارها. كانت تسمع نداءً عذباً جدّاً (فرحاً تقريباً) يدعوها للتخلي عن القدر

والروح، يدعوها للتضامن مع من هنّ دون روح. وكانت، في لحظات الضعف، ترغب في التجاوب معه والعودة إلى أمها. كانت ترغب في أن تعيد طاقم بحّارة الروح من على جسر جسدها إلى مكانه، وأن تتنزل للجلوس وسط صديقات أمها، وتضحك إن أفلتت الواحدة منهن أو الأخرى ضراطاً رنّاناً، وأن تمشي عارية في ركبهن، حول البركة وهي تغنّي.

18

كانت تيريزا على خلاف مع أمها قبل رحيلها عن العائلة، هذا صحيح. لكن لا ننسى أنها كانت تحب أمّها مع ذلك حبّاً يائساً. كانت على استعداد لفعل أي شيء من أجلها، لو أنها فقط طلبت ذلك منها بلهجة الحب. وعدم سماعها لهذه اللهجة هو الذي أمدّها بالقوة على الرحيل.

ولقد فهمت الأم أنّ عدائيتها لم تعد تنفع مع ابنتها، فأرسلت لها رسائل تستدرّ الدموع، حيث كانت تشتكي من زوجها ورب عملها وصحتها وأطفالها، وتقول إنّ تيريزا هي الكائن الوحيد الذي تبقّى لها في هذا الوجود. خيّل إلى تيريزا أنها سمعت في آخر الأمر لهجة الحب الأمومي التي كانت تتوق إليها طوال عشرين سنة، فشعرت برغبة في العودة. كانت هذه الرغبة تزداد كلّما أحسّت أنها ضعيفة. فخيانات توماس كانت تكشف لها في الحال عجزها. ومن هذا الشعور بالعجز يولد الدوار، هذه الرغبة الهائلة في السقوط.

خابرتْها الأم وقالت لها إنها تعاني من السرطان ولم يتبقّ لها غير أشهر قليلة تعيشها. فتحوّل اليأس الذي كانت تُغرقها فيه خيانات توماس، على إثر هذا الخبر، إلى تمرّد. كانت تلوم نفسها لأنها خانت أمها في سبيل رجل لا يحبها. كانت على استعداد لنسيان ما عانته من

أمها، ومستعدة الآن لتفهمها ولو كانت أمها شريرة في السابق، فهذا فقط لأنها كانت تعيسة للغاية.

أخبرت توماس عن مرض أمها، ثم أعلمته أنها ستأخذ إجازة لمدة أسبوع لتذهب لرؤيتها. وقالت ذلك بلهجة متحدية.

وكما لو أنّ توماس حزر بأن الدوار هو الذي يشدّ تيريزا الآن إلى أمها، فلم يوافق على هذه الرحلة. اتصل بمستوصف المدينة الصغيرة، لأنّ سجلات الفحوص السرطانية في بوهيميا مفصّلة بشكل وافٍ، فَتَمَكّنَ من التحقق بسهولة من أن أم تيريزا لا تعاني من أية عوارض سرطانية وأنها لم تستشر طبيباً حتى منذ سنة.

أذعنت تيريزا له ولم تذهب لرؤية أمها، ولكنها في اليوم نفسه سقطت أرضاً في الشارع. صارت مشيتها متعثرة تسقط كل يوم تقريباً، ترتطم، تُفلت من يدها الشيء الذي تمسكه. كانت تشعر برغبة لا تقاوم في السقوط، وتعيش في دوار مستديم.

ذلك الذي يسقط يقول: «انتشلني!». وبصبر ودأب كان توماس ينتشلها.

19

«أودّ لو أمارس الحب معك في محترفي وكأننا على حلبة مسرح. سيكون هناك أناس حوالينا ولن يكون لهم الحق في الاقتراب منا، لكنهم لن يستطيعوا مع ذلك إشاحة أبصارهم عنا...».

مع مرور الوقت، أخذت القساوة الأولية لهذه الصورة تبهت، وبدأت تثيرها. مرّات عديدة كانت تهمس بهذا الكلام لتوماس أثناء المضاجعة.

كانت تقول في نفسها إنّ ثمة وسيلة للإفلات من العقوبة التي

تمليها عليها خياناته: أن يصطحبها معه إلى عند عشيقاته! ربما بفضل هذه الحيلة سيرجع جسدها فريداً ولا مثيل له بين الأجساد. وسيصير جسدها وكأنه «أنا» توماس الآخر وبديلاً له ومساعده.

تعانقا. وهمست له: «سأعرّيهن لك وأغسلهن في المغطس وأهيئهن لك..». كانت ترغب في أن يتحولا إلى مخلوقين مزدوجي الجنس، وأن تصير أجساد النساء لعبتهن المشتركة.

20

أن تصير «أناه» الآخر في حياته المزدحمة بالنساء! لم يكن توماس راغباً في أن يفهم ذلك. لكنها لم تكن تستطيع التخلص من هذه الفكرة، فحاولَتْ التقرب من سابينا، وعرضت عليها أن تأخذ لها صوراً.

دَعَتْها سابينا إلى محترفها وتعرفت تيريزا أخيراً على الغرفة الفسيحة التي ينتصب السرير الواسع المربع في وسطها وكأنه منصة.

«كم هو معيب أنك لم تأتي إلى زيارتي بعد!»، قالت سابينا وهي تريها اللوحات المصطفة قرب الحائط. ثم أخرجت لوحة قديمة كانت رسمتها وهي لا تزال طالبة، وكانت تمثل ساحة تبنى فيها أفران لصَهْر الحديد. رسمتها عندما كان معهد الفنون الجميلة يصرّ على التقيّد بالقواعد الأكثر صرامة للمذهب الواقعي (فالفن اللاواقعي كان يُعتبر بمثابة محاولة لتدمير الاشتراكية). وكانت سابينا - بدافع الميل الرياضيّ المتّبع في الحزب - تحاول جاهدة في أن تكون أشدّ صرامة من أساتذتها. كانت طريقتها في الرسم حينذاك تعتمد على الخطوط الدقيقة جداً، مما يجعل لوحاتها شبيهة بالصور الفوتوغرافية بالألوان.

«هذه اللوحة بالذات، ألحقْتُ الضرر بها حين سال طلاء أحمر

فوقها. في البداية غضبت ولكن هذه اللطخة أخذت تعجبني لأنه يخيِّل للناظر أنها صدْع.. كأن ساحة البناء لم تعد ساحة بناء واقعية إنما ديكوراً عتيقاً متصدعاً يعطي عن بُعد وَهم الحقيقة. ثم بدأت ألهو بهذا الصدع وأوسِّعه وأتخيل ما يمكن أن يُرى من خلاله. وبهذه الطريقة رسمت لوحاتي الأولى التي سمّيتها «ديكورات». من البديهي أنه لم يكن يُفترض بأحد أن يراها، وإلا لطُردت من المعهد. نرى في المقدمة، ضمن هذه اللوحات، عالماً واقعياً تماماً، أما في الخلف، كما على قماشة خلفية ممزَّقة لديكور مسرحي، فنرى شيئاً ما مختلفاً، شيئاً فيه غموض وتجريد».

توقفت عن الكلام ثم أضافت: «في المقدمة الكذب المحسوس وفي الخلف الحقيقة التي لا يُدرك كنهها».

كانت تيريزا تصغي إليها بانتباه غريب يشبه ذلك الانتباه الذي نادراً ما يتسنى لأستاذ أن يصادفه على وجه أحد طلاّبه. واستنتجت أنّ جميع لوحات سابينا، لوحاتها السابقة ولوحاتها الحالية، تتحدث في الواقع عن الشيء نفسه باستمرار. فكلُّها تعبّر عن التلاقي المتزامن بين موضوعين أو بين عالمين، وكأنها صور طالعة من عرض مزدوج. في المقدمة منظر ما، وفي الخلف يتراءى بشفافية، مصباح سرير أو يَد تمزّق روعة طبيعة ميتة مؤلفة من تفاح وجوز وشجرة ميلاد مضاءة.

شعرت فجأة بالإعجاب حيال سابينا. وكما أنّ الفنانة كانت متودّدة جداً، أخذ هذا الإعجاب، الذي لم يكن مشوباً بالخشية أو الحذر، يتحول إلى استلطاف.

لوهلة نسيت أنها أتت لتأخذ صوراً لسابينا، فاقتضى أن تذكّرها سابينا بذلك. أشاحت بنظرها عن اللوحات فرأت السرير منتصباً كمنصة وسط الغرفة.

21

كانت هناك قرب السرير طاولة وعلى هذه الطاولة قاعدة على شكل رأس، تشبه تلك التي يستعين بها المزيّنون لعرض الشعور المستعارة. قاعدة سابينا لا تحمل باروكة بل قبعة. قالت سابينا وهي تبتسم: «هذه القبعة ورثتها عن جدي».

لم ترَ تيريزا مثل هذه القبعات السود والمستديرة الصلبة من قبل، إلاّ في السينما. كان شارلي شابلن يرتدي دائماً واحدة تشبهها. ابتسمت بدورها وأمسكت القبعة، ثم تفحّصتها طويلاً وقالت: «هل ترغبين في أن أصوّرك وأنت ترتدينها؟»

كان جواب سابينا ضحكة صاخبة. ألقت تيريزا القبّعة جانباً ثم تناولت آلة التصوير وشرعت تلتقط الصور.

بعد وقت، قالت: «ماذا لو صوّرتك عارية؟».

- «عارية؟» قالت سابينا مندهشة.

- «نعم». قالت تيريزا مرددة اقتراحها بشجاعة.

- «يجدر بنا إذاً أن نشرب والحالة هذه»، قالت سابينا، ثم ذهبت لتفتح قنينة نبيذ.

كانت تيريزا تشعر بشيء من الخَدَر. كانت صامتة فيما سابينا تجول الغرفة وهي تمسك الكأس بيدها وتتحدث عن جدها الذي كان مختاراً لمدينة صغيرة في الريف. لم تكن سابينا تعرفه. كل ما تبقّى من ذكراه هذه القبعة وهذه الصورة حيث نرى وجهاء واقفين على منصة. وأحد هؤلاء الوجهاء كان جد سابينا. لا أحد يعرف بالضبط ماذا كانوا يفعلون هناك. فربّما كانوا يشاركون في احتفال أو يدشنون نصباً تذكارياً لوجيه ما كان يلبس هو أيضاً قبعة في مناسبات احتفالية.

تكلمت سابينا بإسهاب عن القبعة وعن جدها. ثم، بعد أن أفرغت

كأسها الثالثة، قالت: «انتظريني دقيقة» واختفت في غرفة الحمام.

ثم رجعت وهي ترتدي مئزراً. أمسكت تيريزا آلة التصوير وألصقتها على عينها. فخلعت سابينا المئزر.

22

كانت آلة التصوير تقوم مقام عين آلية لتيريزا تراقب من خلالها عشيقة توماس، تقوم أيضاً مقام حجاب تستر به وجهها.

استغرقت سابينا لحظات طويلة قبل أن تقرّر خلع مئزرها، إذ كان الموقف أصعب مما تَصَوَّرَتْ. ثم، بعد مرور بضع دقائق، اقتربت من تيريزا وقالت: «الآن جاء دورك لأصورك أنت. اخلعي ثيابك».

كانت هذه الكلمات «اخلعي ثيابك» والتي سمعتها مراراً من فم توماس، محفورة في ذاكرتها. والآن ها هي عشيقة توماس توجّه هذا الأمر للزوجة. وهكذا فإنّ المرأتين تربط بينهما الجملة السحرية نفسها. . كانت تلك طريقة توماس في أن يجعل حالة جنسية تولد على حين غفلة من حديث تافه: ليس عن طريق المداعبات أو الملامسات أو الإطراء أو الرجاء، بل من خلال أمر ينطق به بغتة وارتجالاً وبصوت خافت لكن بلهجة حازمة ومستبدة وعن بُعد، ولم يكن عندها ليَمُسّ قط المرأة التي يتوجه إليها. وحتى لتيريزا، كان يقول مراراً وبالنبرة نفسها بالضبط: «اخلعي ثيابك!». وعلى الرغم من أنه كان يسرّ ذلك بنبرة رقيقة هامسة، فإنّ هذه الكلمات كانت أمراً، وكانت تشعر دائماً أنها مهتاجة لمجرد الإذعان لها. بيد أنها كانت تسمع لتوّها هذه الكلمات نفسها، كانت رغبتها في الخضوع تكبر على قدر ما كانت تشعر أنّ إذعانها هذا لشخص غريب إنما هو جنون مطبق. . وهذا الجنون يزداد حلاوة نظراً إلى أنّ الأمر صادر عن امرأة، وليس عن رجل.

انتشلت سابينا آلة التصوير من يدي تيريزا فخلعت تيريزا ثيابها. كانت تقف عارية وعزلاء. عزلاء تماماً لأنها جُردّت من الآلة التي استعملتها لتحجب وجهها، والتي كانت تشهرها نحو سابينا وكأنها سلاح. الآن كانت تحت رحمة عشيقة توماس، وكان هذا الإذعان الجميل يُسكرها. ليت هذه اللحظات التي تقف فيها عارية أمام سابينا لا تنتهي أبداً!.

في اعتقادي أنّ سابينا أيضاً شعرت بسحر الموقف الغريب، حين رأت أمامها زوجة عشيقها منقادة وخجلة بطريقة عجيبة. ضغطت على زرّ التصوير مرتين أو ثلاثاً. ثم، وقد ارتعبت من هذا السحر، ضحكت بأعلى صوتها لتبدّد هذا السحر في أقصر مهلة.

وضحكت تيريزا أيضاً. ثم ارتدتا ثيابهما من جديد.

23

ارتُكبت جميع الجرائم السابقة في الإمبراطورية الروسية في حمى ظلمة كتوم. فَنَفْيُ نصف مليون من سكان «لتوانيا» وقتل مئات الآلاف من البولونيين وتصفية التتر في «كريميه»، كل هذه الجرائم بقيت في الذاكرة من دون صور تقيم الدليل على وقوعها، فبقيت إذاً كشيء متعذر إثباته وسيتمّ إظهارها عاجلاً أم آجلاً وكأنها محض اختلاق.

أما اجتياح تشيكوسلوفاكيا في سنة 1968، فهو بخلاف ذلك، جرى تصويره ونقله إلى السينما، وهو موجود في دوائر الوثائق في العالم أجمع.

استغلّ المصورون التشيكيون الفرصة التي أعطيت لهم وقاموا بالعمل الوحيد الذي كان بإمكانهم القيام به: الاحتفاظ بصورة الاغتصاب للمستقبل البعيد. أمضت تيريزا الأيام السبعة تلك في شوارع براغ وهي تلتقط صوراً لجنودٍ وضباط من الروس في أوضاع مشبوهة

مختلفة. ولم يكن الروس مستعدين لمثل هذا الأمر. فالتعليمات التي كانوا تلقّوها واضحة وهي تتعلّق بالطريقة التي عليهم أن يتبعوها فيما لو أُطلق عليهم الرصاص أو قُذفوا بالحجارة. ولكن لم يعلّمهم أحد من قبل كيفية التصرف حيال الكاميرا.

قامت تيريزا بالتقاط مئات الأفلام من الصور. وزّعت نصفها تقريباً على صحافيين أجانب في شكل بكرات للتظهير (كانت الحدود لا تزال مفتوحة والصحافيون يتوافدون من الخارج، لذهاب وإيابٍ على الأقل، وكانوا يأخذون بامتنانٍ أدنى الوثائق. تُنشر العديد من صورها في مختلف المجلات الأجنبية، وهي عبارة عن صور دبابات، وقبضات متوعدة، ومبانٍ مدمرة، وموتى مغطين بعلمٍ دام مثلث الألوان، وشبان منطلقين بأقصى سرعتهم ملوّحين للدبابات بالأعلام التشيكية المرفوعة في نهاية عِصِيّ طويلة، وفتيات في مطلع صباهن مرتديات تنانير قصيرة جداً وهن يقبلن المارة المجهولين أمام أعين الجنود الروس التعساء والمتعطشين للجنس. فالاجتياح الروسي، تكرر، لم يكن مأساة فحسب، إنما كان أيضاً عيداً للحقد الذي لن يتسنى لأحدٍ أبداً أن يفهم غرابة مرَحَه وهناءته.

24

أخذت معها إلى سويسرا خمسين صورة وظهّرتها بنفسها بعناية وفن فائقين. ثم ذهبت تعرضها على مجلة واسعة الانتشار. استقبلها رئيس التحرير بالترحاب (كان التشيكيون يحملون كلّهم فوق رؤوسهم هالة الشقاء، وكان ذلك يؤثر في قلوب السويسريين الطيبين). ثم دعاها للجلوس على كنبة، تفحّص الصور وأبدى إعجابه بها وقال أن لا حظّ لها في أن تُنشر («على الرغم من أنها جميلة») فالحدث قد أضحى بعيداً جداً الآن.

اعترضت تيريزا: «ولكن في براغ، لم ينتهِ شيء بعد»، حاولت أن توضح بلغة ألمانية رديئة أنّ هناك في بلدها المحتل كانت تتشكّل، في هذا الوقت بالذات وبالرغم من كل شيء، مجالس عمّالية داخل المصانع. وأنَّ الطلاب لا يزالون يُضربون احتجاجاً على الاحتلال، وأنّ البلد برمّته يتابع حياته كما في السابق. وهذا بالضبط ما هو غير معقول! ولم يكن أحد يهتم!.

أحسّ رئيس التحرير بالارتياح حين دخلت امرأة نشيطة إلى الغرفة فقطعت الحديث وهي تعطيه ملفاً: «أحمل لك ريبورتاجاً عن شاطئٍ للعراة».

خشي رئيس التحرير اللبق من أن تجد هذه التشيكية التي كانت تصوّر الدبابات، صورة لأناس عراة تماماً على شاطئ، شيئاً مستهجناً. فأزاح الملف بعيداً حتى حافة الطاولة وسارع يقول إلى القادمة الجديدة: «أعرّفك إلى زميلة من براغ. أحضرت لي صوراً رائعة».

صافحت المرأة تيريزا وأخذت الصور.

«خلال هذا الوقت، أنظري إلى صوري».

تناولت تيريزا الملف وأخرجت منه الصور.

قال رئيس التحرير لتيريزا بلهجة يشوبها الذنب: «إنها متناقضة تماماً مع صورك، أنت».

أجابت تيريزا: «بل على العكس! مثلها تماماً».

لم يفهم أحد ما تعنيه هذه الجملة. وأنا أيضاً وجدْتُ صعوبة في أن أفسر ما كانت تريد تيريزا أن تقوله عندما قارنت شاطئاً للعراة بالاجتياح الروسي. أخذت تقلّب الصور وتوقفت طويلاً عند صورة فيها عائلة مؤلفة من أربعة أشخاص: الأم عارية تماماً منحنية فوق أولادها وثدياها الضخمان يتدليان مثل ضروع عنزة أو بقرة. وفي الخلف الأب

منحنٍ أيضاً إلى الأمام وخصيتاه شبيهتان بضرعيْن منمنمين.

- «ألا تعجبكِ الصور؟» سأل رئيس التحرير.

- «إنها مصوَّرة بشكل جيد».

- «أعتقد أنّ الفكرة تصدمها»، قالت المصوِّرة. «ما إن نراكِ حتى نخمّن مسبقاً أنك لم تذهبي إلى شاطئ للعُراة».

- «بالطبع لا»، قالت تيريزا.

وابتسم رئيس التحرير: «نعرف في الحال من أي بلد أنت. غريب كم هي متزمتة البلدان الشيوعية!».

أضافت المصوّرة بتحبّب أمومي: «أجساد عارية. ولكن هذا أمر طبيعي جداً! وكل ما هو طبيعي جميل!».

تذكرت تيريزا أمها وهي تتجول في الشقة عارية. كانت تسمع الآن الضحكة التي واكبتها حين هرعت لتنزل الستائر خائفة من أن يرى أحد أمها وهي عارية تماماً.

25

دعت المصوّرة تيريزا لشرب فنجان قهوة في الحانة.

- صورك مثيرة جداً للاهتمام. لاحظت أنك تصورين الجسد الأنثوي بإحساس خارق. تعرفين في ماذا أفكر؟ بهؤلاء الفتيات اللواتي صوّرتهن في أوضاع مثيرة!.

- العشاق الذين يتبادلون القبل أمام الدبابات الروسية؟

- أجل. بإمكانك أن تصبحي مصوِّرة أزياء مرموقة. يفترض بك، بالطبع أن تتعاوني مع عارضة، ومن الأفضل أن تكون مبتدئة مثلك. من ثمَّ تقومين بالتقاط بعض الصور وتعرضينها على أحد المكاتب. ومن البديهي أنه يلزمك بعض الوقت لتلمعي. خلال ذلك يمكنني أن

أساعدك. سأعرّفك إلى صحافي مسؤول عن زاوية «حديقتك». ربما قد يكون في حاجة إلى صور لصبّيريات وورود، وأشياء من هذا القبيل.

- «شكراً جزيلاً». قالت تيريزا بصدق وقد أحسّت أنّ المرأة الجالسة قبالتها مفعمة بالنوايا الطيبة.

ثم فكرت لتوّها: لكن لماذا عليَّ أن أصوّر صبّاراً؟ كانت تنفرها فكرة أن تبدأ من جديد ما قامَت به في براغ آنفاً: أن تناضل من أجل وظيفة وفي سبيل كل صورة منشورة. فهي لم تكن قط في حياتها طموحة بدافع التباهي. كل ما كانت ترغب فيه هو الإفلات من عالم أمها. أجل، اكتشفت ذلك فجأة بوضوح تام: صحيح أنها مارست عملها كمصوِّرة بكثير من الحماس، ولكن كان بإمكانها أن توظّف هذا الحماس نفسه في أي عمل آخر. فمهنة التصوير لم تكن إلاّ وسيلة «للترقي» وتعيش في كنف توماس.

ثم قالت: «أتعرفين، زوجي طبيب وبإمكانه أن يُعيلني. لا أحتاج إلى مهنة التصوير».

أجابت المصوّرة: «لست أفهم كيف تقدرين على التخلي عن مهنة التصوير بعد أن حققت صوراً جميلة كهذه!».

نعم، صور أيام الاجتياح شيء آخر. لم تلتقط تلك الصور من أجل توماس بل كانت التقطتها مدفوعة بالشغف، ليس شغف التصوير بل شغف الحقد. وتلك الحالة لن تتكرر ثانية: على أية حال، هذه الصور التي التقطتها بشغف لم يكن أحد ليقبل بنشرها، لأنها لم تعد معاصرة. وحده الصبّار معاصر باستمرار، والصبّار لا يثير اهتمامها.

قالت: «هذا لطف منك. لكني أفضّل البقاء في المنزل. لست بحاجة إلى العمل». .

قالت المصوّرة: «لكن هل يرضيكِ أن تبقي في المنزل؟».

- «أفضّل ذلك على تصوير الصبّار»، قالت تيريزا.

قالت المصوّرة: «حتى لو قمتِ بتصوير الصبّار، فهذه حياتك أنت. أما إذا كنت تعيشين فقط لزوجك فهذه ليست حياتك».

أحسّت تيريزا فجأة بالانزعاج: «حياتي هي زوجي، لا الصبّار».

أخذت المصوّرة تتكلم بشيء من الانفعال: «هل تريدين بذلك أن تفهميني بأنك سعيدة؟».

قالت تيريزا (أيضاً بانزعاج): «إني سعيدة، بالطبع!».

قالت المصوِّرة: «عندما تتفوه امرأة بهذه الكلمات فهي حتماً. . .»، وفضّلَتْ ألاّ تكمل الجملة.

فأكملتها تيريزا: «تريدين القول: حتماً محدودة جداً».

تمالكت المصوِّرة نفسها ثم قالت: «لا، لم أقصد أن أقول محدودة بل عتيقة».

قالت تيريزا بهيئة حالمة: «معك حق. هذا ما يقوله عني زوجي بالضبط».

26

ولكن توماس كان يمضي أياماً بطولها في العيادة، فيما هي كانت تبقى وحدها في البيت. لحسن الحظ أن هناك كارنينا وبإمكانها أن تصطحبها في نزهات طويلة! كانت تجلس، حين تعود إلى البيت، أمام كتاب لتعليم اللغة الألمانية أو الفرنسية. ولكنها كانت مصابة بالكرب وغير قادرة على التركيز. كانت تفكر مراراً في الخطاب الذي ألقاه دوبتشك عبر الراديو لدى رجوعه من موسكو. لم تكن تتذكر أي كلمة قالها بالتحديد ولكن لهجته المتأتئة كانت تطنّ في أذنيها. كانت تفكّر في الذي حدث له. كان جنود غرباء قد ألقوا القبض عليه في بلد هو

رئيسها، ثم اختطفوه واحتجزوه طوال أربعة أيام في مكان ما في جبال أوكرانيا، وأفهموه هناك أنهم سيقتلونه كما قتلوا قبل اثنتي عشرة سنة نظيره البلغاري إيمري ناجي. بعدها نقلوه إلى موسكو وأمروه بأن يستحم ويحلق لحيته ويرتدي ثيابه ويضع ربطة عنق. ثم عادوا وأعلموه أنّ مصيره لم يعد بين يدي فصيلة الإعدام وأجبروه على أن يعتبر نفسه من جديد رئيساً للبلاد وأجلسوه أمام طاولة قبالة بريجينيف وأرغموه على التفاوض.

رجع مذلولاً وتحدّث إلى شعب مذلول. كان مذلولاً إلى درجة لم يستطع معها الكلام. وتيريزا لن تنسى، ما عاشت، وقفاته الثقيلة في منتصف الجمل. أكان منهوك القوى؟ أم مريضاً؟ هل أعطوه مخدرات؟ أم هل كان يائساً؟ إذا لم يبق شيء من دوبتشك فستبقى تلك الفترات الطويلة الفظيعة من الصمت حين كان يحاول أن يستعيد أنفاسه أمام شعب بأكلمه ملتصق بأجهزة الراديو. ففي فترات الصمت هذه يكمن كل الذعر الذي خيّم على البلاد.

كان ذلك في اليوم السابع للاحتلال. سمعت هذا الخطاب من غرفة التحرير لمجلة أصبحت في تلك الأيام الناطقة باسم المقاومة.. في ذلك الوقت، كان كل الذين في الغرفة يستمعون إلى دوبتشك، يحتقرونه ويحقدون عليه لأنه قَبِل بالتسوية، ويشعرون أنهم مذلولون لإذلاله، وأن ضعفه كان يُهينهم.

الآن وهي تفكر في تلك اللحظات في زوريخ، لم تكن تشعر بأي احتقار لدوبتشك. ثم إنّ كلمة ضعف لم يعد لها وقع الجناية. كلنا ضعفاء في مواجهة قوى أعظم منّا. حتى لو كنا نملك جسداً مفتولاً مثل جسد دوبتشك. أخذ هذا الضعف، الذي كان يبدو لها فيما مضى منفّراً وغير محتمل، هذا الضعف الذي جعلها تغادر البلاد، يُغويها فجأة. كانت قد بدأت تفهم أنها تنتمي إلى الضعفاء، إلى معسكر

الضعفاء، إلى بلد الضعفاء، ويفترض بها أن تكون وفية لهم. لا لشيء إلاّ لمجرد أنهم ضعفاء ولأنهم يلتقطون أنفاسهم في أواسط الجمل.

كان هذا الضعف يغويها كما قد أغواها الدوار من قبل، يغويها لأنها كانت تشعر أنها هي أيضاً ضعيفة. وعادت تتآكلها الغيرة من جديد، ومن جديد أخذت يداها بالارتجاف، تنبّه توماس للأمر وقام بحركته المألوفة: أمسك يديها وأخذ يضغط بأصابعه ليهدئ من ارتجافها. فأفلتت منه.

- «ما بالك؟

- لا شيء.

- ماذا تريدين أن أفعل من أجلك؟

- أريد أن تصير عجوزاً، أن تكون أكبر بعشر سنوات، أكبر بعشرين سنة!».

وكانت تريد أن تقول: أريد أن تصير ضعيفاً، ضعيفاً قدر ما أنا ضعيفة.

27

لم تكن كارنينا قد استحسنت مطلقاً الرحيل إلى سويسرا، فهي كانت تكره التغيير. فالزمن، بالنسبة لكلبة، لا يجري ضمن خط مستقيم، ولا يؤدي مساره تبعاً لحركة متواصلة نحو الأمام، ومتقدمة أكثر فأكثر، ومنتقلة من شيء إلى آخر، بل يرسم حركة دائرية تشبه حركة عقارب الساعة، إذ إنّ عقارب الساعة لا تتقدم بجنون إلى الأمام إنما تدور بشكل دائري على مرّ الأيام على ميناء الساعة ووفقاً للمسار ذاته. كان يكفيهما في براغ أن يشتريا كنبة جديدة أو أن يغيّرا مكان إناء الزهور، حتى تحتج كارنينا على ذلك. فإحساسها بالزمن كان يختل

عندئذ. وهذا ما يحصل للعقارب تماماً فيما لو غيّرنا باستمرار الأرقام الموجودة على ميناء الساعة.

لكن كارنينا مع ذلك نجحت في أن ترد نظام الوقت القديم والطقوس القديمة إلى نصابها في الشقة في زوريخ. كانت كل صباح تلج إلى غرفتها، كما كانت تفعل في براغ، وتفتتح نهارهما بقفزة على السرير، ثم ترافق بعدها تيريزا في أولى جولاتها الشرائية الصباحية، وتفرض، كما كانت تفعل في براغ، نزهتها اليومية.

كانت كارنينا ساعة حياتهما. وكانت تيريزا تفكر في لحظات اليأس أنّ عليها أن تصمد من أجل هذه الكلبة لأنها أضعف منها وأضعف ربما من دوبتشك ومن وطنها المهجور.

كانتا راجعتين من النزهة حين رنَّ الهاتف. رفعت السّمّاعة وسألت من المتكلم.

كان هناك صوت امرأة تتكلم بالألمانية وتسأل عن توماس. كان صوتها لجوجاً، وخُيّل إلى تيريزا أن نبرة احتقار تشوبه. وعندما قالت لها إنّ توماس خرج ولا تعرف متى سيرجع، انفجرت المرأة بالضحك في الطرف الآخر ثم أقفلت السمّاعة دون أن تستأذن.

كانت تيريزا تعرف أنه يجدر بها ألاّ تعلّق أهمية على ذلك. فربّما هذه المرأة ممرضة في المستشفى أو مريضة أو سكرتيرة، لا فرق. ومع ذلك أحسّت أنها مضطربة وغير قادرة على التركيز. فهمت أنها خسرت القوة القليلة الباقية لها عندما كانت في براغ، وأنها باتت عاجزة عن احتمال هذا الحادث الذي هو تافه على كل حال.

من يعش في الغربة يمشِ في فضاء خاوٍ فوق الأرض مجرداً من شبكة الرعاية التي تحيط بها، كل كائن بشري، بلاده الأم حيث توجد عائلته وزملاؤه وأصدقاؤه، وحيث يستطيع أن يتواصل مع الآخرين دون

جهد، باللغة التي يعرفها منذ الصغر. صحيح أنّ تيريزا كانت في براغ تابعة لتوماس، لكن بقلبها فقط. أما هنا فهي تابعة له في كل شيء. إلى ماذا سيؤول حالها فيما لو تركها؟ هل عليها أن تمضي ما تبقّى من حياتها خائفة من أن يتركها؟

كانت تقول في نفسها إن لقاءهما كان مبنياً على الخطأ منذ البداية. فكتاب «آنّا كارنينا» الذي كانت تتأبطه في ذلك اليوم كان هوية مزيفة استخدمتها لتخدع توماس. لقد أوجد كلاهما، بالتناوب، جحيماً للآخر، حتى ولو كانا متحابين. كانا متحابين، صحيح، وذاك هو البرهان على أن الخطأ ليس صادراً عنهما ولا عن تصرفاتهما ولا عن مشاعرهما القابلة للتغيّر، إنما هو نتيجة لتنافر طباعهما، فهو كان قوياً وهي ضعيفة. كانت تشبه دوبتشك الذي يسجّل وقفة تستمر نصف دقيقة، في منتصف الجملة: كانت تشبه بلدها الذي يتأتئ ويلتقط أنفاسه ولا يقدر على الكلام.

ولكن، يجدر بالضعيف أن يتعلم كيف يكون قوياً، ويرحل عندما يصير القوي أضعف من أن يستطيع إيذاء الضعيف.

هذا ما كانت تقوله في نفسها. ثمّ دفنت وجهها في شعر كارنينا قائلة: «يجب ألا تغضبي مني يا كارنينا. إذ سيكون علينا أن نغيّر مكان إقامتنا مرة جديدة».

28

كانت تتجمع في إحدى زوايا المقصورة، حقيبتها موضوعة فوق رأسها، وكارنينا متكوّرة عند قدميها. أخذت تفكّر في طاهي مشرب الجعة حيث كانت تعمل عندما كانت تقيم عند والدتها. لم يكن يفوّت فرصة إلا ويضربها على قفاها، وكان اقترح عليها أكثر من مرة وأمام الجميع بأن تضاجعه. كان أمراً غريباً أن تفكّر فيه هو بالتحديد مع أنه

يمثّل لها كلَّ ما تكرهه. ولكن تتملكها الآن فكرة واحدة مفادها أن تلتقيه وتقول له: «كنت تقول إنك ترغب في مضاجعتي. حسناً! ها أنذا».

كانت تنوي فعل شيء ما يمنعها من الرجوع إلى الوراء. كانت تنوي تدمير ماضي سنواتها السبع الأخيرة دفعة واحدة. فالدوار عاد يراودها مثل رغبة مسكرة، رغبة في السقوط لا تقاوم.

يمكنني القول ربّما إن الإصابة بالدوار تعني أن يكون المرء سكران من ضعفه الخاص. فهو يعي ضعفه لكنه لا يرغب في التصدّي له بل الاسترسال فيه. ينتشي بضعفه الخاص فيرغب في أن يكون أكثر ضعفاً، يرغب في السقوط أمام أعين الآخرين في وسط الشارع، يرغب في أن يقع أرضاً، بل أسفل من الأرض.

كانت تُقنع نفسها بألاّ تبقى في براغ وألاّ تعود للعمل كمصوّرة بل أن ترجع إلى المدينة الصغيرة التي اجتثّها صوت توماس منها.

ولكنها حين رجعت إلى براغ، اقتضى الأمر أن تمكث بعض الوقت هناك من أجل ترتيب أمور عملية. وهكذا كانت تؤجل رحيلها إلى أن ظهر توماس فجأة في الشقة بعد خمسة أيام. كانت كارنينا تقفز إلى وجهه مجنّبة إياهما ضرورة الكلام، لوقت طويل.

ثم اقترب كل واحد من الآخر مثل عاشقين لم يسبق أن تعانقا بعد.

سأل: «هل كل شيء على ما يرام؟

- نعم.

- هل ذهبتِ إلى المجلة؟

- اتصلت بهم.

- ماذا قالوا؟

- لا شيء. كنت أنتظر.

- ماذا؟».

لم تُجب. كانت غير قادرة على أن تقول له إنه هو من كانت تنتظره.

29

فلنعد إلى اللحظة التي سبق لنا أن عرفناها: كان توماس يائساً ومعدته تؤلمه. ولم ينم إلا في ساعة متأخرة.

بعد وقت طويل أفاقت تيريزا (كانت الطائرات الروسية تحلّق في سماء براغ، فيصعب النوم وسط هذه الضجة). وهذا أول ما فكّرت فيه: رجع من أجلها، من أجلها غيَّر مصيره. من الآن فصاعداً لن يعود هو المسؤول عنها بل ستكون هي أيضاً المسؤولة عنه!

ثم شعرت أن هذه المسؤولية فوق طاقتها.

ثم تذكّرت: البارحة، عندما ظهر على باب الشقة، ما هي إلا لحظات قليلة حتى دقَّت ساعة كنيسة في براغ تمام الساعة السادسة. وفي المرة الأولى التي التقيا فيها، أنهت خدمتها في الساعة السادسة. كانت تراه أمامها جالساً على مقعد أصفر عندما سمعت دق الأجراس.

لا، ليس هذا تطيّراً، إنما هو حسُّ الجمال وقد حرّرها فجأة من قلقها وأمدّها برغبة جديدة للعيش. مرّةً أخرى كانت عصافير الصدفة تحط فوق كتفيها. كانت تبكي فرحة فرحاً لا حدّ له بأن تسمعه يتنفَّس إلى جانبها.

القسم الثالث

الكلمات غير المفهومة

1

جنيف مدينة نوافير وبرك. وحتى اليوم، لا نزال نرى في الحدائق العامة، الأكشاك حيث كانت تعزف الجوقات الموسيقية قديماً.. حتى أن الجامعة تختفي بين الأشجار. كان فرانز خارجاً من مبنى الجامعة وقد انتهى لتوّه من إعطاء محاضرته الصباحية. كان رذاذ الماء المتدفق من الدوّارات يتساقط فوق المرجة وكان مزاج فانز رائقاً. فهو سيذهب مباشرة من الجامعة إلى عند صديقته التي تسكن على بُعد بضعة شوارع من هنا.

كان يمرُّ بها غالباً ولكن دائماً بصفته مهتماً لأمرها لا بصفته عاشقاً. على افتراض أنه ضاجعها في المحترف، فالأمر سيغدو حينئذ بمثابة انتقال من امرأة إلى أخرى في اليوم ذاته، أي انتقال من الزوجة إلى العشيقة، ومن العشيقة إلى الزوجة. وبما أن الرجال والنساء ينامون في جنيف على الطريقة الفرنسية في سرير واحد، فإن الأمر يغدو والحالة هذه بمثابة انتقال في ساعات قليلة من سرير امرأة إلى سرير امرأة أخرى. وحسب رأيه، كان هذا مهيناً للعشيقة والزوجة على حدّ سواء، ومهيناً له هو بالذات في الواقع.

كان حبُّه للمرأة التي يهيم بها منذ بضعة أشهر شيئاً ثميناً للغاية، بحيث إنه كان يبذل قصارى جهده في أن يجد لها فسحة مستقلة في حياته، مملكة نقاء لا تُطال. كان يُدعى كثيراً لإلقاء محاضرات في جامعات أجنبية، وكان الآن يقبل الدعوات كلّها متلهفاً. . وبما أنها لم تكن متوفرة بالشكل اللازم فإنه كان يكمّلها بمؤتمرات وندوات وهمية لكي يبرر أسفاره أمام زوجته. أما صديقته التي كان يمكنها أن تتصرف بوقتها كما يحلو لها، فكانت ترافقه في أسفاره. وهكذا عرّفها خلال فترة قصيرة من الزمن على مدن أوروبية ومدينة أميركية.

قال:

- في غضون عشرة أيام يمكننا الذهاب إلى باليرمو، هذا إذا كنت غير معارضة.

- «أفضِّل جنيف». كانت واقفة أمام الحمّالة تتفحص لوحة غير منجزة.

حاول فرانز أن يمازحها: «كيف يستطيع المرء أن يعيش وهو لا يعرف باليرمو؟».

قالت: «أعرف باليرمو».

سألها بلهجة تشوبها الغيرة: «ماذا؟».

- أرسلَتْ لي صديقة بطاقة بريدية من هناك فألصقتها على حائط الحَمّام. ألم تلاحظها؟

ثمّ أضافت: «أصغِ إلى حكاية هذا الشاعر الذي عاش في بداية القرن. كان عجوزاً للغاية وكان سكرتيره يقوم بتنزيهه. وذات يوم قال له: «ارفعْ رأسك يا سيدي وانظرْ، هذه أول طائرة تحلّق فوق المدينة!».

فأجاب السيد سكرتيره دون أن يرفع عينيه: «أستطيع أن أتخيّلها».

حسناً، أرأيت. أنا أيضاً أستطيع أن أتخيّل باليرمو.. ستكون فيها الفنادق نفسها والسيارات نفسها الموجودة في المدن كافة. أما في محترفي، فعلى الأقل اللوحات دائماً مختلفة.

اغتمَّ فرانز. كان اعتاد إلى حدّ بعيد على هذا الرابط بين حياته العاطفية والأسفار التي عزم على القيام بها: «فلنذهب إلى باليرمو»، بلاغ جنسي واضح. والجواب: «أُفضِّل جنيف»، لا يمكنه أن يعني بالنسبة له إلا شيئاً واحداً: لم تعد صديقته راغبة فيه.

كيف يستطيع أن يبرر انعدام الثقة بالنفس هذا في حضرة عشيقته؟ ليس هناك ما يدعوه للشك في نفسه على هذا النحو! وهي، لا هو، التي مهّدت لاكتساب صداقته بعد وقت قليل من لقائهما. فهو رجل وسيم وفي أوج مهنته العلمية، ويهابه زملاؤه حتى بسبب التفوق والعناد اللذين يظهرهما أثناء مجادلاته مع الاختصاصيين. لماذا إذاً كان يعيد على نفسه كل يوم أن صديقته ستتركه؟

لا أملك إلا تفسيراً واحداً: لم يكن الحب بالنسبة له امتداداً لحياته العلنية إنما هو نقيض لها. كان الحب بالنسبة له رغبة في الاستسلام لنيّة الآخر الطيبة ورأفته. فمن يمنح نفسه للآخر بالطريقة التي يهب بها الجندي نفسه، عليه أن يرمي مسبقاً كل أسلحته، وإذ يرى نفسه أعزل لا يمكنه عندئذ الامتناع عن التساؤل متى ستقع الضربة القاضية. يمكنني أن أقول إذاً إن الحب بالنسبة لفرانز هو انتظار مستديم للضربة القاضية.

وفيما هو مستسلم لقلقه، وضعت صديقته ريشتها جانباً وغادرت الغرفة. رجعت بعد قليل وفي يدها زجاجة نبيذ. ثم فتحتها وصبَّت كأسين.

شعر بحمل ثقيل ينزاح عن صدره. فالكلمات: «أُفضِّل جنيف» لم

تكن تعني أنها لم تعد راغبة في مضاجعته ولكن على العكس تماماً. كانت تعني أنها سئمت من أن تقتصر لقاءاتهما الحميمة على إقامات وجيزة في مدن أجنبية.

رفعت كأسها وأفرغتها دفعة واحدة. ورفع فرانز كأسه وشرب بدوره. كان شعوره بالرضى يشتد بالطبع لاستنتاجه بأن رفضها الذهاب إلى باليرمو هو في الواقع دعوة إلى الحب. لكنه من ثمّ شعر بشيء من الأسى: ذلك أن صديقته أخذت القرار بانتهاك قانون النقاء الذي كان ضمّنه لعلاقتهما. فهي لم تكن تدرك الجهود المضنية التي كان يبذلها في سبيل أن يحمي حبهما من التفاهة، ولكي يعزله تماماً عن العش الزوجي.

كان امتناعه عن مضاجعة عشيقته في جنيف قصاصاً فرضه على نفسه ليعاقبها جزاء زواجه من واحدة أخرى. وهو كان يتعامل مع هذا الوضع وكأنه خطيئة أو نقيصة. أما فيما يخص حياته العاطفية مع زوجته، فلا شيء هناك يستحق الذكر عملياً، باستثناء أنهما كانا ينامان معاً في السرير، وكل واحد منهما يوقظ الآخر بشخيره، وأنهما كانا يتنشقان نتانة جسديهما المشتركة. بالطبع كان يفضل النوم وحده ولكن السرير المشترك يبقى رمز الزواج، والرموز كما نعرف لا تُمس.

كان كلّما يندسّ في الفراش قرب زوجته، يفكر في عشيقته ويتخيّلها تندسّ قربه في السرير مكان زوجته. كانت الفكرة في كل مرة تُخجله فيحاول أن يباعد بين السرير الذي ينام فيه مع زوجته، وبين السرير الذي يضاجع فيه عشيقته.

سكبت لنفسها كأساً أخرى من النبيذ. شربت جرعة. ثم، دون أن تقول كلمة وبلا مبالاة غريبة، وكأن فرانز لم يكن موجوداً، نزعت قميصها ببطء. كان تصرّفها كمثل طالب يُجري تمريناً ارتجالياً في فن التمثيل، ويفترض به أن يظهر فيه كما لو كان وحيداً، ولا أحد يراه.

بقيت في التنورة والصدرية، ثم (وكأنها تذكرت فجأة أنّ هناك أحداً في الغرفة) شخصت طويلاً إلى فرانز.

كانت هذه النظرة تزعجه لأنه لم يكن يفهمها. هناك قواعد لعب تنتظم سريعاً فيما بين العشاق دون أن يعوها، ولكنها تؤثر فيهم مثل سلطة القانون، وعليهم ألا يخرقوها. أما تلك النظرة التي شخصت بها إليه فكانت متفلّتة من هذه القواعد. ولم يكن هناك أي شيء مشترك بينها وبين النظرات أو الحركات التي تسبق عادة عناقهما. كانت هذه النظرة لا تعبّر عن تحدٍّ أو إغراء بل يجول فيها سؤال ما. ولكن فرانز لم يكن يعرف إطلاقاً عمّا كانت تسائله هذه النظرة.

خلعت تنورتها، ثم أمسكت بيده ودارت به باتجاه مرآة كبيرة مسندة إلى الحائط، على بُعد خطوات قليلة، ثم، من دون أن تفلت يده، أخذت تنظر في المرآة النظرة الشاخصة المتسائلة ذاتها، تارةً تنظر فيها وتارة أخرى إليه.

إلى جانب المرآة، على الأرض، كانت هناك قبعة قديمة معلقة فوق دكة تحمل رأساً مستعاراً. انحنت فأمسكت القبعة ثم أدخلت رأسها فيها، فتغيرت الصورة للحال في المرآة: كانت هناك صورة لامرأة في ثيابها الداخلية، جميلة، لا تُطال، لامبالية وعلى رأسها قبعة غير لائقة إطلاقاً. . وكانت تمسك بيد رجل يرتدي بذلة رمادية ويضع ربطة عنق.

تعجَّب مرة ثانية من أنه أساء إلى هذا الحدّ فهم ما ترمي إليه عشيقته. لم تتعرَّ من أجل أن تغريه بل لكي تتشيطن معه ولكي تلعب تمثيلية حميمة مرتجلة لهما وحدهما. فابتسم ابتسامة تفهّم وامتثال.

كان يعتقد أنها ستبتسم له هي أيضاً ولكن توقّعه خاب. فهي لم تكن تترك يده بل كانت تجول بنظرها بينه وبين القبعة والمرآة.

تجاوزت مدة التمثيلية المرتجلة الحدود. كان فرانز يجد أن الملهاة (التي كان يقرّ بأنها ساحرة على كل حال) قد طالت أكثر من اللازم. فأمسك القبعة الرجالية بين إصبعيه وانتزعها عن رأس سابينا وهو يبتسم، ثم علّقها فوق القاعدة.. كان الأمر كمن يمحو شاربين رسمهما ولد عفريت على صورة لمريم العذراء.

بقيت جامدة لبضع ثوانٍ تتأمل نفسها في المرآة. ثم غمر فرانز جسدها بقبلات رقيقة. وطلب منها مرة أخرى أن تصحبه إلى باليرمو في رحلة تدوم عشرة أيام. فوعدته هذه المرة دون مواربة بالذهاب، وعلى هذا غادر.

عاد إليه مزاجه الجيّد ثانية. كانت جنيف التي لعنها طوال حياته على أنها مدينة الضجر، تبدو له الآن جميلة وحافلة بالمغامرات. ثم التفت ونظر إلى نافذة المحترف الزجاجية.

كانت هذه آخر أسابيع الربيع وكان الطقس حارّاً. وكانت النوافذ مسدلة ستائرها. بلغ فرانز حديقة ترتفع فوقها في البعيد قبب الكنيسة الأرثوذكسية شبيهةً بكرات ذهبية التقطتها قوى خفيّة قبل تلاطمها وأثبتتها في الفضاء. كان هذا المشهد جميلاً.. نظر فرانز إلى الرصيف ليستقلّ مركباً يقلّه إلى الجانب الآخر من البحيرة، إلى الضفة اليمنى حيث كان يقيم.

2

بقيت سابينا وحيدة. انتصبت من جديد، وهي لا تزال في ثيابها الداخلية، أمام المرآة. اعتمرت القبعة من جديد ونظرت إلى نفسها ملياً. كانت متعجبة من أن تكون اللحظة الضائعة ذاتها تلاحقها بعد كل هذه السنوات.

ها إنّ سنوات قد مرَّت عندما جاء توماس إليها وأسرته هذه القبعة. اعتمرها وأخذ يتأمل نفسه في المرآة الكبيرة التي كانت مستندة آنذاك إلى حائط شقة سابينا الصغيرة في براغ. كان يريد أن يرى كيف ستكون هيئته فيما لو كان مختار مدينة ريفية صغيرة خلال القرن الفائت. ثمّ، وعندما أخذت سابينا تخلع ثيابها على مهل، وضع القبعة على رأسها. كانا واقفين أمام المرآة (كانا يقفان دائماً هكذا عندما كانت تخلع ثيابها) يسترقان النظر إلى صورتهما. كانت في ثيابها الداخلية وكانت تعتمر القبعة. ثم انتبهت فجأة إلى أنّ هذه اللوحة تثير كليهما.

تُرى كيف كان ذلك ممكناً؟ قبل ذلك بقليل كانت القبعة التي تضعها على رأسها وكأنها مجرد مزحة. ماذا! ألا يفصل المضحك عن المثير غير خطوة واحدة؟

نعم. لأول وهلة حين نظرت إلى نفسها في المرآة، وجدت الأمر مضحكاً. ولكن فيما بعد، ضاع الضحك في الإثارة: فالقبعة لم تعد إثارة هزلية بل صارت تعني العنف، العنف الذي يمارَس على سابينا وينال من قيمتها كامرأة. كانت ترى نفسها عارية الساقين في سليب شفاف تظهر من خلاله عانتها. كانت الملابس الداخلية تؤكد على سحر أنوثتها، أما القبعة الرجالية المصنوعة من لباد سميك فتنفي تلك الأنوثة وتنتهكها وتهزأ منها. كان توماس واقفاً إلى جانبها بكامل ثيابه، وهذا يعني أنّ خلاصة ما كانا يشاهدانه ليس النكتة، (إذ كان بإمكانه أن يكون هو أيضاً في ثيابه الداخلية ومعتمراً قبعة رجالية) بل الذلّ. وهي كانت تعرض هذا الذلّ بتحدٍّ وفخرٍ بدل أن ترفضه، وكأنها سمحت لنفسها بأن تُغتصب بطوع إرادتها وأمام الملأ. ثم حين لم تعد تقوى على البقاء في هذا الوضع أوقعت توماس على الأرض وتدحرجت القبعة تحت الطاولة. كان جسداهما يتلويان فوق السجادة أمام المرآة.

فلنرجع مرة أخرى إلى هذه القبعة:

قبل كل شيء، كانت هذه القبعة أثراً تركه جدّ منسي كان مختاراً لمدينة صغيرة في بوهيميا، أثناء القرن الماضي.

وثانياً، كانت تذكاراً من والد سابينا. فبعد أن استأثر أخوها بميراث والديها على إثر جنازة والدها، كابرت سابينا ورفضت بإصرار أن تدافع عن حقوقها، ولكنّها قالت بلهجة ساخرة إنها ستحتفظ بالقبعة الرجالية على أنها الإرث الوحيد الذي بقي لها من والدها.

وثالثاً، كانت من متممات الألاعيب الجنسية مع توماس.

ورابعاً، كانت رمزاً لتميّزها الذي تعمل على تغذيته. لم يكن في استطاعتها، حين هاجرت، أن تحمل الشيء الكثير، وهي، لكي تحمل معها هذا الشيء المزعج والباطل استعماله، وجب عليها إذاً أن تتخلى عن حوائج أخرى أكثر منفعة.

وخامساً، كانت القبعة الرجالية قد صارت في الخارج رابطاً عاطفياً. وهي حين ذهبت للقاء توماس في زوريخ أخذتها معها، ثم اعتمرتها عندما فتحت له باب غرفتها في الفندق. وعندئذ حصل شيء غير متوقع. لم تعد القبعة مضحكة ولا مثيرة بل صارت ذكرى من الماضي. وكان كلاهما منفعلاً فمارسا الحب كما لم يفعلا في أي وقت كان: لم يكن هناك مكان للألاعيب الماجنة، ولا كان لقاؤهما امتداداً لألاعيبهما الجنسية حين كانا يتخيلان كل مرة نزوةً جديدة، إنما كان تكثيفاً للوقت ونشيداً لذكرى ماضيهما المشترك. تكثيفاً عاطفياً لحكاية غير عاطفية توشك أن تتلاشى في البعيد.

كانت القبعة تصير إذاً لازمة موسيقية في المقطوعة التي هي حياة سابينا. كانت هذه اللازمة تتكرر دائماً وأبداً آخذة في كل مرة معنى جديداً. وكانت هذه المعاني تمرّ كلها عبر القبعة الرجالية كما يمرّ الماء في مجرى النهر. وأستطيع القول إنّ مجرى النهر هذا مشابه لمجرى

نهر هيراقليطس: «لا يستحم المرء مرتين في النهر نفسه». كانت سابينا ترى أنّ القبعة الرجالية مجرى نهر يسيل فيه كل مرة نهر آخر، نهر «دلالي آخر»، حيث يثير الشيء نفسه كل مرة معنى جديداً، ولكن هذا المعنى الجديد كان يرجّع (مثل صدىً أو موكب أصداء) كل المعاني السابقة. . فتطنُّ حيتها كل تجربة جديدة معيوشة بإيقاع أكثر غنى. . وفي زوريخ، في غرفة الفندق، كانا منفعلَيْن لدى رؤية القبعة، ومارسا الحب وقتذاك وهما على حافة البكاء. ذلك أنّ هذا الشيء الأسود لم يكن فقط ذكرى لألاعيبهما الجنسية بل كان أيضاً أثراً تركه والد سابينا وجدّها اللذان عاشا في أزمنة لا سيارات فيها ولا طائرات.

ربّما في المستطاع الآن أن نفهم بشكل أفضل الهوّة التي تفصل بين سابينا وفرانز: صحيح أنه كان يصغي إليها بانتباه كلي وهي تحدّثه عن حياتها، وكانت هي أيضاً تصغي إليه بالانتباه نفسه. وصحيح أنهما كانا يفهمان المعنى المنطقي للكلمات التي يتفوّهان بها، ولكن من دون أن يسمعا خرير النهر الدلالي المتدفق عبر هذه الكلمات.

لذلك فإنّ فرانز أحسّ، حين وضعت سابينا القبعة فوق رأسها، بأنه منزعج كأن أحداً يتحدث إليه بلغة يجهلها. لم يكن يجد هذا التصرف ماجناً أو عاطفياً، بل كان فقط تصرفاً غير مفهوم، وغياب معناه أمر يربكه.

وحيث ان الناس لا يزالون في سن الشباب، وحيث إن مقطوعة حياتهم الموسيقية لا تزال في أنغامها الأولى، فإنّ بإمكانهم والحالة هذه تأليفها سويّة وتبادل بعض اللوازم فيما بينهم (مثل توماس وسابينا اللذين تبادلا لازمة القبعة الرجالية). ولكن حين يلتقون في سن أكثر نُضجاً، فإنّ مقطوعاتهم الموسيقية تكون قد قاربت على النهاية، وكل كلمة وكلُّ شيء في كل مقطوعة تعني شيئاً مختلفاً في المقطوعة الأخرى.

لو استعدت كل الممرات اللغوية بين سابينا وفرانز، فإنّ لائحة الكلمات غير المفهومة ستؤلف قاموساً ضخماً. فلنكتفِ إذاً بمعجم صغير.

3

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (الجزء الأول)

امرأة:

أن تكون المرأة امرأة فهذا، في نظر سابينا، وضع لم تختره بنفسها. وما هو ليس ناتجاً عن اختيار لا يمكن اعتباره لا استحقاقاً ولا فشلاً. وسابينا تفكر أنه يفترض بنا، حيال وضع فرض علينا، أن نتصرف بطريقة مناسبة. كما ويبدو لها أيضاً أن احتجاجها على كونها امرأة أو الاعتزاز بذلك أمران سخيفان بالقدر ذاته.

قال فرانز في أحد لقاءاتهما الأولى وبنبرة مميزة: «سابينا، أنتِ امرأة». لم تكن فاهمة لماذا أعلن لها على هذا النحو الاحتفالي وكأن كريستوف كولومبوس يعلن لتوّه عن اكتشاف أحد سواحل أميركا. ولكنها فهمت فيما بعد أنّ كلمة «امرأة» التي تلفظها بفصاحة مميّزة لم تكن تعبّر بالنسبة له عن صفة تميز أحد جنسي النوع البشري، وإنما كانت تمثل «قيمة». إذ ليست كل النساء جديرات بأن يُدعيْن «نساء».

لكن إذا كانت سابينا هي «المرأة» بالنسبة لفرانز فما هي حال ماري - كلود زوجته الفعلية؟ لعشرين سنة خَلَتْ (كانا يعرفان بعضهما حينذاك منذ أشهر قليلة) هَدَّدَتْه بأنها ستنتحر إن هو تركها، فوجد فرانز نفسه مفتوناً بهذا التهديد. لم تكن ماري - كلود من النوع الذي يعجبه، ولكن حبها كان يبدو له سامياً. كان يجد نفسه غير جدير بحب كبير كهذا فاعتبر أنّ من واجبه أن ينحني أمامه بحيث يدنو كثيراً من الأرض.

وهكذا انحنى ساجداً حتى الأرض فتزوجها. ومع أنها لم تعد تظهر إطلاقاً حدة الشعور التي أظهرتها حين هددته بالانتحار، فإنّ هذا الواجب بقي حياً في ضميره ومفاده: ألا يؤذي ماري - كلود مهما كان وأن يحترم المرأة فيها.

غريب أمر هذه الجملة.. لم يكن يقول في نفسه إنّ عليه احترام ماري كلود بل: احترام المرأة في ماري - كلود.

ولكن، إذا كانت ماري - كلود هي نفسها امرأة، فمن هي إذاً تلك المرأة الأخرى التي تختبئ فيها، والتي يجب عليه أن يحترمها؟ أو تكون هذه الفكرة الأفلاطونية عن المرأة.

لا، بل كانت هذه المرأة أمه. لم يكن ليخطر بباله قط أن يقول مثلاً إنه يحترم المرأة في أمه. فهو كان يعبد أمه بحد ذاتها وليس بسبب امرأة في داخلها. كانت الفكرة الأفلاطونية عن المرأة وأمه شيئاً واحداً متلازماً.

كان في الثانية عشرة من عمره تقريباً عندما تخلّى والده عن أمه فوجدت نفسها بغتة وحدها. كان فرانز يشك في أنّ أمراً خطيراً قد حدث، ولكن أمه كانت تخفي المأساة خلف أحاديث حيادية ومتزنة خشية أن تصدمه. في ذلك اليوم بالذات، لاحظ فرانز، عندما غادرا المنزل للقيام بنزهة في المدينة، أنّ أمه كانت ترتدي فردتي حذاء مختلفتين. اضطرب للأمر ورغب في أن يلفت نظرها لذلك ولكنه خشي أن يجرح شعورها في الوقت نفسه. جال مع أمه ساعتين في الشوارع وهو غير قادر على إشاحة بصره عن قدميها. وإذ ذاك بدأ يفهم ما معنى العذاب.

الوفاء والخيانة:

كان قد أحبّها منذ الطفولة وحتى اللحظة التي رافقها فيها إلى

القبر. وأحبّها أيضاً في ذكرياته. من هنا كان يستقي فكرة أنّ الوفاء هو فضيلة الفضائل. فالوفاء يجعل حياتنا متماسكة، ولولاه لكانت تبعثرت إلى آلاف الانطباعات العابرة.

كان فرانز يحدّث سابينا مراراً عن والدته وربَّما عن قصد، دون أن يعي ذلك: كان يقصد ربَّما أن تغوي قدرته على الوفاء سابينا فيكون هذا وسيلة ليجعلها تتعلق به.

ولكن، ما كان يغوي سابينا ليس الوفاء بل الخيانة. كانت كلمة «وفاء» تذكّرها بأبيها الذي كان رجلاً ريفياً متزمتاً، يرسم أيام الآحاد، من أجل متعته فقط، الشمس الغاربة فوق الغابات وباقات من الورود في إناء. بفضله، ابتدأت بالرسم وهي لم تزل صغيرة جداً. . عندما بلغت سن الرابعة عشرة وقعت في حب صبي من مثل سنها. فذُعر أبوها ومنعها من الخروج بمفردها لسنة كاملة. وفي ذات يوم أَرَتْه صوراً لبيكاسو فضحك منها بصوتٍ عالٍ. ولكن، إذا كانت لا تملك الحق في أن تحب صبياً في مثل سنها، فلها الحق على الأقل في أن تحب التكعيبية. ذهبت إلى براغ بعد حصولها على شهادة البكالوريا وهي مرتاحة لشعورها بأنّ بإمكانها أخيراً أن تخون منزلها.

الخيانة. منذ طفولتنا، والوالد ومعلم المدرسة يكرران على مسامعنا بأنها أفظع شيء في الوجود. ولكن ما معنى أن نخون؟ أن نخون هو أن نخرج عن الصف لننطلق في المجهول. وسابينا لم تعرف ما هو أجمل من الانطلاق في المجهول.

التحقت بمعهد الفنون الجميلة ولكن لم يكن مسموحاً لها بأن ترسم على طريقة بيكاسو. كان يُفْرَض عليها آنذاك أن تطبّق بجدّ ما كان يسمّى بالواقعية الاشتراكية، وكان الطلاّب في معهد الفنون الجميلة يقومون بإجراء رسوم شخصية لرؤساء الدول الشيوعية. كانت رغبتها إذاً في أن تخون والدها قد بقيت غير مرتوية والسبب أنّ الشيوعية كانت

مجرد أب آخر، صارم ومحدود مثل أبيها، ويمنع الحب (كان زمن التزمّت هو السائد آنذاك) وبيكاسو. تزوجت في براغ ممثلاً قليل الذكاء، ولكنَّها تزوجت منه فقط لأن صيته كان ذائعاً كواحد غريب الأطوار، ولأن أبويها (أباها والشيوعية) كانا يعتبرانه غير مقبول.

ثم توفيت أمها. في اليوم التالي، بعد رجوعها إلى براغ وصلتها برقية: انتحر أبوها حزناً على أمها.

أخذها الندم: أي خطأ فادح في أن يرسم والدها وروداً في إناء وفي ألا يحب بيكاسو؟ وهل كان خوفه من أن تعود ابنته حبلى وهي في الرابعة عشرة من عمرها، يُعتبر أمراً ذميماً؟ وألا يتمكن من العيش دون زوجته هل هذا أمر يدعو إلى المهزلة؟

ومن جديد، رجعت فريسة للرغبة في الخيانة: أن تخون خيانتها بالذات. فأعلمت زوجها (الذي لم تعد ترى فيه ذلك الرجل غريب الأطوار بل السكير المزعج) أنها ستتركه.

لكن إذا كنا نخون «ب» الذي خنَّا من أجله «أ» فهذا لا يعني أننا سنتصالح مع «أ». فحياة الرسامة المطلّقة لا تشبه حياة والديها اللذين خانتهما. إنّ الخيانة الأولى لا يمكن إصلاحها وهي تثير عن طريق النتائج المتوالدة خيانات أخرى حيث تبعدنا كل واحدة منها أكثر فأكثر عن نقطة الخيانة الأولى.

الموسيقى:

الموسيقى بالنسبة لفرانز هي الفن الأكثر قرباً من الجمال الديونيسي الذي يقدّس النشوة. يمكن لرواية أو للوحة أن تدوّخنا ولكن بصعوبة. أما مع السمفونية التاسعة لبيتهوفن، أو مع السوناتة المؤلفة لآلَتَي بيانو وآلات الإيقاع لبارتوك، أو مع أغنية للبيتلز، فإنّ النشوة تعترينا. من جهة أخرى فإنّ فرانز لا يفرّق بين الموسيقى العظيمة والموسيقى

الخفيفة. فهذا التفريق يبدو له خبيثاً وبالياً، فهو يحب موسيقى الروك وموزار على حد سواء.

الموسيقى بالنسبة له محرِّرة: إذ تحرره من الوحدة والانعزال ومن غبار المكتبات. وتفتح في داخل جسده أبواباً لتخرج النفس وتتآخى مع الآخرين. كما لو أنه يحب الرقص إلى جانب ذلك ويشعر بالأسى لأن سابينا لا تشاطره هذا الولع.

ها إنهما يتناولان العشاء سوية في المطعم، ومكبرات الصوت ترافق مأدبتهما بموسيقى صاخبة موقّعة.

- قالت سابينا: أية حلقة مفرغة. الناس يصابون بالصمم لأنهم يسمعون الموسيقى بأصوات عالية وبازدياد. وبما أنهم مصابون بالصمم فإنه لا يتبقى لهم والحالة هذه إلاّ أن يرفعوا من قوة الصوت أكثر فأكثر.

- سألها فرانز: ألا تحبين الموسيقى؟

- لا، قالت سابينا. ثم أضافت: «ربما لو عشت في زمن آخر...». وفكّرت في عصر جان سيباستيان باخ حين كانت الموسيقى أشبه بوردة متفتحة وسط سهل شاسع يكسوه ثلج الصمت.

فالضجيج يلاحقها تحت قناع الموسيقى مذ كانت صغيرة. وحين كانت طالبة في معهد الفنون الجميلة، كان عليها أن تمضي عطلات كاملة في «ورشة الشبيبة» كما كانت تُسمى آنذاك. كان الشباب يقيمون في مخيمات جماعية ويعملون على بناء الأفران لصهر الحديد. كانت مكبرات الصوت تقذف موسيقى زاعقة من الساعة الخامسة صباحاً إلى الساعة التاسعة مساءً. وكانت عندئذ تجتاحها رغبة في البكاء. ولكن الموسيقى كانت فرحة ولا يمكن الإفلات منها في أي مكان، لا في المرحاضِ ولا تحت الغطاء في السرير. كانت الموسيقى مثل قطيع من الكلاب أُفْلِتَ عليها.

كانت تعتقد وقتذاك أنّ العالم الشيوعي هو العالم الوحيد الذي تسوده بربرية الموسيقى هذه. ولكنها الآن، في الخارج، ها إنها تستنتج أن تحوّل الموسيقى إلى ضجيج بات سيرورة كوكبية تُدخل الإنسانية في الطور التاريخي للقبح الشامل. فالطابع الشامل للقبح يعلن عن نفسه عبر القبح السمعي الموجود في كل مكان: السيارات والدراجات والقيثارات الكهربائية والمطارق الهوائية ومكبرات الصوت وصفّارات الإنذار. ولن يتأخر القبح المنظور عن الظهور في كل مكان ليلحق بالقبح السمعي.

بعد أن تعشيا صعدا إلى غرفتهما ومارسا الحب. ثم بدأت الأفكار تختلط في رأس فرانز وهو على عتبة النعاس. كان يتذكر الموسيقى الصاخبة في المطعم ويفكر: «للضجة حسناتها. فَمعها لا يمكننا أن نميّز الكلمات» فهو مذ كان صغيراً لا يني يتكلم ويكتب ويعطي دروساً ويختلق جملاً ويبحث عن عبارات ويصححها، إلى درجة لا يعرف أيّاً من هذه الكلمات يعود صحيحاً في النهاية، فيتلاشى معناها ويفقد من محتواه، ولا يبقى منها إلاّ فضلات وذراوات، إلاّ غباراً ورملاً يعوم داخل دماغه ويجعله يشعر بالصداع الذي كان مرضاً ملازماً يؤرقّه. فشعر عندها فجأة برغبة غامضة لا تقاوم في سماع موسيقى هائلة، في سماع ضجيج مطلق وصخب جميل وفرح يكتنف كل شيء ويُغرق ويخنق كل شيء، فيختفي إلى الأبد الألم والغرور وتفاهة الكلمات. فالموسيقى هي نفي للجمل، هي ضد - كلمة! كان راغباً في أن يبقى مع سابينا في عناق طويل، في أن يصمت وألا يتلفظ بأية جملة تاركاً المتعة تختلط بالجلبة الفاجرة للموسيقى. وعلى هذا الصخب الوهمي السعيد استغرق في النوم.

الضوء والظلمة:

الحياة بالنسبة لسابينا تعني الرؤية. والرؤية يحدّها حدّان: الضوء

الباهر الذي يعمي البصر والظلمة التامة. ربّما من هنا مصدر كرهها لكل تطرف. فالحدود القصوى ترسم الفاصل الذي تختفي من بعده الحياة. ثمّ إن الشغف بالتطرف سواء في الفن أو في السياسة رغبة مقنّعة في الموت.

أما كلمة «ضوء» فهي لا توحي لفرانز بمنظر يضيئه النهار بعذوبة، وإنما توحي بمصدر الطاقة بحد ذاته: أي الشمس أو المصباح أو الكشّاف. وتذكّره أيضاً بالاستعارات المألوفة: شمس الحقيقة، نور العقل الساطع، إلخ...

وتجذبه الظلمة كما يجذبه الضوء على حد سواء. في أيامنا هذه يعتبر إطفاء الضوء أثناء المضاجعة تصرفاً مضحكاً. هو يعرف ذلك ويترك ضوءاً صغيراً مضاءً فوق سريره. ولكنه لحظة يلجُ سابينا يغمض عينيه مع ذلك. والظلمة التي يراها حينئذ ظلمة كليّة من دون صور أو رؤى، ظلمة لامتناهية ولا حدود لها. هذه الظلمة هي اللاّنهاية التي يحملها كلٌّ منا في أعماقه. (نعم، من يفتش عن اللاّنهاية، ما عليه إلاّ أن يغمض عينيه).

ولحظةَ يشعر فرانز بالنشوة تنتشر في حنايا جسده، يتلوّى ويذوب في اللاّنهاية، في ظلمة كيانه ليصير هو نفسه اللاّنهاية. لكن كلّما كبر الإنسان داخل ظلمته الداخلية، تقلصت هيئته الخارجية. إنّ رجلاً مغمض العينين ليس إلاّ بقايا ذاته. وهذا أمر مزعج للرؤية. وسابينا لا تريد أن تنظر إليه حينئذ بل تغمض عينيها بدورها. ولكنها لا تشعر أنّ هذه الظلمة بالذات هي اللاّنهاية، بل هي فقط عدم التوافق مع ما ترى، إنها إنكار لما هو مرئي ورفض للرؤية.

4

أقنعت سابينا نفسها أخيراً بالذهاب لحضور اجتماع يقيمه أبناء

بلادها. مرةً أخرى، كان الجدال يدور حول معرفة هل كان يفترض بهم أن يحملوا السلاح لمقاتلة الروس أم لا. من البديهي أنّ الجميع كان يطالب هنا، في حمى الهجرة، بوجوب القتال. ولكن سابينا اعترضت قائلة: «عودوا إذاً! وقاتلوا!».

ما كان يجدر بها أن تقول هذا. ها إنّ رجلاً شعره رمادي قد جعّده عند المزيّن يشهر سبّابته الطويلة في وجهها: «لا تتكلمي هكذا. جميعكم مسؤولون عمّا حصل. وأنتِ أيضاً. ماذا كنت تفعلين في بلادك ضد النظام الشيوعي؟ أكُنتِ ترسمين، هل هذا هو كل شيء؟».

يعتبر تفتيش المواطنين ومراقبتهم من النشاطات الاجتماعية الأساسية والدائمة في البلدان الشيوعية. فَلكَي ينال رسّام حقّه في إقامة معرض أو يحصل مواطن على تأشيرة لقضاء عطلته على الشاطئ، أو لكي تتم الموافقة على انضمام لاعب كرة إلى الفريق الوطني، يجب أن تجتمع أصلاً كل أنواع التقارير والشهادات التي تخصُّهم، (شهادة الناطور وزملاء العمل والشرطة وخلية الحزب ولجنة التأميم) وهذه التصاريح يجمعها فيما بعد ويقيّمها ويراجعها موظّفون مدرّبون لهذه المهمة. أما ما يُقال في هذه التصاريح فلا علاقة له البتة بموهبة المواطن في الرسم أو في لعب الكرة، ولا علاقة له بما إذا كانت تسمح له حالته الصحية بقضاء عطلة على الشاطئ. هناك أمر واحد يهم وهو ما يسمّى «بالخلفية السياسية للمواطن» (أي ماذا يقول المواطن، في ماذا يفكر، كيف يتصرّف، هل يشارك في الاجتماعات أو في التظاهرات في الأول من أيار). وبما أنّ كل شيء (الحياة اليومية والترقية والعطلات) مرتبط بالطريقة التي يقيّمون بها سلوك المواطن، فإنّ الجميع مضطرون إذاً، (من أجل اللعب مع الفريق الوطني أو للتمكن من إقامة معرض، أو لقضاء عطلة على شاطئ البحر) للتصرف بطريقة تجعل علاماتهم حسنة.

هذا ما كانت سابينا تفكر فيه وهي تسمع كلام الرجل ذي الشعر الرمادي. فهو لم يكن يهمه في أي حال أن يلعب أبناء بلاده بكرة القدم أو أن يرسموا بموهبة، (على أية حال لم يكن أي تشيكي يهتم إطلاقاً بما كانت ترسمه). إنما يهمه شيء واحد مفاده أن يعرف هل كانوا مقاومين إيجابيين أم سلبيين، في الطليعة أم في المؤخرة، جديين أم مخادعين، تجاه النظام الشيوعي.

بما أنها كانت رسَّامة فهي تعرف إذاً مراقبة الوجوه وتعرف أيضاً مذ كانت في براغ، سيماءَ الناس الذين هم مولعون بمراقبة الآخرين وتقييمهم. فأولئك الناس تكون سبّابتهم أطول قليلاً من الوسطى، ويشهرونها دائماً في وجه محدثيهم. على أية حال، الرئيس نوفوتني مثلاً، الذي حكم بوهيميا طوال أربع عشرة سنة حتى عام 1968، كان لديه تماماً الشعر الرمادي نفسه المجعّد عند المزيّن، وبإمكانه أن يعتزَّ بأنه يملك السبابة الأكثر طولاً بين سكان أوروبا أجمعين.

عندما سمع المهاجر المحنّك من فم هذه الفنانة، التي لم يرَ قط لوحاتها قبلاً، بأنه يشبه ذلك الرئيس الشيوعي، احمرَّ عندئذ وجهه، ثم شحب، ثم احمرّ من جديد، ثم شحب، ثم أراد أن يقول شيئاً فلم يقل، بل استغرق في الصمت. صمت الجميع معه، فما كان من سابينا إلاّ أن نهضت وغادرت.

كانت سابينا تشعر بالانزعاج، ولكن حين أصبحت على الرصيف، قالت في نفسها: ما الذي كان يجبرها في الواقع على معاشرة تشيكيين؟ ما الذي يجمعها بهم؟ منظر؟ لو طُلب منهم أن يقولوا بماذا تذكّرهم بوهيميا، فإنّ هذه الكلمة ستثير في ذاكرتهم صوراً مشتتة لا جامع فيما بينها.

أهي الثقافة إذاً؟ ولكن أية ثقافة؟ الموسيقى؟ دوفرجاك وياناتسك؟

ربّما. ولكن ماذا لو أنّ تشيكيّاً واحداً لا يحب الموسيقى؟ تصير الهوية التشيكية دفعة واحدة شيئاً باطلاً.

أم هل هم الرجال العظام؟ يان هوس؟ لكن هؤلاء الناس لم يقرأوا في حياتهم كتاباً واحداً من كُتُبه. والشيء الوحيد الذي بإمكانهم أن يفهموه بالإجماع هو اللهب، ومجد اللهب الذي أُحرق فيه هوس بسبب أنه هرطوقي، ومن ثم مجد الرماد الذي صاره. وهكذا، فإنّ ماهية الروح التشيكية، فكّرت سابينا، كانت متمثلة في الرماد، لا أكثر. هؤلاء الناس لا يجمعهم سوى شيء واحد: هزيمتهم والملامات التي يوجهها واحدهم للآخر.

كانت تسير بعجل وأفكارها بالذات تجعلها أكثر اضطراباً من اختلافها مع المهاجرين. كانت تعرف أنّ أفكارها مجحفة بحقهم، ويجدر بها الاعتراف بأن هناك تشيكيين مختلفين عن ذلك الشخص ذي السّبابة المفرطة في الطول. ثم إنّ الصمت المزعج الذي أعقب الكلمات التي وجهتها له، لم يكن يعني أنّ الجميع يعيبون سلوكها. إنما كانوا بالأحرى مذهولين نتيجة هذا الظهور المباغت للحقد وهذا اللاتفهّم الذي يقع الجميع ضحيته في الهجرة. ولكن لماذا لم تكن إذاً تشعر بالشفقة حيالهم؟ لماذا لم تكن تجدهم مثيرين للشفقة وبائسين؟

سبق لنا أن عرفنا الجواب: حين خانت أباها انكشفت لها الحياة فجأة مثل طريق طويلة من الخيانات، حيث كل خيانة تجذبها كأنها آفة أو انتصار. فهي لم تكن تريد البقاء في الصفّ ولن تبقى فيه! لن تبقى إلى ما لا نهاية في الصفّ بمعية الناس ذاتهم والكلمات ذاتها! لذلك، فإنّ إجحافها هي بالذات يثيرها إلى أقصى الحدود. ثم إنّ سابينا لا تجد هذه الإثارة القصوى أمراً كريهاً، لا بل على العكس فهي تشعر بأنها أحرزت انتصاراً وأنّ أحداً ما غير مرئي يصفّق لها.

بيد أنّ النشوة أخلت بعد قليل المكان للقلق: سيكون عليها

الوصول ذات يوم إلى نهاية هذه الطريق! سيكون عليها أن تنتهي يوماً من كل هذه الخيانات! وأن تتوقف نهائياً!

كان المساء قد حلَّ وكانت تمشي بعجلة على رصيف المحطة. كان قطار أمستردام على أهبة الرحيل. بحثت عن قافلتها وقادها مفتش بشوش الوجه إلى المقصورة ففتحت الباب ورأت فرانز جالساً على سرير لا يزال غطاؤه مرتباً.. نهض لاستقبالها فضمّته بين ذراعيها وغمرته بالقبلات.

كانت تشعر برغبة جامحة في أن تقول له كما تقول أتفه النساء: «لا تتركني، احتفظ بي إلى جوارك، استعبدني، كن قوياً». ولكنها لا تستطيع ولا تعرف أن تتلفظ بمثل هذه الكلمات.

عندما أفلتها وتوقّف عن عناقها، اكتفت بالقول: «كم أنا سعيدة لأني بقربك».

لم تكن تستطيع أن تقول أكثر من ذلك نظراً لطبعها المتكتّم.

5

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (تابع)

المواكب:

في إيطاليا أو في فرنسا، بالإمكان إيجاد الحلّ بسهولة. فَحين يجبرك أهلك على الذهاب إلى الكنيسة تنتقم منهم بانضمامك إلى أحد الأحزاب، (الحزب الشيوعي أو التروتسكوي أو الماوي، إلخ). أما والد سابينا فقد أرسلها أول الأمر إلى الكنيسة ثم بسبب خوفه فيما بعد، أجبرها على الالتحاق بالشبيبة الشيوعية.

لم تكن قادرة، حين سارت في موكب الأول من أيار، على السير بخطئ موزونة. مع أنَّ الفتاة التي خلفها كانت تناديها وتدوس عمداً

على كاحلها. وإذا كان عليها أن تغنّي فهي لم تكن تحفظ الكلمات قط بل تفتح فماً أخرس. فلاحظ زملاؤها هذا الأمر ووشوا بها. مذ كانت صغيرة إذاً وهي تأنف كل أنواع المواكب.

تابع فرانز دراساته في باريس. وبما أنه كان متفوّقاً بشكل استثنائي فإنه، مذ كان في سن العشرين، وهو يضمن مهنة علمية أكيدة. وكان يعرف منذ ذلك الحين أنه سيقضي حياته بين جدران المكتب في الجامعة والمكاتب العامة وقاعتين أو ثلاث لإلقاء المحاضرات. كان يشعر عند هذه الفكرة بالاختناق. لذلك كان يرغب في الخروج من حياته كما يخرج المرء من بيته للذهاب إلى الشارع.

كان يسكن في باريس وكان يذهب تلقائياً إلى التظاهرات. كان يُسَر حين يذهب للاحتفال بشيء ما، وللمطالبة بشيء ما، ولمعارضة شيء ما.. وحين لا يكون وحيداً بل في الخارج بمعيّة الآخرين. كانت المواكب المتدفقة على جادة سان جرمان أو الوافدة من ساحة الجمهورية باتجاه الباستيل، تسحر لبّه. فالجماهير التي تتقدم هاتفة بالشعارات هي صورة عن أوروبا وتاريخها. فأوروبا هي مسيرة كبرى، مسيرة من ثورة إلى ثورة، من نضال إلى نضال، ودائماً إلى الأمام.

ربما في وسعي أن أعبّر عن ذلك بطريقة أخرى: كان فرانز يشعر أنّ حياته كانت غير حقيقية بين أوراق الكتب. وكان يتوق إلى الحياة الحقيقية وإلى السير جنباً إلى جنب في ركاب رجال آخرين ونساء أخريات. كان يتوق إلى صخبهم. لم يكن يدرك أن ما يعتبره غير حقيقي (أي انكبابه على العمل في عزلة المكتبات) كان هو حياته الحقيقية، بينما المواكب التي كان يعتبرها هي الحقيقة كانت مجرد مشهد أو رقصة أو عيد، وبكلمة أخرى: حلم.

كانت سابينا تسكن وهي لمّا تزل طالبة في مدينة جامعية. وكان الجميع مجبرين في الأول من أيار على الذهاب باكراً إلى نقاط تجمّع

الموكب. ولكي لا يتغيّب أحد من الطلبة كان هناك طلاب مناضلون ومأجورون يتحققون ما إذا كان المبنى خالياً. كانت تذهب للاختباء في المراحيض ولا ترجع إلى غرفتها إلاّ حين يمرّ وقت طويل على انطلاق الجميع؛ في ذلك الحين كان يسود صمت لم تعرف له مثيلاً قط. كانت تصلها من بعيد موسيقى المسيرة. كانت مثل حلزونة مختبئة داخل صدفتها ويصلها من بعيد ارتداد أمواج العالم المعادي..

بعد أن تركت بوهيميا بسنة أو سنتين، صودف مرورها في باريس في يوم الاحتفال بالذكرى السنوية للاجتياح. كانت تُقام تظاهرة للاحتجاج في ذلك اليوم، ولم تستطع أن تمنع نفسها من المشاركة فيها. كان هناك شبان فرنسيون يرفعون قبضاتهم زاعقين بشعارات ضد الإمبريالية السوفياتية. ومع أنّ هذه الشعارات كانت تُعجبها، إلاّ أنها اكتشفت بدهشة أنها غير قادرة على الهتاف مع الآخرين. لم تستطع البقاء وسط الموكب إلاّ لدقائق معدودة.

أعلمت بعض الأصدقاء الفرنسيين بهذه التجربة فتعجبوا منها قائلين: «ألا ترغبين إذاً في النضال ضد اجتياح بلادك؟». كانت تودّ أن تقول لهم إنّ الشيوعية والفاشية وكل أنواع الاحتلالات تخفي في طياتها سرّاً أكثر خطورة وشمولاً. وصورة هذا السِّر تتجلى في مواكب الناس الماشين في صفوف وهم يرفعون قبضاتهم هاتفين بالمقاطع اللفظية نفسها على نسق واحد. لكنها كانت تعرف أنها لا تستطيع أن تشرح لهم ذلك، فأحسَّت بالانزعاج وغيَّرت مجرى الحديث.

جمال نيويورك:

كانا يمشيان منذ ساعات طويلة في نيويورك.. كان المشهد يتغير إثر كل خطوة يقومان بها وكأنهما يتبعان شعاباً متعرجة وسط منظر ساحر في أحد الجبال: ثمة شاب يصلي راكعاً في وسط الرصيف،

وعلى مقربة منه زنجية جميلة تتثاءب وهي مستندة إلى شجرة، ورجل يرتدي بذلة سوداء يؤشر بيديه كأنه يدير فرقة موسيقية غير مرئية. كان الماء ينساب من فسقيّات بركة جلس حولها بنّاؤون يتناولون غداءهم. وكانت سلالم معدنية ترتقي واجهات بيوت قرميدية حمراء قبيحة؛ وهذه البيوت كانت من البشاعة إلى حد أنها صارت جميلة. على مقربة منها تنتصب ناطحة سحاب زجاجية وخلفها ناطحة سحاب أخرى في أعلاها قصر عربي صغير مزدان بالأبراج والقناطر والأعمدة المذهّبة.

كانت تفكر في لوحاتها: هناك أيضاً ثمة أشياء تتجاور مع أن لا علاقة لبعضها ببعض: من الأمام أفران مصاهر حديد في طور البناء وفي خلفية اللوحة مصباح.. وفي لوحة أخرى مصباح آخر كُمَّته(*) القديمة التي من الزجاج المرسوم تتشظى إلى جزيئات صغيرة تعلو مشهد مستنقعات حزين.

قال فرانز: «كان للجمال الأوروبي على الدوام طابع التعمّد.. وكان هناك دائماً مقصد جمالي في أصله وخطة ذات نفس طويل.. فاقتضى بناء كاتدرائية أو مدينة من عصر الأنوار، على أساس هذه الخطة، قروناً طويلة. أما جمال نيويورك فمختلف تماماً. إنه جمال غير متعمَّد، نشأ دون أن يتعمد الإنسان التفكير فيه كَمِثل مغارة من الماء المتحجر. فهو مؤلف من أشكال قبيحة بحد ذاتها ولكن تجاورها صدفة ودون أي تصميم مسبق وبشكل غير مرتقب يجعلها تتألق فجأة بشاعرية ساحرة».

قالت سابينا: «تقول الجمال غير المتَعَمَّد، صحيح. ويمكننا أن نضيف أيضاً الجمال عن غير قصد. فقبل أن يختفي الجمال نهائياً عن وجه الأرض، سيبقى موجوداً لبعض الوقت إنّما عن غير قصد.

(*) (Abat - jour) غطاء المصباح أو غلافه.

فالجمال عن غير قصد هو المرحلة الأخيرة من تاريخ الجمال».

كانت تفكر في لوحتها الأولى التي تعدُّ ناجحة فعلاً، حيث سال عليها طلاء أحمر عن غير قصد. نعم، كانت لوحاتها مرسومة وفقاً للجمال غير المتَعَمَّد، وكانت نيويورك الجزء الخفي والحقيقي من لوحاتها.

قال فرانز: «ربما جمال نيويورك غير المتَعَمَّد هو أكثر غنى وتنوعاً بكثير من الجمال المفرط في الصرامة والذي هيّأته مسبقاً خطة إنسانية. ولكن جمال نيويورك مختلف تماماً عن الجمال الأوروبي. إنه عالم غريب».

كيف؟ أيوجد شيء ما يتفقان في الرأي بشأنه؟

لا، هنا أيضاً الأمر مختلف. فغرابة الجمال النيويوركي تجذب سابينا بجنون. بينما هو يفتن فرانز ويرعبه في آن، إنه يثير فيه الحنين إلى أوروبا.

وطن سابينا:

تتفهم سابينا تحفّظ فرانز حيال أميركا. فهو مثال حي لأوروبا: أمّه أصلها من ڤيينا وأبوه فرنسي، أما هو فسويسري.

فرانز معجب بوطن سابينا. وهو، حين تحدّثه عن نفسها وعن أصدقائها في بوهيميا، وحين يسمع كلمات سجون ومداهمات ودبابات في الشوارع وهجرة ومناشير وأدب ممنوع ومعارض ممنوعة، يشعر برغبة غامضة مفعمة بالحنين.

ويُسرّ لسابينا: كتب عني أحد الفلاسفة مرةً فقال «إنّ كل ما أقوله ليس إلاّ نظريات تستعصي على البرهنة»، ووصفني «بأني أكاد أكون سقراط يستحيل وجوده»، فشعرت عندها بأنه بالغ في إهانتي ورددت عليه بغضب. تخيّلي أنّ هذه الحادثة التافهة هي الحادثة الأخطر التي

شاهدتها في حياتي! وأنّ حياتي بَلَغَتْ بها أقصى حد من إمكاناتها المأسوية! يعيش كلٌ منّا نحن الاثنين في مستويات متباينة. دخلتِ إلى حياتي دخول غوليڤر إلى مملكة الأقزام.

سابينا تحتجّ قائلة إنّ الصراعات والفواجع والمآسي لا تعني شيئاً البتة ولا قيمة لها، وهي لا تستحق الاحترام أو الإعجاب. فكل ما يمكن للجميع أن يحسد فرانز عليه هو العمل الذي يتمكن من إنجازه في سلام.

يهز فرانز رأسه قائلاً: «الناس في المجتمعات الميسورة، ليسوا بحاجة إلى الأعمال اليدوية بل يكرّسون أنفسهم للنشاط الذهني. لذلك فإنّ الجامعات في ازدياد مطَّرد والطلاب أيضاً. ولكي ينالوا شهاداتهم، عليهم أن يختاروا مواضيع لإجازاتهم. وهناك عدد غير محدود من المواضيع، فبالإمكان معالجة كل ما يخطر في الأذهان. وها هي أكداس الورق المسوّد تملأ الدوائر التي صارت محزنة أكثر من المقابر لأن لا أحد يأتي إليها ولا حتى في عيد جميع القديسين. وهكذا فإن الثقافة تغرق في بحر من الكتب وفي وابل من الجمل، وفي جنون الكَمّ. صدقيني، إنّ كتاباً واحداً ممنوعاً في بلدك القديم لهو أهمّ بكثير من مليارات الكلمات التي تقذفها جامعاتنا».

في هذا الاتجاه بالذات يمكن أن يُفهَم ضعف فرانز حيال كل أنواع الثورات. فهو في السابق تعاطف مع كوبا ثم مع الصين، ثم اشمأزت نفسه من فظاعة نظاميهما وخلص للاقتناع بمرارة بأنه لم يتبقَّ له إلاّ هذا المحيط من الحروف التي لا قيمة لها ولا علاقة لها بالحياة. أصبح مدرّساً في جامعة جنيف (حيث لا تظاهرات) ونَشَر بنوع من نُكران الذات (كان يعيش في عزلة دون نساء ولا مواكب) عدّة أعمال علمية لاقت الكثير من النجاح. وفي ذات يوم انبثقت سابينا مثل ظهور عجيب. كانت آتية من البلاد التي ذبلت فيها الأوهام الثورية منذ وقت

طويل، ولكن الذي بقي منها أكثر ما كان يعجبه في الثورات وهو: الحياة التي تعاش فوق المستوى العظيم للخطر والشجاعة والموت المهدّد. كانت سابينا تعيد له الثقة بعظمة المصير الإنساني. كانت جميلة بقدر ما تتراءى خلف قامتها مأساة بلادها الأليمة.

للأسف، إنّ سابينا لا تحب هذه المأساة. وكلمات سجون ومداهمات وكتب ممنوعة واحتلال ودبابات هي بالنسبة لها كلمات بشعة خالية من أية حلاوة رومنطيقية. أما الكلمة الوحيدة التي لا تزال تطن في أذنيها مثل ذكرى حنين لبلادها هي كلمة مقبرة.

المقبرة:

المقابر في بوهيميا تشبه الحدائق. والأضرحة هناك يكسوها العشب والأزهار فاقعة الألوان. والأنصاب المتواضعة تختفي وسط اخضرار الأوراق. عند المساء، تكتظ المقبرة بشموع صغيرة مضاءة. فيُخيّل للمرء أنّ الموتى يقيمون حفلة راقصة طفولية. نعم، حفلة راقصة طفولية، لأنّ الموتى أبرياء كالأطفال. مهما تكن الحياة أليمة، ففي المقبرة يُخيّم السلام على الدوام، حتى خلال الحرب في عهد هتلر وفي عهد ستالين، وفي ظلّ جميع الاحتلالات. وحين كانت تشعر أنها حزينة، كانت تركب سيارتها وتنطلق بها بعيداً عن براغ لتتنزه في إحدى مقابرها المفضَّلة. كانت هذه المقابر الريفية على خلفية تلال مائلة إلى الزرقة، جميلةً وكأنها مُهود.

أما فرانز فهو يجد أن المقابر مزبلة قذرة من العظام والحجارة.

6

«لن أصعد أبداً في سيارة بعد اليوم. يخالجني خوف عظيم من أن أصاب بحادث سيارة! حتى ولو لم تكن الضربة قاضية، فإنّ الصدمة

التي تعقبها ترافقنا حتى نهاية أيامنا!»، كان النحات يقول ذلك وهو ممسك بطريقة لاإرادية بسبّابته التي أوشك أن يقطعها أثناء نحته الخشب، والتي نجح الأطباء في إنقاذها من البتر بفضل معجزة.

كانت ماري - كلود تزعق بلهجة مستوفية للأصول: «ليس صحيحاً ما تقول. لقد حصل لي حادث سيارة وكان الأمر رائعاً. ما شعرت قط في حياتي أنني كنت أحسن حالاً مما أنا عليه في المستشفى! لم أكن أستطيع أن أغمض جفناً وكنت أقرأ بطريقة تصل الليل بالنهار».

كان الجميع ينظرون إليها بدهشة بدا أنها ملأتها بالسرور. امتزج انقباض فرانز (الذي كان يتذكر أنّ زوجته كانت محبطة جدّاً إثر هذا الحادث ولا تتوقف عن النحيب) بشيء من الإعجاب (فموهبة ماري - كلود هذه في أن تبدّل صورة معاناتها تنمّ عن حيويّة جديرة بالاحترام).

ثم أردفت: «هناك في المستشفى بدأت أصنّف الكتب إلى فئتين: الكتب النهارية والكتب الليلية. وهذا صحيح، هناك كتب للنهار وكتب أخرى لا يمكن قراءتها إلاّ في الليل».

كان الجميع ينظرون إليها بدهشة يعتريها الإعجاب. وحده النحّات الذي كان يمسك إصبعه قد تقبّض وجهه من ذكرى أليمة.

التفتت ماري - كلود ناحيته: «ضمن أي مجموعة تضع ستاندال؟».

لم يكن النحّات مصغياً فرفع كتفيه بانزعاج. ثم قال ناقد فنّي، كان على مقربة منه، إنّ قراءة ستاندال هي حسب رأيه قراءة نهارية.

أومأت ماري - كلود برأسها معلنة بصوتها الزاعق: «هذا ليس صحيحاً! لا، لا، ثم لا، أنت لست محقاً! ستاندال كاتب ليليّ».

كان فرانز يتابع النقاش عن الفن الليلي والنهاري من بعيد، وكان

لا يشغل باله إلاّ اللحظة التي ستدخل فيها سابينا. كانا قد فكرا معاً لبضعة أيام ما إذا كان مستحسناً أم لا أن تقبل سابينا الدعوة إلى حفلة كوكتيل تقيمها ماري - كلود على شرف جميع الرسامين والنحاتين الذين عرضوا في صالتها الخاصة. ذلك أن سابينا مذ تعرفت إلى فرانز، وهي تتحاشى رؤية زوجته. ولكنها إذ خشيت أن تفضح نفسها، اقتنعت بأنّ مجيئها سيكون طبيعياً أكثر وأقل إثارة للشبهة.

وبما أنه كان يسترق نظرات خاطفة إلى المدخل، تنبّه إلى أن صوت ابنته ماري - آن، التي تبلغ ثماني عشرة سنة، يخطب بإطناب ودون توقف في عمق الصالون. ترك المجموعة التي تترأسها زوجته لينضم إلى الحلقة التي تتزعمها ابنته، حيث كان هناك شخص جالس على الأرض والآخرون واقفين بينما ماري - آن جالسة على الأرض. كان فرانز متأكداً أنّ ماري - كلود، الموجودة في الناحية المقابلة من الصالون، ستجلس عمّا قريب على السجّادة بدورها. فالجلوس على الأرض أمام المدعوين كان يعتبر آنذاك تصرفاً يؤكد على أن المرء طبيعي يتصرف على سجيته وتقدمي واجتماعي وباريسي. وكانت ماري - كلود مشغوفة كثيراً بالجلوس على الأرض وفي كل الأمكنة المتوفرة.. حتى أنّ فرانز كان يخشى في أغلب الأحيان أن يجدها جالسة على أرض الدكان الذي تشتري منه السجائر.

سألت ماري - آن الرجل الذي كانت تجلس قبالته: «ماذا تفعل في هذه الأيام يا آلان؟».

فأراد آلان الساذج والشريف أن يردّ بدقة على ابنة صاحبة الصالة، وأخذ يشرح لها طريقته الجديدة في الرسم والتي تجمع بين التصوير والرسم بالزيت. ما كاد يلفظ ثلاث جمل حتى أطلقت ماري - آن صفيراً، لكن الرسّام كان مركّز الذهن فلم يسمع صفيرها وتابع يتكلم ببطء.

همس فرانز: «هل في استطاعتك أن تقولي لماذا تصفرين؟».

- «لأنني أكره التحدث في السياسة»، أجابت ماري - آن بصوتٍ عالٍ.

كان هناك رجلان، في الواقع، واقفين في الحلقة نفسها يتحدثان في شأن الانتخابات الفرنسية المقبلة. فسألتهما ماري - آن التي كانت تشعر أنها معنية بإدارة الأحاديث عما إذا كانا سيذهبان في الأسبوع المقبل إلى المسرح حيث ستقدم فرقة إيطالية أوبّرا لروسّيني. فيما آلان الرسّام لا يزال مصراً على إيجاد عبارات أكثر دقة ليشرح طريقته الجديدة في الرسم؛ وكان فرانز خجلاً من ابنته فقال لها ليسكتها بأنه يضجر حتى الموت حين يذهب لمشاهدة الأوبرا.

قالت ماري - آن وهي تربت على بطن أبيها دون أن تحاول النهوض: «أنت لا تفهم شيئاً. المغني الرئيسي جميل جداً! يا إلهي كم هو جميل! رأيته مرتين ومنذ ذلك الوقت وأنا متيمة به».

كان فرانز يتحقق من أنّ ابنته تشبه أمها بشكل لا يرقى إليه الشك. لكن لماذا لا تشبهه هو بالأحرى؟ الأمر لا رجاء فيه، فهي لا تشبهه. سبق له ألف مرة أن سمع ماري - كلود تقول بأنها مغرمة بهذا الرسام أو بذاك، أو بمغنٍّ أو بكاتب أو برجل سياسي، وحتى أنها أُعجبت مرةً براكب درّاجات. جَليّ أنّ هذا الأسلوب في الكلام هو الأسلوب المتبع في مآدب العشاء في المدينة والحفلات، لكنه كان يتذكر أحياناً أنها، منذ عشرين عاماً، قالت بشأنه الكلام ذاته وهددته علاوة على ذلك بالانتحار.

في هذه اللحظة بالذات، دخلت سابينا. رأتها ماري - كلود فتقدمت لاستقبالها. كانت ابنته تتابع حديثها عن روسّيني، ولكن فرانز كان آذاناً صاغية فقط لما تقوله المرأتان فيما بينهما. بعد بضع جمل

مؤدبة مرحّبة، أمسكت ماري - كلود بالعقد الخزفي الذي كانت تضعه سابينا حول عنقها وقالت بصوت عالٍ جداً: «ما هذا الذي تضعينه! إنه مرعب!».

استأثرت هذه الجملة بانتباه فرانز. لم تكن ملفوظة بنبرة عدائية، على العكس يُفترض بالضحكة العالية التي واكبتها أن تؤكد على الفور أن استهجان ماري - كلود للعقد لا يغيّر شيئاً في صداقتها للرسامة: ولكن هذه الجملة لم تكن تندرج مع ذلك في سياق اللهجة التي تخاطب بها ماري - كلود الآخرين عادةً.

- «صنعتُه بنفسي»، قالت سابينا.

- «أجده مرعباً صراحة»، كررت ماري - كلود بصوتٍ عالٍ. «ما كان يجدر بك أن ترتديه».

كان فرانز يعرف أنّ زوجته لا يهمها إطلاقاً أن تكون حلية ما قبيحة أم جميلة. كان قبيحاً ما كانت ترغب في رؤيته قبيحاً، وجميلاً ما كانت تريد أن تراه جميلاً. لذلك، كانت حلى صديقاتها جميلة عن سابق تصور. ربّما كان يمكنها أن تجدها قبيحة لكنها كانت تخفي ذلك بعناية، فالإطراء صار منذ زمن بعيد طبيعتها الثانية.

لماذا قررت إذاً أن تجد الحلية التي صنعتها سابينا بنفسها قبيحة؟

كان الأمر ينجلي فجأة لفرانز: إذا كانت ماري - كلود قد صرّحت بأن حلية سابينا قبيحة، فهذا لأنها قادرة على السماح لنفسها بأن تقول ذلك.

في العام الفائت، لم يكن عرض سابينا ناجحاً بما فيه الكفاية ولم تكن ماري - كلود تهتم البتة بكسب ودّ سابينا. بل خلافاً لذلك، كان لسابينا جميع الدوافع التي تدعوها لاكتساب ودّ ماري - كلود. ومع ذلك فإنّ تصرّفها لم يفصح عن هذا الأمر.

نعم، بدأ فرانز يفهم ذلك بوضوح كلّي: اغتنمت ماري - كلود الفرصة لتؤكد لسابينا (وللآخرين) ما هو ميزان القوى الحقيقي الذي يحدد علاقتهما.

7

معجم صغير للكلمات غير المفهومة (خاتمة)

كنيسة أمستردام القديمة:

من جهة، بجانب البيوت التي تُرى من خلف نوافذها الكبيرة في الطوابق السفلية والشبيهة بواجهات المخازن، تُلمح غرف العاهرات الصغيرة. ها هنّ جالسات في ملابسهن الداخلية لصق الزجاج على كنبات صغيرة مزدانة بالوسائد، وكأنهنّ قطط ضخمة ضَجِرة.

وفي الجهة الأخرى من الشارع كنيسة قوطية هائلة تعود إلى القرن الرابع عشر. وبين عالم العاهرات وعالم المؤمنين تمتد، مثل نهر فاصل بين مملكتين، رائحة بول نفّاذة.

من الداخل، لم يبق من الطراز القوطي غير الجدران العالية العارية والأعمدة والقبة والنوافذ. لا وجود لِلَوحة أو لتماثيل في أي مكان. والكنيسة خاوية مثل قاعة تمارينَ رياضية. كل ما نراه فيها عبارة عن صفوفٍ من الكراسي في الوسط تشكل مربَّعاً حول منصة منمنمة تنتصب عليها طاولة الواعظ الصغيرة، وخلف الكراسي ثمة مقصورات خشبية وهي حجيرات معدّة للعائلات الثرية.

الكراسي والحجيرات الخشبية موضوعة هنا دون أدنى اهتمام بالشكل الهندسي للجدران ونسق الأعمدة، وكأنها بذلك تريد أن تعبّر عن لامبالاتها وعن احتقارها لفن العمارة القوطي. قرون مرّت الآن على تحويل المذهب الكلڤينيّ الكنيسة إلى مجرد سقيفة بسيطة لا وظيفة

لها غير حماية المصلّين المؤمنين من الثلج والمطر.

كان فرانز مسحوراً: فهذه الصالة الهائلة قد عبرتها المسيرة العظيمة للتاريخ.

كانت سابينا تتذكر أنه قد جرى تأميم جميع قصور بوهيميا بعد الانقلاب الشيوعي وتحولت إلى مراكز تدريب وإلى مؤسسات للعجزة، وإلى زرائب أيضاً. . قامت بزيارة إحدى هذه الزرائب: كانت هناك كلاليب بحلقات مثبتة إلى جدران الجصّ، والأبقار التي كانت معلّقة فيها تنظر حالمة عبر النوافذ إلى حديقة القصر حيث كانت تتراكض الدجاجات.

قال فرانز: «هذا الفراغ يسحرني. نكدّس المذابح والتماثيل والصور والكراسي والكنبات والسجاجيد والكتب، ثم يأتي وقت البهجة الجماعية المحررة فيتم تكنيس كل هذا كما تكنّس الفضلات عن الطاولة. . هل في استطاعتك أن تتخيّلي مكنسة هرقل التي كنست هذه الكنيسة؟».

أشارت سابينا إلى حجيرة خشبية: «كان الفقراء يبقون واقفين والأثرياء جالسين في حجيراتهم. لكن مع ذلك هناك شيء يجمع بين صاحب المصرف والفقر وهو: مَقْت الجمال».

«ما هو الجمال؟» قال فرانز وقد فكّر فجأة بمعرض شاهده مؤخراً برفقة زوجته. فكر في تفاهة الأحاديث التي لا تنتهي، في تفاهة الثقافة وتفاهة الفن.

عندما كانت تلميذة، كانت تعمل في «ورشة الشباب»، وكانت روحها قد تشبعت سمَّ الأبواق الموسيقية المبتهجة المتدفقة دون توقف من مكبرات الصوت، فانطلقت ذات يوم أَحَد راكبة على درّاجة. كانت توغّلت بضعة كيلومترات داخل غابة، ثم توقفت في مدينة صغيرة

مجهولة ضائعة وسط التلال. أسندت الدرّاجة إلى حائط الكنيسة ودخلت: كانوا يحتفلون لساعتهم بالقداس.. كان النظام الشيوعي آنذاك يضطهد الدين وكانت أغلبية الناس تتحاشى الذهاب إلى الكنائس. كان هناك بضعة عجزة جالسين على المقاعد لا يهابون النظام بل يهابون الموت فقط.

كان الكاهن يلفظ جملة بصوت رخيم فيردّدها الجمع وراءه سوية. كانت الجمل عبارة عن طلبات حيث تتكرر الكلمات ذاتها مثل سائح لا يمكنه إشاحة بصره عن منظر، ومثل رجل لا يستطيع الاستئذان بالانصراف أبداً. جلست على مقعد في الخلف. كانت تغمض عينيها أحياناً لا لشيء إلاّ لسماع موسيقى هذه الكلمات، ثم تفتحها من جديد فترى فوقها القبة المطلية بالأزرق التي تزينها نجوم ذهبية كبيرة. فاستسلمت لهذه الفتنة.

ما صادفته في هذه الكنيسة على غير موعد لم يكن الله بل الجمال. كانت تعرف جيداً في الوقت نفسه أنّ هذه الكنيسة وهذه الطلبات لم تكن جميلة بحدّ ذاتها وإنما هي جميلة بالمقارنة مع تجاورها اللاّمادي مع «ورشة الشباب» حيث كانت تمضي أيامها في خضم الأغاني الصاخبة. كان القداس جميلاً لأنه بدا لها فجأة وبطريقة خفية وكأنه عالم جرت خيانته.

أدركت منذ ذلك الحين أنّ الجمال هو عالم جرت خيانته ولا تمكن مصادفته إلاّ حين ينساه مضطهدوه عن غير قصد في مكان ما.. كان الجمال يختبئ خلف «ديكورات» موكب الأول من أيار، ولكي يتم العثور عليه يجب تمزيق قماشة «الديكور».

قال فرانز: «إنها المرة الأولى التي أقع فيها تحت تأثير سحر كنيسة». لم تكن البروتستانتية أو التقشف هما اللذان يثيران حماسته،

إنما شيء آخر جوّاني صميم، ولم يكن يجرؤ على الإفصاح عنه لسابينا. كان يُخيّل إليه أنه يسمع صوتاً يُملي عليه أن يمسك بمكنسة هرقل ويكنس من حياته معارض ماري - كلود ومغنّي ماري - آن والمؤتمرات والندوات والخطب التافهة والكلمات التي لا قيمة لها. بدا له فراغ المساحة الشاسعة لكنيسة أمستردام وكأنه صورة انعتاقه الشخصي.

القوة:

كانت سابينا تلهو بذراعي فرانز في سرير من أسرّة الفنادق العديدة التي كانا يتضاجعان فيها، وتقول: «عجيب، كم أن عضلاتك مفتولة!».

كان هذا الثناء يُدخل السرور إلى قلب فرانز. نهض عن السرير ثم أمسك كرسياً من خشب السنديان من رِجله وشرع يرفعه ببطء عن مستوى الأرض. كان يقول لسابينا في الوقت نفسه:

- «لا خوف عليك، أستطيع الدفاع عنك في كل الظروف. كنت بطلاً في الجودو منذ زمن».

نجح في رفع ذراعه عمودياً وهو يحمل الكرسي. ثم قالت له سابينا: «يسعدني أن أراك قوياً إلى هذا الحد!».

ولكنها أضافت في سرّها ما مفاده: فرانز قوي ولكن قوته موجهة فقط نحو الخارج. أما مع الناس الذين يعيش بينهم، مع أولئك الذين يحبّهم فهو ضعيف. ضعف فرانز يسمّى الطيبة. فرانز ليس على استعداد إطلاقاً لأن يوجّه أوامر لسابينا. فهو لن يأمرها أبداً، كما كان توماس يفعل في السابق، بأن تضع المرآة على الأرض وأن تجول فوقها عارية تماماً. ليس لأن الشهويّة تنقصه بل لأنه لا يقوى على إعطاء الأوامر. ثمة أشياء لا يمكن تحقيقها إلاّ عن طريق العنف. والعلاقة

الجنسية خصوصاً لا يمكن تصوّرها من دون العنف.

كانت سابينا تنظر إلى فرانز وهو يجول الغرفة رافعاً الكرسي عالياً جداً. كان الأمر يبدو لها مثيراً للسخرية ويملأها بحزن غريب.

ألقى فرانز الكرسي وجلس مستديراً بوجهه ناحية سابينا ثم قال:

- «ليس أمراً لا يروقني أن أكون قوياً، ولكن بماذا يمكن أن تنفعني عضلات كهذه في جنيف؟ أحملها معي وكأنها زينة، كأنها ريشات الطاووس. لم يسبق لي أن ضربت أحداً في حياتي».

كانت سابينا تلاحق أفكارها الكئيبة. ماذا لو أحبّت رجلاً يصدر إليها الأوامر؟ من هو ذلك الذي سيرغب في التحكم بها؟ وكم من الوقت ستتحمله؟ ولا حتى خمس دقائق! هذا يعني أنّ أيّاً من الرجال لا يناسبها، لا قوياً ولا ضعيفاً.

- قالت: «ولِمَ لا تستعمل قوّتك معي من وقت لآخر؟».

- قال فرانز برقّة: «لأنّ الحب يعني أن نتخلّى عن القوّة».

ففهمت سابينا أمريْن: الأول أنّ هذه الجملة كانت جميلة وصحيحة، والثاني أنه يوشك مع هذه الجملة أن يتجرد من صلاحيته لحياتها الجنسية.

العيش في الحقيقة:

إنها عبارة استعملها كافكا في يومياته أو في إحدى رسائله. لم يعد فرانز يتذكر أين بالضبط. ولكن هذه العبارة تسحره. فما معنى أن نعيش في الحقيقة؟ ثمة تعريف سلبي سهل: معناه ألا نكذب وألا نُخفي وألا نتكتم. وهو، مذ تعرَّف إلى سابينا، يعيش في الكذب. فَتَارةً يحكي لزوجته عن مؤتمر في أمستردام، وتارةً أخرى عن محاضرات في مدريد لا أساس لها من الصحة. وهو أيضاً يخاف من التنزه برفقة سابينا في

شوارع جنيف. أن يكذب وأن يتخفى أمر ممتع لمجرّد أنه لم يفعل ذلك من قبل، فهو يشعر عندها بدغدغة لذيذة كما عندما يقرر الأول في صفّه أخيراً أن يتنزه بدل الذهاب إلى المدرسة.

أما العيش في الحقيقة وعدم الكذب على أنفسنا وعلى الآخرين، بالنسبة لسابينا، فأمر غير ممكن، إلاّ إذا عشنا بعيداً عن الناس، فَما إن يكون هناك شاهد على أعمالنا حتى نتأقلم طوعاً أو كرهاً مع العيون التي تراقبنا، فلا يعود أي شيء مما نقوم به حقيقياً. أن نحظى بجمهور وأن نفكر في جمهور، فهذا يعني أن نعيش في الكذب. سابينا تكره الأدب الذي يكشف فيه الكاتب عن حياته الخاصة أو عن حياة أصدقائه الخاصة. . وتعتقد سابينا أنّ ذلك الذي يفقد حياته الخاصة يفقد كل شيء. وأن من يتخلى عنها بكامل إرادته، إنما هو مسخ. لذلك فإنّ سابينا لا يؤلمها أن يكون عليها أن تُخفي حبّها. بل على العكس، هذه هي وسيلتها الوحيدة لكي تعيش في الحقيقة.

أما فرانز فهو متأكد أن أصل جميع أنواع الكذب يكمن في الفصل بين الحياة الخاصة والحياة العامة: حين يكون المرء شخصاً في حياته الخاصة وشخصاً آخر في حياته العامة. فالعيش في الحقيقة، بالنسبة لفرانز، هو إلغاء الفاصل بين الخاص والعام. وهو يتذكر في هذه المناسبة تلقائياً جملة لبروتون يقول فيها إنه كان يودّ أن يعيش «في منزل من زجاج»، حيث لا شيء خفيّ وكل شيء مُشرّع للأنظار كلها.

عندما سمع زوجته تقول لسابينا: «يا للحلية المريعة!»، فهم عندئذ أنه بات من المستحيل العيش في الكذب. وأنه كان عليه منذ تلك اللحظة أن يبادر للدفاع عن سابينا. وإذا لم يكن قد فعل ذلك، فهذا فقط لأنه خاف من أن يُفتَضح أمرُ حبّه السّرّي.

غداة اليوم التالي بعد الحفلة، كان يُفترض به الذهاب لقضاء يومين في روما. كانت الكلمات: «يا للحلية المريعة!» تطنّ من دون توقّف

في أذنيه، وبدت له زوجته من وجهة نظر مختلفة. لم تعد كما كان يراها دائماً. إنّ عدائيتها المنيعة والصاخبة والديناميكية أزاحت عنه ثقل الطيبة الذي كان يرزح تحته طوال عشرين سنة زواج. تذكَّر المساحة الشاسعة داخل كنيسة أمستردام، فأحسّ بالحماس الغريب والغامض الذي يثيره فيه هذا الفراغ، يتدفق في أعماقه.

كان يجهِّز حقيبته عندما دخلت ماري - كلود إلى الغرفة. أخذت تتحدث عن مدعوّي البارحة، مصدّقة بحماس بعض الآراء التي سمعتها، ومُدينةً بفظاظة بعضها الآخر.

نظر فرانز إليها طويلاً، ثم قال: «ليس هناك مؤتمر في روما».

لم تكن تفهم، فقالت: «ولماذا تذهب إلى هناك إذاً؟».

فأردف: «لدي عشيقة منذ تسعة أشهر. لا أريد أن أراها في جنيف. لذلك أسافر بكثرة. فكرت أنه من المستحسن أن أخبرك بذلك».

حين تفوّه بالكلمات الأولى أحسّ بالخوف وغادرته شجاعته الأولى. فأشاح بوجهه كي لا يقرأ على وجه ماري - كلود وقع اليأس الذي تُحدثه كلماته.

بعد لحظة قليلة سمعها تقول: «نعم. أنا أيضاً أعتقد أنه من المستحسن أن تخبرني بذلك».

كانت نبرة كلماتها حازمة. رفع عينيه ناحيتها: لم تكن ماري - كلود منهارة قط. بل كانت لا تزال تشبه المرأة التي كانت تقول بصوت زاعق: «يا للحلية المريعة!».

ثم تابعت قائلة: «ما دمت تملك الشجاعة لإعلامي بأنك تخونني منذ تسعة أشهر، هل تستطيع أن تقول لي أيضاً مع مَنْ؟».

كان يدّعي دائماً أنه لا يُفترض به أن يؤذي ماري - كلود، وأنّ

عليه احترام المرأة فيها. ولكن ما الذي صار بحال المرأة في ماري - كلود؟ وبطريقة أخرى، أين أصبحت صورة الأم التي كانت تربطه بزوجته؟ صورة أمّه، أمّه الحزينة المجروحة التي ارتدت فردتيْ حذاءٍ مختلفتين، غادرَتْ ماري - كلود، وربما لم تغادرها لأنها لم تكن موجودة فيها أصلاً. فهم كل هذا نتيجة هجمة مباغتة للكراهية.

فقال: ليس هناك ما يدعو لأخفي عليك.

بما أن خيانته أمر لا يجرحها، فسيجرحها بالطبع أن تعرف من هي غريمتها. لفظ اسم سابينا وهو ينظر مباشرة إلى عينيها.

بعد وقت قليل، وافى سابينا إلى المطار. كان، كلّما علَتْ الطائرة، يشعر أنه يصير أكثر خفة. كان يقول في نفسه إنه في نهاية الشهر التاسع، ها قد بدأ أخيراً يعيش في الحقيقة.

8

كان الأمر في نظر سابينا كما لو أنّ فرانز يقتحم باب حياتها الخاصة عنوة، فترى من الشقّ رأس ماري - كلود ورأس ماري - آن ورأس الرسام آلان ورأس النحّات الذي كان يمسك بإصبعه طوال الوقت، ورؤوس جميع الناس الذين تعرفهم في جنيف. كانت تصبح رغماً عنها غريمة امرأة لا تعني لها شيئاً إطلاقاً. ففرانز سيبادر إلى الطلاق وهي ستأخذ مكانها إلى جانبه على سرير زوجي كبير. وستكون محط أنظار الجميع من قريب أو من بعيد. وبدل أن تكون سابينا، ستكون مرغمة على تمثيل دور سابينا وإيجاد الطريقة المناسبة للعب الدّور. وهكذا، فإنّ الحب الذي صار عَلَنيّاً سيزداد وزناً ليصير حملاً ثقيلاً. كانت سابينا، لمجرد التفكير في ذلك، ترزح تحت ثقله سلفاً.

كانا يتناولان العشاء في أحد مطاعم روما ويشربان الخمرة، وكانت سابينا قليلة الكلام.

فسأل فرانز: «هل صحيح أنك لست غاضبة مني؟». فأكدت له أنها ليست غاضبة منه. كانت أفكارها مشوشة تماماً ولا تعرف بعد ما إذا كان عليها أن تهلّل للأمر أم لا. كانت تفكر في لقائهما في عربة النوم لقطار أمستردام. شعرت في ذلك المساء برغبة في الارتماء عند قدميه والتوسل إليه ليستبقيها قربه حتى ولو اضطرّه الأمر لاستعمال القوة، وألا يدعها ترحل أبداً.

كانت راغبة ذلك المساء في أن تنهي حساباتها نهائياً مع هذا السفر الطويل من خيانة إلى خيانة. كانت تساورها رغبة في التوقف.

الآن، ها هي تحاول أن تتمثل في ذهنها وبأقصى حدة ممكنة، رغبتها السابقة، أن تستعيدها وتتقوّى بها، ولكن عبثاً. كان الشعور بالضيق أقوى من كل شيء.

كانا متوجهين إلى الفندق وسط عجقة المساء، وكان الإيطاليون حولهما يفرقعون ويزعقون ويشوّرون بأيديهم، بحيث إنهما كانا يستطيعان المشي جنباً إلى جنب صامتَيْن فلا يسمعان صمتهما.

بعدها، أمضت سابينا وقتاً طويلاً في الحمام وهي تهتم بنفسها. وكان فرانز أثناء ذلك ينتظرها تحت غطاء السرير الزوجي الواسع. وكان هناك كالعادة مصباح صغير مضاء.

حين رجعت من غرفة الحمام، أطفأت الضوء. هذه هي المرة الأولى التي تتصرف فيها على هذا النحو. كان يُفترض بفرانز أن يرتاب لهذا التصرف ولكنه لم ينتبه لأنّ الضوء لا يثير اهتمامه. فهو، كما رأينا، يبقي عينيه مغمضتين أثناء المضاجعة.

ولهذا السبب بالذات، ولأنه كان يغمض عينيه، أطفأت سابينا الضوء. فهي ليس لديها أدنى رغبة في رؤية أجفانه المطبقة ولو لثانية واحدة. العيون، كما يقول المثل، هي نوافذ النفس. وهي كانت تشعر

أن جسد فرانز، الذي يتخبط فوقها وهو مغمض العينين، جسد دون روح. كان شبيهاً بحيوان صغير لا يزال غير قادر على الرؤية فيرسل أصواتاً مستعطفة لأنه عطشان. كان فرانز بعضلاته المفتولة يشبه أثناء الجماع جرواً ضخماً يرضع من ثدييها. وهذا صحيح، كانت حلمتها الآن في فمه وكأنه يهمّ بأن يرضع! كانت تفكر أنّ فرانز ناضج في الأسفل ورضيع في الأعلى، وأنها تضاجع رضيعاً، مما جعلها توشك أن تشعر بالتقزز. لا، هي لا تريد بعد اليوم أن تراه يتخبط بعنف فوقها ولن تمد له بعد الأن ثديها كما تفعل كلبة مع جروها. اليوم، هذه آخر مرة، إنها المرة الأخيرة التي لا رجعة فيها!

كان جلياً أنها تعرف أنّ قرارها ظلم خالص، وأنّ فرانز هو أفضل رجل عرفته. فهو ذكي ويفهم لوحاتها وطيّب وشريف ووسيم. ولكنها كانت كلّما وعَتْ هذه الصفات، تعنُف رغبتها في أن تنكث بهذا الذكاء وهذه الطيبة وهذه القوة الخرقاء.

ضاجعته في هذه الليلة بحمية أكثر توقداً من أي وقت مضى. كانت تستثيرها فكرة المرّة الأخيرة. كانت تضاجعه، محلّقة في مكان آخر بعيداً من هنا، كانت تسمع بوق الخيانة الذهبي صادحاً في البعيد، وكانت عارفة أنها غير قادرة على مقاومة هذا الصوت. بدا لها أن فضاء من الحرية ومتسعاً لا يزال مشرعاً أمامها، وأنّ اتساع هذه المسافة يثيرها. وفي هذه الأثناء، كانت تضاجع فرانز بجنون وبوحشية، كما لم تضاجعه من قبل.

كان فرانز يشهق فوق جسدها وهو متأكد من أنه فهم كل شيء: فسابينا كانت صامتة أثناء العشاء ولم تفصح له عن رأيها بقراره، ولكنها الآن تعطيه الجواب: ها هي تفصح له عن فرحتها وشغفها وموافقتها ورغبتها في أن تعيش معه إلى الأبد.

كان يرى نفسه فارساً يخيّل في فراغ رائع، في فراغ دون زوجة ولا

ولد ولا بيت. فراغ رائع كان كنّسه بمكنسة هرقل. فراغ رائع سيملأه بحبّه.

كان يمتطي أحدهما الآخر ويخيّلان باتجاه مسافات يحلمان بها. كان كلاهما منتشياً بخيانة سوف تحرّره. كان فرانز يمتطي سابينا ويخون زوجته، وسابينا تمتطي فرانز وتخون فرانز.

9

لعشرين سنة خلت، كان يرى أمه في زوجته أشبه بكائن ضعيف تجدر حمايته.. وهذه الفكرة كانت عميقة التجذر في كيانه بحيث لا يستطيع التخلص منها في يومين. كان الندم يتآكله عندما رجع إلى المنزل: ربَّما أصيبت بنوبة عصبية بعد رحيله، ربما سيجدها مثقلة بالأحزان. ثم أدار المفتاح داخل القفل بخجل وولج إلى غرفته. حرص ألاّ يحدث ضجة ثم أرهف السمع: نعم، كانت في البيت. بعد تردد قليل، ذهب ليقول لها صباح الخير كعادته.

رفعت حاجبيها وهي تصطنع الدهشة: «أرى أنك عدت إلى هنا؟».

رغب في أن يجيبها (بدهشة صادقة): «وأين تريدين أن أذهب؟»، ولكنه صمت.

ثم أضافت: «لكي يكون كل شيء واضحاً بيننا، لا أرى مانعاً في أن تقيم عندها منذ الآن».

عندما باح لها بكل شيء يوم رحيله، لم تكن لديه خطة معيّنة. كان على استعداد لدى عودته للتحدث إليها بمودة كلية حتى يقلّل ما أمكن من الأذيّة التي قد يسبّبها لها. لم يكن يعلم أنها ستصر بعناد بارد على أن يرحل.

شعر بأنه خائب، مع أنّ هذا التصرف كان يسهّل له الأمور. كان

حريصاً طوال حياته ألا يجرحها وبسبب هذا فقط، فرض على نفسه هذا الالتزام الطوعي بزواج أحادي يبلّد الذهن. وها إنه يستنتج الآن وفي نهاية العشرين سنة أن مراعاته كلها كانت غير مجدية، وأنه قد امتنع عن النساء بسبب سوء تفاهم!

ذهب تواً، بعد أن انتهى من المحاضرة في الجامعة في فترة بعد الظهر، إلى سابينا. كان في نيته أن يطلب منها السماح له بقضاء الليلة عندها. قرع الجرس، ولكن أحداً لم يفتح، فذهب لانتظارها في المقهى المقابل وعيناه مسمّرتان على مدخل البناية.

مرّت ساعات ولم يكن يدري ماذا يفعل. كان قد نام طوال حياته في سرير واحد إلى جوار ماري - كلود. لو رجع الآن، أيفترض به أن يتمدد قربها كما كان يفعل من قبل؟ يمكنه بالتأكيد أن ينام على الأريكة في الغرفة المجاورة. ولكن ألن يكون هذا التصرف استعراضياً جداً؟ ألن ترى زوجته فيه إفصاحاً عن العداء؟ كان على استعداد لأن يبقى صديقاً لزوجته! ولكن أن يذهب للنوم بجانبها فهذا أمر مستحيل. كان يسمع من الآن أسئلتها المستهزئة: كيف؟ ألا تفضل البقاء في سرير سابينا؟ فآثر عندها أن يقضي الليلة في أحد الفنادق.

رجع صباح اليوم التالي يدقّ على باب سابينا طوال النهار، ودائماً دون جدوى.

في اليوم الثالث ذهب يسأل الناطورة ولكنها لم تكن تعرف شيئاً، فأرسلته إلى مالكة المحترف. اتصل بها وعلم أن سابينا رحلت أول البارحة مسددة إيجار الأشهر الثلاثة المقبلة كما كان ينص عقد الإيجار.

حاول لأيام عدة أن يضبط سابينا في البيت، إلى أن وجد ذات يوم باب الشقة مفتوحاً. كان هناك ثلاثة رجال في ثياب زرقاء ينقلون الأثاث واللوحات ليضعوها في شاحنة كبيرة متوقفة أمام المنزل.

سألهم أين سينقلون الأثاث.

أجابوا أنه من المحظّر عليهم بتاتاً أن يُخبروا أحداً عن العنوان. كان يهمُّ بأن يدسّ في جيوبهم بعض الأوراق المالية ليكشفوا له عن السر، ولكنه وجد نفسه عاجزاً. كان الحزن يشلُّه تماماً فلا يفهم شيئاً ولا يستطيع أن يصرّح بما في باله. كان يعرف فقط أنه كان يتوقع حدوث هذه اللحظة مذ تعرّف إلى سابينا. وها قد حدث ما كان يجب أن يحدث. وفرانز لا يودّ الدفاع عن نفسه.

وجد شقة صغيرة في المدينة القديمة. ثم مرَّ بمنزله السابق، بعد أن تأكد من أن زوجته وماري - آن غير موجودتين هناك، وأخذ بعض الثياب والكتب الضرورية. ولكنه حرص ألا يحمل معه شيئاً يمكن أن يُسيء إلى ماري - كلود.

لمحها ذات يوم خلف زجاج صالة للشاي. كانت برفقة سيدتين. كان وجهها الذي حفرت فيه من زمان إيماءاتها المفرطة تجاعيد لا حصر لها، مفعماً بالحيوية. كانت السيدتان تستمعان إليها ولا تتوقفان عن الضحك. . لم يستطيع فرانز أن يمتنع عن التفكير بأنه هو موضوع حديثها. فمن المؤكد أنها عرفت أنّ سابينا اختفت من جنيف لحظة قرر الذهاب للعيش معها. إنها حكاية مُضحكة بالفعل! وهو لا يمكنه أن يُفاجأ والحالة هذه بأن يكون مَضْحكَةَ صديقات زوجته.

عاد إلى مسكنه الجديد حيث يستطيع أن يسمع جرس كاتدرائية مار بطرس. جرى تسليمه في هذا اليوم بالذات طاولة من أحد المخازن. فنسي عندها ماري - كلود وصديقاتها، ونسي لوهلة سابينا أيضاً. كان مسروراً من أنه اختار الطاولة بنفسه. منذ عشرين سنة وهو يعيش وسط أثاث لم يختره بنفسه. فماري - كلود كانت تهتم بهذه الأمور وحدها. ها إنه يتخلص من كونه صبياً صغيراً، للمرة الأولى، ليصير رجلاً ناضجاً. وفي اليوم التالي سيأتي النجّار فيوصيه على

المكتبة التي كان أمضى عدة أسابيع في تصميم شكلها وحجمها ومكانها.

يا للعجب، أدرك فجأة أنه لم يكن تعِساً. كان حضور سابينا الجسدي أقل أهمية مما تصوّر. فالأهم منه هو الأثر الذهبي، الأثر السحري الذي تركته في حياته والذي لا يستطيع أحد بعد اليوم حرمانه منه. كما وأنها قد تسنّى لها، قبل أن تختفي من أفقه، أن تدسّ في يده مكنسة هرقل فيكنّس بها من حياته كل ما لم يكن يحبه. إنّ هذه السعادة المباغتة وهذا الانشراح وهذه الغبطة التي تمده بها حريته وحياته الجديدة، هذا هو الحاضر الذي تركته له سابينا.

على أية حال، ألم يكن قد فضّل دائماً اللاواقعي على الواقعي. فكما أنه كان يشعر بالارتياح في المواكب، (والتي هي، كما قلت، ليست سوى مشهد أو حلم) أكثر مما يحس بذلك من وراء المنبر حيث يلقي المحاضرات. كذلك، أحسّ أنه أكثر سعادة مع سابينا المتحولة إلى إلـٰهة غير مرئية، ممّا كان مع سابينا عندما كانا يجولان العالم معاً وهو خائف على حبّه مع كل خطوة. ها قد منحته أُعطية الحرّية المباغتة للرجل الذي يعيش وحده، وزيّنته بهالة الإغراء. صارت النساء يجدنه جذّاباً وها إنّ إحدى طالباته تقع في غرامه.

وهكذا بغتة، وفي فترة وجيزة جدّاً، تبدّل ديكور حياته كله. كان يسكن في شقة بورجوازية كبيرة مع خادمة وابنة وزوجة. أما الآن فهو يجد نفسه في شقة صغيرة مفروشة في المدينة القديمة، وصديقته الشابة تأتي لقضاء الليل عنده كل مساء تقريباً! فهما ليسا بحاجة إلى الذهاب إلى فنادق العالم كله لكي يضاجعها، بل بإمكانه أن يفعل ذلك في شقته الخاصة وعلى سريره الخاص وبحضور كتبه ومنفضة سجائره الموضوعة على طاولة السرير.

لم تكن جميلة ولا قبيحة ولكنها أكثر فتوة منه بكثير. كانت معجبة

بفرانز كإعجاب فرانز بسابينا من قبل. ولم يكن الأمر غير ممتع. وإذا كان بإمكانه ربّما أن يعتبر استبداله سابينا بطالبة ترتدي نظّارات بمثابة انحطاط صغير، فإنّ طيبته مع ذلك، كانت تحرص على أن يستقبلها بسرور ويشعر حيالها بمحبة أبوية لم يستطع إشباعها من قبل. فماري - كلود لم تكن تتصرف على أنها ابنته بل على أنها ماري - كلود ثانية.

ذات يوم ذهب لرؤية زوجته وقال لها إنه راغب في الزواج من جديد.

هزّت ماري - كلود رأسها بإشارة النفي.

«ولكن إذا تطلّقنا، لن يتغير شيء ولن تخسري شيئاً. فسأترك لك كل شيء!».

قالت:

- المال لا أهمية له بالنسبة لي.

- ما الذي يهمك إذاً؟

- الحب.

قال فرانز متعجباً: الحب؟

أطلقت ماري - كلود ابتسامة: «الحب صراع وسأقاتل وقتاً طويلاً. حتى النهاية».

- «الحب صراع؟ ليست لي أدنى رغبة في القتال»، قال فرانز وخرج.

10

أمضت سابينا أربع سنوات في جنيف، ثم سكنت بعدها في باريس. ولكنها لم تتوصل قط لأن تَشفى من كآبتها. ولو أن أحداً سألها عما أصابها لما استطاعت أن تعبّر عن ذلك بكلمات.

يمكن اختصار مأساة حياة «باستعارة» الثقل. نقول مثلاً إن حملاً قد سقط فوق أكتافنا. فنحمل هذا الحمل. نحتمله أو لا نحتمله ونتصارع معه، وفي النهاية إما أن نخسر وإما أن نربح. ولكن ما الذي حدث مع سابينا بالضبط؟ لا شيء. افترقت عن رجل لأنها كانت راغبة في الافتراق عنه. هل لاحقها بعد ذلك؟ هل حاول الانتقام؟ لا. فمأساتها ليست مأساة الثقل إنما مأساة الخفة. والحمل الذي سقط فوقها لم يكن حملاً بل كان خفة الكائن التي لا تُحتَمل.

حتى الآن، كانت لحظات الخيانة تملأها نشوة وفرحاً خصوصاً لدى التفكير في أنّ طريقاً جديدة ستمتد أمامها، وأن في آخر هذا الطريق مغامرة خيانة جديدة. ولكن ما الذي سيحدث لو أنّ هذا السفر انتهى؟ يمكن لنا أن نخون أهلاً وزوجاً وحباً ووطناً، لكن ما الذي يتبقى حين لا يعود هناك أهل لنخونهم أو زوج أو حبّ أو وطن؟

كانت سابينا تشعر بالفراغ يحيط بها. أيكون هذا الفراغ بالذات هو الهدف من خياناتها مجتمعة؟

من البديهي أنها لا تعي هذه الحقيقة، وهذا شيء مفهوم: فالهدف الذي نلاحقه محجوب عنا دائماً.. حين ترغب فتاة شابة في الزواج فهي ترغب في شيء تجهله تماماً. والشاب الذي يركض وراء المجد لا يملك أدنى فكرة عن المجد. لذلك، فإنّ الشيء الذي يعطي معنى لتصرفاتنا شيء نجهله تماماً. سابينا أيضاً تجهل ما هو الهدف من رغبتها في الخيانة. أيكون الهدف منها الوصول إلى الخفة غير المحتملة للكائن؟ منذ رحيلها عن جنيف وهي تقترب أكثر فأكثر من هذا الهدف.

ثلاث سنوات مضت على إقامتها في باريس عندما تلقت رسالة من بوهيميا. رسالة من ابن توماس. كان قد سمعهم يتحدثون عنها فاستدلّ على عنوانها وقرر أن يكتب لها بصفتها «الصديقة المقرّبة جداً من أبيه». وأخبرها عن موت تيريزا وتوماس.. كان يقول في رسالته إنهما عاشا

سنواتهما الأخيرة في قرية حيث كان يعمل توماس سائق شاحنة. كانا يذهبان في أغلب الأحيان إلى المدينة المجاورة ويقضيان الليلة هناك في فندق صغير. كان في الطرقات تلال ومنعطفات كثيرة فسقطت الشاحنة في الوادي وعُثر على جثتيهما مهمشتين تماماً. واكتشفت الشرطة أن الفرامل كانت في حالة سيئة جدّاً.

هزّها هذا الخبر حتى أنها لم تتمالك نفسها، فهو الخيط الأخير الذي يربطها بالماضي، وقد انقطع.

تبعاً لعادتها القديمة، حاولت أن تخفف عن نفسها بالقيام في جولة إلى إحدى المقابر. كانت المقبرة الأقرب مقبرة مونبارناس. والمقبرة تتألف من بيوت حجرية هزيلة ومن مصلّيات منمنمة قائمة وسط القبور. لم تكن سابينا تفهم لماذا يرغب الموتى في أن يُقام فوقهم ما يُشبه القصور. هذه المقبرة هي الغرور ممثلاً في حجر. فبدل أن يكون سكان المقابر أكثر تعقلاً بعد موتهم، فإنهم أكثر حماقة مما كانوا وهم على قيد الحياة. كانوا يعرضون أهميتهم من خلال الأنصاب. لم يكن أولئك الراقدون هنا آباءً أو إخوة أو أبناء أو جدّات بل وجهاء وموظفين في الحكومة وأناساً ذوي ألقاب ورتب شرف. حتى إنّ أي موظفٍ في البريد كان يعرض أمام الملأ رتبته ودرجته ووضعه الاجتماعي - أي قيمته، بتفاخر.

لاحظت وهي تمشي في أحد ممرات المقبرة أنه كان يتم دفن أحدهم على بُعد قليل منها. كان رئيس التشريفات يحمل أزهاراً ملء ذراعيه ويوزعها على الأقارب والأصحاب: زهرة لكل واحد منهم. مدَّ زهرة لسابينا، فانضمت إلى موكب الجنازة. كان يجب الطواف حول أنصاب عدة للوصول إلى الحفرة التي نزعت عنها شاهدة القبر. انحنت فوقها. كانت الحفرة عميقة جداً. أفلتت الزهرة. رسمت الزهرة دوائر صغيرة ثم سقطت فوق النعش. لا توجد قبور بهذا العمق في بوهيميا.

فالقبور في باريس عميقة بقدر ما هي البيوت عالية. استرعى نظرها الحجر الذي ينتظر على حدة إلى جانب الحفرة فملأها هذا الحجر رعباً، فعادت مسرعة إلى البيت.

فكرت طوال النهار في هذا الحجر. لماذا يرعبها إلى هذا الحد؟

فكرت في هذا الجواب: «إذا كانوا يقفلون القبر بحجر، فهذا لئلا يتمكن الميت من الخروج أبداً».

ولكن في جميع الأحوال، لن يتمكن الميت من الخروج من قبره! أكان راقداً تحت التراب الصلصالي أم تحت حجر فالأمران سيّان!

لا، الأمران ليسا سيّان: إذا كنا نقفل القبر بحجر فهذا لأننا لا نرغب في رجوع الميت. الحجر الثقيل يقول له: «إبقَ حيث أنت!».

تذكرت سابينا قبر أبيها.. فوق النعش تراب صلصالي وفوق هذا التراب تنبت أزهار، كما وتمد شجرة قيقب جذورها إلى النعش. يمكن إذاً أن نتصور أنّ الميت يخرج من قبره عبر هذه الجذور وهذه الأزهار. فلو كان أبوها مغطى بحجر لما كانت تمكنت من التحدث إليه بعد موته. ولما أمكنها قط أن تسمع صوته وهو يغفر لها، عبر أوراق الأشجار.

لكن، ماذا يمكن أن يشبه القبر الذي يرقد فيه توماس وتيريزا؟

مرة أخرى عاودت التفكير فيهما. كانا يذهبان أحياناً إلى المدينة المجاورة ويقضيان الليل في فندق. هزّها هذا المقطع من الرسالة لأنه كان شاهداً على أنهما كانا سعيدين. كانت ترى ثانية توماس وكأنه طالع من إحدى لوحاتها: في المقدمة دون جوان مثل ديكور خادع مرسوم بيد رسام ساذج، ومن أحد شقوق هذا الديكور يلوح لنا تريستان. لكن توماس مات بصفته تريستان وليس بصفته دون جوان. والدا سابينا توفيا في الأسبوع نفسه، أما توماس وتيريزا ففي اللحظة ذاتها. شعرت فجأة برغبة في أن تكون مع فرانز.

عندما حدّثته عن نزهاتها إلى المقابر، أصيب بالغثيان وشبَّه المقابر بمزبلة من العظام والحجارة. في ذلك اليوم، امتدت بينهما هاوية من انعدام التفاهم.. ولكنها الآن فقط في مقبرة مونبارناس فهمت ما كان يعنيه، وشعرت بالأسف لأنها لم تكن صبورة. لو بقيا معاً فترة أطول، لربّما كانا شرعا شيئاً فشيئاً في فهم الكلمات التي ينطقان بها، ولربما أخذت مفرداتهما تقترب بحياء وبطء مثل عاشقيْن خجولين جدّاً. ولربما بدأت موسيقى كل منهما تنصهر في موسيقى الآخر. ولكن الأوان قد فات.

أجل، الأوان قد فات. وسابينا تعرف أنها لن تبقى في باريس بل ستذهب أبعد، أبعد بكثير. فهي لو ماتت هنا، سيقفلون القبر عليها بحجر. وهذه فكرة لا تحتمل بالنسبة لامرأة لا تعرف الراحة ولا تريد أن يوقفها أحد عن مسيرتها.

11

كان جميع أصدقاء فرانز على علم بما جرى له مع ماري - كلود، وعلى علم أيضاً بما يجري له مع طالبته صاحبة النظارة الكبيرة. لكن وحدها قصة سابينا بقيت خافية على الجميع. كان فرانز مخطئاً حين اعتقد أنّ ماري - كلود تتحدث عنه أمام صديقاتها. والسبب أنّ سابينا جميلة وماري - كلود لا ترغب في أن يقارن أحد بين وجهيهما.

لم يسبق له أن طلب منها لوحةً أو رسماً أو حتى صورة شخصية لخوفه من أن يُفتضح أمره. وبذلك، اختفت من حياته دون أن تترك أثراً. أمضى معها أجمل سنة في حياته ولكن لم يتبقَّ منها أي دليل محسوس.

كان يشعر برغبة متزايدة في أن يبقى مخلصاً لها.

حين يكونان وحدهما في الغرفة، ترفع صديقته الشابة أحياناً رأسها عن كتابها وتنظر إليه نظرة مستجوبة: «فيمَ تفكر؟»

فرانز جالس في الكنبة وعيناه مسمّرتان في السقف. ومهما يكن جوابه، فهو بالتأكيد يفكر في سابينا.

حين ينشر دراسة في مجلة علمية، تكون صديقته أول من يقرأها وترغب في مناقشته بخصوصها. أما هو فيفكر في ما ستقوله سابينا عن هذا البحث. فكل ما يفعله يفعله من أجل سابينا وبالطريقة التي ترضي سابينا.

إنها لخيانة بريئة جداً ومعدّة على مقاس فرانز الذي لا يقدر إطلاقاً على الإساءة إلى الطالبة صاحبة النظارة.

إذا كان يُنمّي عبادة سابينا فهذا دين أكثر منه حب. على أية حال، لقد جاء في لاهوت هذا الدين أن تُرسِل سابينا له عشيقته الشابة: فبيْن حبه الأرضي وحبه ما فوق الأرضي يسود وئام تام. وبالمقارنة مع حبه ما فوق الأرضي الذي يتضمن بالضرورة (بسبب أنه ما فوق أرضي) جانباً كبيراً من الغموض والاستغلاق (فلنتذكر بهذا الخصوص معجم الكلمات غير المفهومة، وتلك اللائحة الطويلة من تباين وجهات النظر!) فإنّ حبه الأرضي يستند إلى تفاهم حقيقي.

الطالبة أكثر فتوّة بكثير من سابينا، ومقطوعة موسيقى حياتها لا تزال في أوّلها، وهي تُدخل فيها كل اللوازم الموسيقية التي استعارتها من فرانز، ويعرفان جميل. فكما أنّ مسيرة فرانز الكبرى نقطة جوهرية في إيمانها، كذلك الموسيقى بالنسبة له نشوة ديونيسية. وهما يذهبان مراراً إلى الرقص، يعيشان في الحقيقة ولا شيء مما يفعلانه خافٍ على أحد. وهما يسعيان لاكتساب ودّ الأصدقاء والزملاء والطلاب والمجهولين فيجالسانهم ويشربان ويثرثران معهم بمودة كلية. كما

يذهبان معاً مرات عديدة في نزهات إلى جبال الألب. ينحني فرانز إلى الأمام فتقفز الفتاة فوق ظهره ويجري بها عبر الحقول ملقياً بصوت عالٍ قصيدة ألمانية طويلة كانت أمه قد علّمته إياها عندما كان صغيراً. تنفجر عندئذ الحبيبة بالضحك وتتعلّق برقبته مبدية إعجابها بعضلاته وكتفيه ورئتيه.

لكن الشيء الوحيد الذي لا يفهمه هو هذا التعاطف الخاص، الذي يغذّيه فرانز في داخله، مع جميع البلدان الرازحة تحت وطأة روسيا. في الذكرى السنوية للاجتياح الروسي، نظمت مجموعة تشيكية احتفالاً بالمناسبة. كان هناك قليل من الناس في الصالة. وكان الخطيب رمادي الشعر وقد جعّده عند المزيّن. كان يقرأ خطاباً طويلاً وينجح في أن يجعل الخونة المتحمسين الآتين إلى سماعه يضجرون. يتكلم الفرنسية دون خطأ ولكن بلكنة شنيعة. وهو من وقت لآخر يشهر سبّابته ليؤكد على فكرته، كما لو أنه يريد تهديد الناس الجالسين في الصالة.

الطالبة صاحبة النظارة جالسة إلى جانب فرانز وهي تكتم تثاؤباً. فيما فرانز يتبسم بطريقة بلهاء. عيناه شاخصتان إلى الرجل ذي الشعر الرمادي والذي يجده لطيفاً بسبّابته العجيبة. يقول في نفسه إنّ هذا الرجل وسيط سري، ملاك ينقل الرسائل بينه وبين إلـٰهته. فيغمض عينيه ويحلم. ويغمض عينيه كما أغمضهما في السابق على جسد سابينا في خمسة عشر فندقاً في أوروبا وفي فندق في أميركا.

القسم الرابع

الروح والجسد

1

رجعت تيريزا إلى البيت نحو الساعة الواحدة والنصف صباحاً، فتوجهت إلى غرفة الحمام، ثم ارتدت البيجاما وارتمت على السرير إلى جانب توماس. كان نائماً، انحنت فوق وجهه، وعندما وضعت شفتيها اشتمت من شعره رائحة غريبة. فدسّت منخريها هناك طويلاً، تستنشقه مثل كلب. وفهمت أخيراً: إنها رائحة أنثوية، رائحة فرج امرأة.

عند الساعة السادسة، رنّ المنبّه. كان هذا وقت كارنينا. فهي تصحو دائماً قبلهما بوقت طويل من غير أن تجرؤ على إزعاجهما. كانت تنتظر بصبر رنين المنبّه الذي يعطيها الحق في أن تقفز على السرير لتركل جسديهما وتداعبهما بخطمها.. حاولا في البداية أن يمنعاها من ذلك فطرداها عن السرير، لكن الكلبة كانت أكثر عناداً من صاحبيها وفرضت في النهاية حقوقها. على أية حال، لاحظت تيريزا مؤخراً أنّ دعوة كارنينا لافتتاح النهار، أمر ممتع. أما لحظة الاستيقاظ بالنسبة لكارنينا فسعادة خالصة: فهي تتعجب بسذاجة بلهاء من أنها لا تزال في هذا العالم فتُسر لذلك صراحةً. أما تيريزا فتستيقظ غصباً عنها راغبة في إطالة الليل، وفي ألاّ تفتح عينيها.

الآن، كانت كارنينا تنتظر في المدخل وعيناها تنظران إلى المشجب حيث كان طوقها ومقودها معلقين. وضعت تيريزا الطوق حول رقبتها، وذهبتا لشراء الحاجيات. اشترت حليباً وخبزاً وزبدة وكالعادة فطيرة لكارنينا. في طريق العودة، كانت كارنينا تتقافز حولها والفطيرة في فمها. لا شك في أنها كانت تنظر حولها بفخر وسرور لأنها تلفت انتباه الآخرين فيشيرون إليها بالبنان.

في البيت، بقيت مترقبة عند عتبة الغرفة والفطيرة في فمها، انتظرت أن يلاحظ توماس وجودها فيقرفص بادئاً بالنباح ومتظاهراً بأنه سيأخذ الفطيرة منها. كان هذا المشهد يتكرر يومياً: كانا يلاحقان بعضهما عبر الشقة لمدة خمس دقائق، إلى أن تختبئ كارنينا تحت الطاولة وتلتهم بلمح البصر فطيرتها.

ولكنها عبثاً انتظرت هذه المرة الاحتفال الصباحي. كان هناك جهاز ترانزستور موضوعاً على الطاولة، وتوماس يستمع.

2

كان الراديو يبث برنامجاً خاصاً بالمهاجرين التشيكيين. وهو يجمع أحاديث خاصة مسموعة بطريقة سرية ومسجلة من قبل جاسوس اندسَّ بين المهاجرين ليرجع إلى بلاده ويزعق بها هناك. كان البرنامج يتضمن ثرثرات تافهة مطعّمة من وقت لآخر بكلمات نابية عن النظام المحتل. ويتضمّن أيضاً جملاً يتناوب فيها المهاجرون وصفَ بعضهم بعضاً بأنهم أغبياء ومخادعون. كان البرنامج يشدد على هذه المقاطع بالذات. لأنه كان يجب الإثبات أن أولئك الناس يتكلمون بالسوء ليس عن الاتحاد السوفياتي فحسب (فهذا الأمر لا يستنكره أحد من سكان بوهيميا) بل يتبادلون أيضاً النمائم دون تردد ويشبعون بعضهم بعضاً شتماً. إنه لأمر غريب أننا نسمع الكلمات البذيئة من الصباح حتى المساء، ولكن يكفي

أن نسمع عبر الراديو شخصية معروفة ومحترمة توقّع جملها بكلمات مثل «إنهم يجعلونني أتغوّط»، فنشعر بالخيبة رغماً عنا.

«ها إنهم يستهلّون البثّ ببروخازكا!»، قال توماس دون أن يتوقف عن الإصغاء.

كان يان بروخازكا روائياً تشيكياً في الأربعين من عمره ويفيض بحيوية ثور. بدأ بانتقاد الوضع في بلاده جهاراً قبل عام 1968 بوقت طويل. كان أحد رجال ربيع براغ الأكثر شعبية. ربيع براغ، ذلك التحرير المدوّخ من الشيوعية الذي انتهى بالاجتياح الروسي. بعد الاجتياح بقليل، أخذت الصحف تزعق كلها صيحة الهجوم على الطريدة، ولكن كلّما كان بروخازكا محاصراً، كان حب الناس له يزداد. كان الراديو (كنا في سنة 1970) يستهل إذاً على شكل حلقات بثّ أحاديث خاصة لبروخازكا، كان قد أجراها قبل سنتين (أي في ربيع 1968) مع أستاذ جامعي. لم يكن أي من الرجلين يشكّ في أن جهازاً للتنصّت قد أُخفي في شقة الأستاذ، وأنه يتمّ التجسس منذ زمن بعيد على أدنى حركة يقومون بها. كان بروخازكا يسلّي أصدقاءه دائماً بمبالغاته وشتائمه. وها قد صار في الإمكان سماع هذه الشتائم في سلسلة حلقات عبر الإذاعة. عُنِيَت الشرطة السرية، التي نسّقت مقاطع هذا البرنامج، بالتشديد على المقطع الذي يسخر فيه الروائي من أصدقائه، من دوبتشك مثلاً. وبالرغم من أن الناس لا يفوّتون فرصة إلا يشتمون فيها أصدقاءهم، فإنهم مع ذلك كانوا ساخطين على بروخازكا الذي يعبدونه أكثر مما كانوا ساخطين على الشرطة السرية التي يكرهونها!

أطفأ توماس الراديو وقال: «هناك شرطة سرية في جميع أنحاء العالم. ولكنها فقط في بلادنا تبثّ تسجيلاتها عبر الإذاعة! شيء عجيب!».

قالت تيريزا: «ليس إلى الحد الذي تتصور! عندما كنت في الرابعة عشرة من عمري، كنت أكتب يومياتي. وكنت أخاف من أن يقرأها أحد، فخبّأتها في العليّة، إلى أن عثرت عليها أمي في النهاية. وذات يوم، حين كنا نحتسي الشورباء أثناء الغداء، أخرجَتْها من جيبها وقالت: «اسمعوني جيداً كلكم!» ثم أخذت تقرأ بصوت عالٍ، وعند كل جملة تتلوى من فرط الضحك. وقهقه معها الجميع ناسين متابعة الأكل».

3

كان يحاول دائماً إقناعها في أن تتركه يتناول إفطاره بمفرده، وأن تبقى نائمة، ولكنها كانت تعارض. فتوماس كان يعمل من الساعة السابعة حتى الرابعة، وهي من الساعة الرابعة حتى منتصف الليل. وإذا لم يتناولا الإفطار معاً، فمعنى هذا أنهما لن يستطيعا التحادث حتى يوم الأحد. كانت تنهض إذاً حين ينهض، ثم حين يذهب تعود لتندسّ في السرير وتغفو.

ولكنها كانت خائفة، في ذلك النهار بالذات، من أن تعود للنوم ثانية، فهي تريد الذهاب عند الساعة العاشرة إلى حمامات السونا في جزيرة صوفيا. كان هناك الكثير من الهواة والقليل من الأمكنة، ولم يكن في المستطاع الحصول على مكان إلاّ بفضل توصية. لحسن الحظ، كانت أمينة الصندوق زوجة أستاذ مطرود من الجامعة، والأستاذ صديق لمريض قديم عند توماس. تكلّم توماس مع المريض ثم تكلّم المريض مع الأستاذ، والأستاذ مع زوجته فحصلت تيريزا أخيراً على مكان محجوز لها مرة في الأسبوع.

ذهبت سيراً على الأقدام تحاشياً للقطارات المزدحمة دوماً حيث يتدافع الناس ملتصقين بعضهم ببعض بعدائيّة، ويدوس بعضهم أقدام

بعض ويتنازعون أزرار المعاطف ويتبادلون الشتائم.

كانت السماء تمطر رذاذاً. فأخذ المارّة يسرعون الخطى رافعين فوق رؤوسهم مظلاتهم المفتوحة. وفجأة بدأوا يتدافعون على الأرصفة. كانت قبب المظلات تتصادم. كان الرجال مؤدّبين لدى مرورهم قرب تيريزا فيرفعون مظلاتهم عالياً ليفسحوا لها المجال. أما النساء فلم يكنّ يتنحين قيد أنملة. بل كنّ ينظرن أمامهن بوجوه قاسية، وينتظرن أن تعترف كل واحدة منهن للأخرى بأنها الأضعف فترضخ. كان لقاء المظلات يتحول إلى امتحان للقوى. في أول الأمر، كانت تيريزا تحيد عن الطريق، ولكن حين فهمت أنّ أدبها لم يكن يقابل بالمثل، تسلّحت بمظلتها مثل الأخريات. مرات عديدة اصطدمت مظلتها بعنف بمظلة قادمة في اتجاهها ولكن أيّاً من النساء لم تكن تعتذر. كان يجري كل ذلك وسط الصمت. لمرتين أو ثلاث، سمعت فقط: «عاهرة!» أو «تْفِهْ!».

كان هناك بين النساء المسلحات بالمظلاّت صبايا وناضجات، ولكن الصبايا كنّ الأكثر ضراوة في القتال. كانت تيريزا تتذكر أيام الاجتياح، حين كانت الفتيات يرتدين تنانير قصيرة ويرحن ويجئن رافعات علم بلادهن على عصيّ. كان تصرّفهن هذا أشبه بمداهمة جنسية للجنود الروس المجهزين لعدة سنوات من العفّة. لا بدَّ أنهم كانوا يخالون أنفسهم في براغ موجودين على كوكب اخترعه كاتب خيال علمي، على كوكب مسكون بنساء أنيقات فوق العادة ويعبّرن عن احتقارهن عارضات سيقاناً طويلة رشيقة لم تشهد روسيا بأكملها لها مثيلاً منذ ما يربو على خمسة أو ستة قرون.

خلال تلك الأيام، التقطت صوراً لا تُحصى لهؤلاء النساء الشابات، على خلفية من الدبابات. كم كانت معجبة بهن آنذاك! ولكنها اليوم، ترى هؤلاء النساء بالذات يتقدمن للقائها مشاكسات

وشريرات. كن يرفعن مظلة بدل العلم ويحملنها بالتفاخر نفسه. كنّ على استعداد لأن يجابهن جيشاً أجنبياً والمظلة التي ترفض الإفساح للمرور، بالضراوة ذاتها.

4

بلغت ساحة «المدينة القديمة» حيث تنتصب كاتدرائية «ثيْن» الصارمة والبيوت الباروكية المنتظمة في مربعات غير متساوية. كان فندق المدينة، الذي يعود إلى القرن الرابع عشر والذي كان يحتل في الماضي قسماً كبيراً من الساحة، متهدماً منذ سبعة وعشرين عاماً. إن فرصوفيا (وارسو) ودريسد وكولونيا وبودابست وبرلين، كل هذه المدن تغيّرت معالمها بشكل مريع أثناء الحرب الأخيرة، ولكن سكانها أعادوا بناءها وترميم الأحياء التاريخية بشغف وعناية فائقة. كانت هذه المدن تثير في سكان براغ عُقَد نقص. فالمبنى التاريخي الوحيد الذي هدمته الحرب في مدينتهم هو فندق المدينة القديم هذا. لذلك قرروا الاحتفاظ إلى الأبد بأنقاضه خائفين من أن يلومهم أي بولوني أو ألماني على أنهم لم يعانوا بما فيه الكفاية. أمام هذه الخِرَب الشهيرة التي يُفترض بها أن تبقى إلى الأبد شاهد اتهام ضد الحرب، كانت ترتفع منصة مصنوعة من العوارض الحديدية ومبنية من أجل التظاهرة التي اقتاد إليها الحزب الشيوعي في الأمس شعب براغ أو سيقتاده غداً.

كانت تيريزا تنظر إلى فندق المدينة المتهدم فذكّرها هذا المشهد فجأة بأمها: رغبتها الشاذة في أن تعرض أنقاضها على الملأ وفي أن تتباهى بقباحتها وتلوّح ببؤسها وتكشف عن جدعة يدها المبتورة وتجبر الجميع على النظر إليها. . كان كل شيء في هذه الأيام الأخيرة يذكّرها بأمها، فكأنّ العالم الأمومي الذي أفلتت منه قبل عشرات السنين يلحق بها ويطوّقها من جميع الجهات. من أجل هذا تحدثت أثناء الإفطار عن

أمها التي قرأت يومياتها للعائلة فانفجرت الأخيرة بالضحك رغماً عنها. كذلك، حين يُذاع حديث بين الأصحاب أمام كأس نبيذ على الملأ عبر الراديو، فهذا لا يعني إلاّ شيئاً واحداً: العالم يتحول إلى معسكر اعتقال.

كانت تيريزا تستعمل هذه العبارة منذ طفولتها لتعبّر عمّا كانت تعني لها الحياة بين العائلة. فمعسكر الاعتقال هو عالم حيث نعيش باستمرار الواحد فوق الآخر، ليلاً ونهاراً. أما أعمال القساوة والعنف فترتدي طابعاً ثانوياً (وغير ضروري البتّة). ذلك أن معسكر الاعتقال هو التصفية النهائية للحياة الخاصة. فبروخازكا، الذي لم يكن في مأمن حتى وهو في بيته يتحدث إلى صديقه أمام كأس من النبيذ، كان يعيش (من غير أن يرتاب للأمر وهنا يكمن خطؤه الفادح!) في معسكر اعتقال. وتيريزا أيضاً كانت تعيش في معسكر اعتقال عندما كانت تقيم عند أمها. وهي منذ ذلك الحين تعرف أن معسكر الاعتقال ليس شيئاً استثنائياً ولا يفترض به أن يفاجئنا، إنما هو معطى بديهي وأساسي، إنه شيء نأتي معه إلى العالم دون أن نتمكن من التخلص منه، إلاّ إذا استعنّا بالحد الأقصى من قوانا كلها.

5

كانت النساء جالسات على ثلاثة مقاعد متدرجة وهنّ ملتصقات بعضنّ ببعض إلى حد التلامس. ثمة امرأة في الثلاثين من عمرها، جميلة الوجه جدّاً، كانت تتصبب عرقاً إلى جانب تيريزا. كان ثدياها الضخمان الهائلان يتدليان من أسفل كتفيها ويهتزان لدى أدنى حركة تقوم بها. عندما نهضت، لاحظت تيريزا أن ردفيها أيضاً كانا شبيهين بخرجين ضخمين ولا علاقة لهما بوجهها.

ربما هذه المرأة أيضاً تقضي ساعات طوالاً أمام المرآة وهي تتأمل

جسدها محاولة أن ترى روحها تشف من خلاله، كما تحاول تيريزا منذ الطفولة.. من المؤكد أنها هي أيضاً اعتقدت في الماضي، لحماقتها، أن جسدها يمكن أن يكون شعار النسب لروحها. ولكن كم ستكون مرعبة تلك الروح التي تشبه مشجباً بأربعة جيوب؟

نهضت تيريزا لتغتسل تحت الدوش. ثم خرجت لتتنشَّق الهواء. كانت لا تزال تمطر رذاذاً.. كانت على طوف تجسير مرميّ على بُعد بضعة أمتار مربعة من نهر القلتاڤا، خلف ألواح خشبية عالية تحجب السيدات عن أبصار المدينة. عندما حنت رأسها، رأت فوق صفحة الماء، وجه المرأة التي كانت تفكر فيها منذ قليل.

كانت المرأة تبتسم لها. كان أنفها دقيقاً وعيناها كستنائيتين واسعتين ونظراتها طفولية.

كانت ترتقي السلّم فظهر تحت وجهها العذب خرجان كانا يرتجان ويرشان حولهما قطرات ماء باردة.

6

ذهبت لارتداء ثيابها. كانت أمام مرآة كبيرة.

لا، جسدها ليس مخيفاً. فهي لا تملك خرجين في أسفل كتفيها، بل ثديين منمنمين. كانت أمها تسخر منها لأنّ ثدييها لم يكونا كبيرين بما فيه الكفاية، لم يكونا كما يجب، مما سبّب لها عُقَداً لم تتخلص منها إلاّ بفضل توماس. الآن، يمكنها القبول بحجمهما ولكنها تأخذ عليهما لُعوتهما(*) الكبيرة والداكنة جداً حول الحلمة. فلو أُتيح لها أن تخط بنفسها رسم جسدها كاملاً، لكانت جعلت حلمتيها مرهفتين وغير لافتتين للنظر ولا تكادان تبرزان من قبة نهديها. ولونهما بالكاد سيكون

(*) السواد حول حلمة الثدي.

متمايزاً عن لون بشرتها.. إذ يخيَّل إليها أنّ هذه الدريئة الحمراء الكبيرة الداكنة هي من صنعَ رسام ريفي يرسم صوراً فاحشة لمحرومين.

كانت تتفحص جسدها متسائلة عما سيحدث فيما لو طال أنفها ميلّمتراً في كل يوم؟ كم سيستغرق الوقت حتى يصبح وجهها غير معروف؟

وماذا لو شرع كل جزء من جسدها في الكبر أو في الصِغَر إلى درجة يفقده معها كل شبه بتيريزا، هل ستظل هي نفسها؟ هل ستبقى تيريزا؟

بالتأكيد. فحتى لو افترضنا أنّ تيريزا لم تعد تشبه تيريزا بشيء، فإنّ روحها في الداخل ستبقى مع ذلك هي هي دائماً وليس بإمكانها إلاّ أن تتأمل برعب ما يحدث للجسد.

لكن عندئذ، أيّ صلة تعود تربط تيريزا بجسدها؟ هل سيكون لجسدها حق ما في اسم تيريزا؟ وإذا لم يكن له هذا الحق، فإلى من يُنسب إذاً هذا الاسم؟ إلى مجرد شيء غير جسدي وغير مادي.

(هذه الأسئلة ذاتها التي تجول في رأس تيريزا منذ الصغر. ذلك لأنّ الأسئلة الهامة حقاً هي تلك التي يصوغها طفل. وحدها الأسئلة الساذجة هي الأسئلة الهامة فعلاً. تلك الأسئلة التي تبقى دون جواب. إنّ سؤالاً دون جواب حاجز لا طرقات بعده. وبطريقة أخرى: الأسئلة التي تبقى دون جواب هي التي تشير إلى حدود الإمكانات الإنسانية، وهي التي ترسم حدود وجودنا).

تيريزا جامدة ومفتونة أمام المرآة، تنظر إلى جسدها وكأنه غريب عنها ومُقَرّر مع ذلك لها هي دون غيرها. وهو يُنفّرها إذ لا يملك القدرة على أن يصير الجسد الوحيد في حياة توماس. لقد خيّبها هذا الجسد وخانها. ليلةً بكاملها، أُكرهت على أن تشتمّ عبر شعر توماس رائحة حميمة لامرأة أخرى.

شعرت فجأة برغبة في أن تصرف هذا الجسد كما يصرف المرء خادمه، في ألا تكون مع توماس إلاّ بالروح، وأن تطرد الجسد بعيداً كي يتصرف كما تتصرف سائر الأجساد الذكورية! بما أنّ جسدها غير قادر على أن يصير الجسد الوحيد لتوماس، وبما أنه خسر بالتالي المعركة الكبرى في حياة تيريزا، إذاً! فليذهب بعيداً هذا الجسد!.

7

رجعتْ إلى المنزل ثم تناولت غداءها واقفة في المطبخ دون شهية. نحو الساعة الثالثة والنصف، وضعت الرَّسَن لكارنينا وتوجهت نحو الفندق الموجود في حي من الضواحي حيث تعمل. عندما سرّحوها من عملها في المجلة، وجدت لها عملاً آخر، ساقية في حانة، حدث ذلك بعد رجوعها من زوريخ بأشهر قليلة. والسبب أنهم لم يغفروا لها قيامها بالتقاط صور للدبابات الروسية خلال الأيام السبعة. حظيت بوظيفتها الجديدة بمساعدة بعض الأصدقاء وهم أشخاص كانوا قد خسروا عملهم في الوقت نفسه فالتجأوا إلى الحانة مثلها. كان هناك عند صندوق المحاسبة أستاذ سابق في اللاهوت، وفي غرفة الاستقبال سفير سابق.

كانت تشعر بالخوف من جديد على ساقيها. حين كانت تعمل في السابق كخادمة مقهى في الريف، كانت ترتعب لمرأى بطّات سيقان زميلاتها المكسوّة بالدوالي. كان هذا المرض يصيب جميع الفتيات اللواتي يمضين حياتهن ماشيات أو راكضات أو واقفات وفي أيديهن أحمال ثقيلة. أما العمل هنا فكان أقل إجهاداً من عملها السابق في الريف. قبل شروعها في الخدمة، كان يتعيَّن عليها أن تحمل بضعة صناديق ثقيلة من البيرة والمياة المعدنية. ولكنَّها كانت تقضي بقية الوقت واقفة وراء طاولة الشرب تسكب الكحول للزبائن، أو تنظّف بين

الحين والآخر الأقداح في مجلى صغير موجود عند طرف الحانة. وكانت كارنينا تبقى مضطجعة بأناة عند قدميها طوال وقت الخدمة.

كان قد حلَّ منتصف الليل عندما أنهت حساباتها وأخذت المال إلى مدير الفندق. ثم ذهبت لتودّع السفير الذي كان يخدم أثناء الليل. كان هناك خلف طاولة الشرب الطويلة في غرفة الاستقبال باب يؤدي إلى غرفة صغيرة حيث يمكن للمرء أن يغفو على فراش صغير. كانت على الجدران صورة داخل برواز: حيث نرى السفير دائماً وسط أناس يبتسمون للكاميرا، أو يصافحونه، أو يجلسون قربه ليوقّعوا على شيء ما. وفي صورة موضوعة في الواجهة، نرى قرب وجهه وجه جون ف. كينيدي وهو يبتسم.

لم يكن يتحدث هذا المساء إلى رئيس الولايات المتحدة، بل إلى رجل ستّينيّ مجهول التزم الصمت فجأة لدى رؤيته تيريزا.

قال السفير: «هذه صديقة. يمكنك أن تتكلم وأنت مطمئن البال». ثم التفت إلى تيريزا قائلاً: «حكموا على ابنه، هذا اليوم تحديداً، بالسجن لخمس سنوات».

أُخبرت بأنّ الرجل الستينيّ كان خلال أيام الاجتياح يراقب بمعية أصدقاء له مدخل أحد المباني التي تمركزت أمامها وحدة تابعة للجيش الروسي. ممّا لا شكَّ فيه أنّ التشيكيين الذين كانوا يخرجون من المبنى، مخبرون لصالح الروس. كان يتعقبهم مع زملائه ويسجل أرقام لوحات سيارتهم ويعطيها لمحرري محطة تشيكيّة سرية كانت تعمل على إنذار الشعب. وقد حدث له أن ضرب أحدهم بمساعدة أصدقائه.

كان الرجل الستينيّ يقول: «استطاع إنكار كل التهم إلى أن أروه هذه الصورة. فهذه الصورة هي وحدها الدليل الحسّي».

ثم أخرج من جيب سترته قُصاصة من إحدى الصحف وقال: «نُشرت هذه الصورة في جريدة التايمز في خريف 1968».

كان هناك في الصورة شاب يمسك شخصاً من عنقه وحوله أناس يراقبون. وكُتب في أسفل الصورة: عقاب لمتعاون مع العدو.

أحسّت تيريزا بحمل ينزاح عنها. لا، لم تكن هي التي التقطت هذه الصورة.

رجعت إلى بيتها مع كارنينا عبر شوارع براغ السوداء. كانت تفكر في الأيام التي التقطت فيها صوراً للدبابات: لَكَم كانوا سذجاً كلهم! كانوا يعتقدون أنهم يخاطرون بحياتهم من أجل وطنهم، فيما هم كانوا يعملون، على غير علم منهم، للشرطة الروسية.

وصلت إلى البيت في الساعة الواحدة والنصف. كان توماس نائماً منذ وقت طويل. ومِن شَعره كانت تفوح رائحة أنثوية، رائحة فرْج.

8

ما هو الإغراء؟ يمكننا أن نقول بأنه تصرّف يلمّح إلى أنّ المقاربة الجنسية ممكنة، ولكن من دون أن يجعل هذه الإمكانية تبدو على أنها يقين. وبكلمة أخرى: الإغراء هو وعد غير مضمون بالجماع.

ها إنّ تيريزا واقفة وراء طاولة تقديم الشراب، والزبائن الذين تقدم لهم الشراب يتغزلون بها. أوَتجدُ هذا السيل المتدفق من عبارات الإطراء والكلمات المبطنة والنكات الفاحشة والدعوات والابتسامات والنظرات، أمراً مستكرهاً؟ لا، إطلاقاً. بل تشعر برغبة لا تقاوم في منح جسدها، (هذا الجسد الغريب الذي تودّ لو تطرده بعيداً) منحه لارتداد الأمواج هذا.

يحاول توماس إقناعها دون توقف بأنّ الحب والجنس عالمان مختلفان. وهي كانت ترفض القبول بذلك. ها هي الآن مُحاطة برجال لا يثيرون فيها أي إعجاب. تُرى ماذا سيؤثر فيها لو أنها تضاجعهم؟

إنها تشعر برغبة في المحاولة حتى وإن كان هذا تحت شكل الوعد غير المضمون الذي هو الإغراء.

يجب ألاّ نسيء فهم الأمر: هي لا تفتش عن الانتقام من توماس وإنما تفتش عن منفذ للخروج من المتاهة. وهي تعرف أنها حمل ثقيل عليه لأنها تأخذ الأمور كثيراً على محمل الجدّ وتحوّل كل شيء إلى مأساة، ولا تتوصل إلى فهم خفة العلاقات الجنسية وتفاهتها السعيدة. كانت تودّ أن تتعلم الخفة! كانت تودّ لو أنّ أحداً يعلّمها كيف لا تكون «مبطلة الوعد!».

إذا كان الإغراء بالنسبة للنساء الأخريات طبيعة ثانية وروتيناً دون معنى، فإنه بالنسبة لها حقل تجارب هام يجعلها تكتشف ما هي قادرة عليه. ولكن بما أنها تولي الإغراء أهمية وجدية كبيرتين، فإنه يفقد عندئذ كل خفة ليصير متكلفاً ومصطنعاً ومفرطاً. فيصير التوازن بين الإيحاء وغياب الضمانة مفقوداً (في هذا التوازن بالذات تكمن البراعة الحقيقية في فن الإغراء!) فهي تتسرّع حين تَعِدُ من غير أن تظهر بوضوح أنّ وعدها هذا لا يُلزمها بشيء. وبكلام آخر، الجميع يعتبرونها سهلة المنال جدّاً. ثم إنّ الرجال عندما يسعون وراء إكمال ما كانت أوحت لهم به، يصطدمون بمقاومة مفاجئة لا يمكنهم تفسيرها إلاّ بكونها نابعة من فظاظة تيريزا المُرْهَفَة.

9

جلس مراهق في السادسة عشرة من عمره على مقعد فارغ أمام طاولة الشرب. ثم أخذ يتفوّه بجمل مثيرة تنزل في الحديث كما ينزل خط مغلوط في الرسم فلا يمكن متابعته ولا محوه.

قال لها: «ساقاكِ جميلتان».

فقالت معترِضة: «كما لو أنك تراهما عبر خشب طاولة الشرب!».

وأوضح الفتى: «ولكني أعرفك. أراقبك في الشارع».

غير أن تيريزا ابتعدت للاهتمام بزبائن آخرين. طلب منها كأس كونياك فرفضت.

فاعترض المراهق: «ولكني أتممت لتوّي الثامنة عشرة».

- أرني إذاً بطاقتك الشخصية.

فردّ المراهق:

- هذا غير وارد.

- حسناً! خُذْ ليموناضة!».

ثم، دون أن ينبس بكلمة، نهض عن مقعده وخرج. ثم رجع بعد زهاء نصف ساعة للجلوس أمام طاولة الشرب. أخذ يومئ بحركات كثيرة ورائحة الكحول تفوح من فمه عن بعد ثلاثة أمتار.

- «ليموناضة!»

قالت:

- «أنت ثمل!».

أشار المراهق إلى لوحة معلقة على الحائط خلف تيريزا، كُتب عليها: يُمنع منعاً باتاً تقديم مشروبات كحولية لمن هم دون الثامنة عشرة.

ثم قال وهو يشير إلى تيريزا بحركة موحية من يده: «يُحظر عليك أن تقدمي لي الكحول، ولكنه لم يُكتب في أيّ مكان أنه لا يحق لي أن أسكر».

- «أين فعلت بنفسك هذا؟» سألت تيريزا.

- «في الحانة المواجهة». ثم أطلق ضحكة طويلة، وطلب من جديد ليموناضة.

- ولماذا لم تبق هناك إذاً؟

قال المراهق: «لأنني أريد أن أنظر إليك. أحبك».

حين تفوّه بذلك، انقبض وجهه بشكل غريب. لم تكن تفهم: أهو يهزأ بها؟ أم يمهّد لصداقتها؟ هل في الأمر ألعوبة ما؟ أم أنه ببساطة كان سكران ولا يعرف ماذا يقول؟

وضعت كوب الليموناضة أمامه، ثم ذهبت للاهتمام بزبائن آخرين. يبدو أنّ كلمة «أحبك» قد أنهكت المراهق، لأنه لم يقل شيئاً بعدها. بل وضع دون ضجة المال على الطاولة وانسحب دون أن تلاحظ تيريزا.

ما إن خرج حتى بادر بالكلام رجل أصلع قصير كان يتناول كأسه الثالثة: «يا سيدة، تعرفين أنه لا يحق لك تقديم الكحول لمن هم دون السن؟».

- ولكني لم أُقدم له كحولاً! أخذ كوباً من الليموناضة!

- رأيت جيداً ماذا سكبت له في الليموناضة!

- «ماذا تقول!» هتفت تيريزا.

فأمرها الأصلع: «كأس فودكا أخرى»، ثم أضاف: «منذ فترة طويلة وأنا أراقبك».

عندئذ تدخّل رجل طويل القامة كان اقترب من طاولة الشرب ورأى المشهد بكامله:

- حسناً! اعتبرْ نفسك محظوظاً لأنه يتسنّى لك النظر إلى سيدة جميلة واقفل فمك!

فصرخ الأصلع: «أنت ما دخلك في هذا الأمر! هذا شيء لا يعنيك!».

فسأل الرجل العملاق: «وهل تستطيع أن تشرح لي ما دخلك أنت في هذا؟».

قدّمت تيريزا كأس الفودكا التي كان الأصلع قد طلبها. فشربها دفعة واحدة، ثم دفع الحساب وخرج.

قالت تيريزا للرجل الطويل القامة: «أشكرك».

فقال الرجل الطويل: «ليس هناك ما يستوجب الشكر»، ثم خرج بدوره.

10

بعد أيام قليلة ظَهَر في الحانة من جديد. عندما رأته، ابتسمت له وكأنه صديق: «يجدر بي أن أشكرك مرة ثانية، ذاك الأصلع يأتي إلى هنا غالباً، وهو ثقيل الدم بشكل منفِّر».

- لا تفكري فيه.

- لماذا كان يريد الإساءة إليّ في ذلك اليوم؟

- ليس إلاّ سكيراً. أطلب منك مرة ثانية: لا تفكري فيه.

- بما أنك تطلب مني ذلك، فلن أفكر فيه بعد الآن.

نظر الرجل فارع الطول في عينيها: «يجب أن تعديني بذلك».

- أعدك.

فقال الرجل وهو لا يكفّ عن التحديق في عينيها: «يسعدني أن أسمعك تعدينني بشيء ما».

كان الموقف في منتهى الإغراء: هذا التصرف الذي يوحي بإمكانية المقاربة الجنسية حتى ولو بقيت هذه الإمكانية نظرية بحتة ودون ضمانة.

- كيف حدث أنه أمكن الالتقاء بامرأة مثلك في الحي الأكثر رداءة في براغ؟

- وأنت؟ ماذا تفعل في الحي الأكثر رداءة في براغ؟

فقال إنه يسكن على مسافة ليست ببعيدة من هنا، وإنه يعمل مهندساً، وإنه توقف هنا صدفة في المرة السابقة عندما كان راجعاً من عمله.

11

كانت تنظر إلى توماس. لكن نظراتها لم تكن موجهة إلى عينيه، بل إلى فوقهما بمسافة عشرة سنتمترات، إلى شعره الذي كانت تفوح منه رائحة فرج امرأة أخرى.

قالت: «توماس، لم أعد أقدر. أعرف أن لا حقّ لي في التشكي. مذ رجعت إلى براغ وأنا أحظّر على نفسي الغيرة. لا أريد أن أكون غيورة. ولكنني لا أستطيع أن أمنع نفسي من ذلك. لا قدرة لي. ساعدني، أرجوك».

فتأبط ذراعها واقتادها إلى حديقة صغيرة حيث كانا يذهبان مراراً قبل سنوات. كانت هناك في هذه الحديقة مقاعد: زرقاء وصفراء وحمراء. عندما جلسا، قال لها توماس:

- أفهمك وأعرف ماذا تريدين. لقد رتبتُ كل شيء. عليك الآن أن تذهبي إلى «مون - دو - بيير».

وللحال تآكلها القلق: «إلى «مون - دو - بيير»؟ لكن ماذا عليّ أن أفعل في «مون - دو - بيير»؟».

- ستصعدين إلى فوق وعندئذ ستفهمين؟

لم تكن راغبة إطلاقاً في الذهاب. كان جسدها أضعف من أن

يقوى على مغادرة المقعد. ولكنها لم تكن قادرة أيضاً على مخالفة أمرٍ لتوماس. فبذلت جهدها لتنهض.

استدارت. كان لا يزال جالساً على المقعد ويبتسم لها بسعادة تقريباً. ثم أشار لها بحركة من يده لكي يشجعها، دون رَيْب.

12

عندما وصلت إلى «مون - دو - بيير» وهي تلة خضراء تنتصب في وسط براغ، لاحظت مذعورة أن لا أحد هناك. كان الأمر يثير الاستغراب فهناك دائماً جموع من براغ تتوافد عادة إلى المكان وفي أي ساعة كانت، للتنزه. أحست بالقلق ينهش قلبها. لكن الممرات كانت ساكنة إلى حدٍّ بعيد، وكان هذا الصمت يبعث على الطمأنينة، فأقلعَتْ عن المقاومة واستسلمت بثقة لذراعَي التلة. كانت تصعد إلى فوق متوقفة من وقت لآخر لتستدير إلى الوراء. كانت ترى تحتها أبراجاً وجسوراً كثيرة. كان القديسون يلوّحون بقبضاتهم، وعيونهم الحجرية محدقة في الغيوم. كانت هذه أجمل مدن العالم.

بلغت أعلى التلة. وراء الأكشاك حيث يبيعون عادةً مرايا وبطاقات تذكارية وخزفاً مبرغلاً، (كان الباعة متغيبين في ذلك اليوم) حيث تمتد مرجة خضراء فسيحة الأرجاء ومغروسة بأشجار قليلة. . لمحت هناك بضعة رجال. كانوا يقفون قليلاً بلا حراك، ثم يروحون ويجيئون ببطء متناوٍ، أشبه بلاعبي غولف يتفحصون الحفرة ثم يَزِنون عِصيَّهم بأيديهم لكي يحضّروا أنفسهم على الشروع في المباراة.

وصلت في النهاية بمحاذاتهم. كانت واثقة بأنها تعرف ثلاثة من بين الرجال الستة، أتوا إلى هنا لكي يقوموا بالدور نفسه الذي تقوم به هي: كانوا مرتعبين، كانوا وكأنهم راغبون في طرح أسئلة لا تُحصى ولكنهم آثروا السكوت خشية الإزعاج ونظروا حولهم نظرات حائرة.

أما الرجال الثلاثة الآخرون فكانوا يفيضون طيبة وتسامحاً. كان أحدهم يمسك بندقية بيده. حين لمح تيريزا أشار لها بابتسامة قائلاً: «أجل، هنا».

حيّته بانحناءة من رأسها وأحسّت بضيق هائل.

أضاف الرجل: «حتى نتفادى الخطأ، هل هذه «رغبتك» فعلاً؟».

كان سهلاً أن تقول له: «لا، هذه ليست رغبتي»، ولكن خيانة ثقة توماس أمر غير واردٍ. إذ بأية حجة ستتذرع عندما تعود إلى البيت؟ فقالت عندئذٍ: «أجل، طبعاً. هذه رغبتي».

كان الرجل حامل البندقية يتابع: «يجب أن تفهمي لأية غاية أطرح عليك هذا السؤال. نحن لا نفعل هذا إلاّ إذا كنا واثقين بأنّ الذين يأتون إلينا قد قرروا بأنفسهم وملياً أن يموتوا. هذه خدمة نؤدّيها من أجلهم».

نظر إلى تيريزا نظرة مستفهمة، فتوجّب عليها مرة أخرى أن تؤكد لهم: «نعم، اطمئن! هذه رغبتي».

سألها:

- «هل تريدين أن تكوني البادئة؟».

فأرادت أن تؤجل الإعدام ولو للحظات قليلة.

- «لا، أرجوك، لا. أريد أن أكون الأخيرة، لو سمحْتَ».

- «كما تشائين». أجاب الرجل ثم مضى باتجاه الآخرين. لم يكن معاوناه يحملان سلاحاً. بل كانا هناك للاهتمام بالناس الذين يريدون الموت. فيقتادانهم من أذرعهم ويرافقانهم إلى المرجة. والمرجة مساحة شاسعة مكسوّة بالعشب على مدّ النظر. كان يمكن للمرشحين للإعدام أن يختاروا الشجرة التي تعجبهم. كانوا يتوقفون وينظرون ملياً غير قادرين على الاختيار. وفي النهاية اختار اثنان منهم شجرتيْ دلب لكن الثالث كان يبتعد أكثر فأكثر دون أن يعثر على شجرة تناسب موته.

وكان المعاون الذي يتأبط ذراعه برقة، يرافقه بأناة دون أن ينفد صبره. لكن الرجل في النهاية لم يعد يقوى على التقدم فتوقف أمام شجرة قيقب كثيفة الأوراق.

عصب المعاونان أعين الرجال الثلاثة.

كان هناك فوق المرجة إذاً ثلاثة رجال متكئين إلى ثلاثة جذوع أشجار، وكل واحد منهم معصوب العينين ورأسه باتجاه السماء.

سدّد الرجل حامل البندقية وأطلق النار. عدا أصوات العصافير لم تكن هناك أية ضجة. كانت البندقية مزوّدة بكاتم للصوت. كان بالإمكان فقط رؤية الرجل المتكئ إلى شجرة القيقب وقد بدأ يتهاوى.

ودون أن يبتعد الرجل حامل البندقية عن مكانه، استدار في اتجاه آخر فانهار الرجل المستند إلى شجرة الدلب بدوره وسط صمت مطبق. ولحظات قليلة (كان الرجل حامل البندقية يدور على عقبيه ملازماً مكانه) وسقط المرشح الثالث للإعدام هو أيضاً على العشب.

13

اقترب أحد المعاونين من تيريزا دون أن ينبس بكلمة. كان يحمل في يده عصابة زرقاء دكناء.

فهمت أنه يريد عصب عينيها. هزّت رأسها وقالت: «لا، أريد أن أرى كل شيء».

لكن لم يكن هذا هو السبب الحقيقي لرفضها. فهي لم تكن قط شبيهة بالأبطال الذين صمموا بشجاعة على النظر في أعين مُعدِميهم. بل كانت فقط محاولة منها لتأجيل موتها. إذ خُيّل إليها أنها ما إن تُعصب عيناها حتى تكون قد دخلت إلى غرفة انتظار الموت، من غير أمل في الرجوع.

لم يحاول الرجل معارضتها ثم أخذها من ذراعها. كانا يمشيان على المرجة الفسيحة دون أن تتمكن تيريزا من أن تقرر أية شجرة ستختار. ثم أن لا أحد كان يجبرها على الاستعجال. لكنها كانت على يقين أنها لن تتمكن من الخلاص في جميع الأحوال. رأت أمامها شجرة كستناء مزهرة، فاقتربت. ثم استندت إلى الجذع ورفعت رأسها: فرأت الأوراق يخترقها شعاع الشمس، وسمعت في البعيد المدينة تدمدم بخفوت وعذوبة كأنها صوت ألف كمان.

رفع الرجل بندقيته.

بدأت شجاعتها تخونها. كانت يائسة من ضعفها ولكنها لم تستطع السيطرة عليها، فقالت: «لا! ليسَتْ هذه رغبتي».

فأخفض الرجل البندقية للحال وقال بهدوء كلي: «ما دامت هذه ليست رغبتك، لا يمكننا والحالة هذه أن نقوم بهذا. ليس لنا الحق في ذلك».

كان صوته ودوداً وكأنه يريد أن يعتذر إلى تيريزا لعدم قدرته على التنفيذ ما لم تكن هذه رغبتها. كان هذا اللطف يمزّق قلبها فألقت رأسها على جذع الشجرة وأجهشت بالبكاء.

14

كانت تعانق الشجرة وجسدها يختلج من البكاء، وكأنَّ هذه الشجرة لم تعد شجرة وإنما صارت أباها الذي فقدته أو جدّها الذي لم تعرفه، أو أبا جدّها، أو جدّ جدّها؛ رجلاً ما موغلاً في القِدم، آتياً من أعمق أعماق الزمن ليمد لها وجهه عبر قشرة الشجرة الخشنة.

استدارت. كان الرجال الثلاثة قد ابتعدوا وهم يروحون ويجيئون على المرجة كأنهم لاعبو غولف. ذلك أنّ البندقية التي هي في يد الرجل المسلّح تذكّر كثيراً بعصا الغولف.

هبطت ثانية ممرات «مون - دو - بيير» محتفظة في داخلها بالحنين إلى الرجل الذي كان سيُطلق عليها النار ولم يفعل. اشتاقت إليه، فهي كانت بحاجة إلى أحد ما يساعدها، في نهاية الأمر! توماس لم يكن يودّ مساعدتها. توماس أرسلها إلى الموت. وحده رجل آخر بإمكانه أن يساعدها!

كانت كلّما اقتربت من المدينة، تحس بالحزن من أجل هذا الرجل، ويزداد خوفها من توماس. هو لن يغفر لها إخلالها بوعدها، ولن يغفر لها تخاذلها وخيانتها له. كانت قد وصلت إلى الشارع حيث يسكنان، وكانت تعرف أنها ستراه بين دقيقة وأخرى. وإذ فكرت في ذلك، داهمها خوف شديد إلى درجة أحسّت معها بتشنج في معدتها وبرغبة في التقيؤ.

15

كان المهندس قد دعاها إلى زيارته ورفضت لمرتين على التوالي. لكنها هذه المرة قبلت.

تناولت غداءها كالعادة واقفة في المطبخ، ثم خرجت. كانت الساعة تقارب الثانية.

كانت تقترب من مكان سكنه فأحسّت عندئذ بساقيها تبطئان من تلقائهما.

ثم فكرت أنّ توماس هو من أرسلها إلى هذا الرجل. ألم يكن يمضي الوقت وهو يشرح لها أنّ الحب والجنس أمران مختلفان؟ ستحاول بكل بساطة أن تؤكد نظريته. كانت تسمع صوته يقول لها: «أفهمك وأعرف ماذا تريدين. رتبت كل شيء. ستصعدين إلى فوق وستفهمين».

أجل، هي لم تقم سوى بتنفيذ أوامر توماس.

لم تكن تودّ البقاء إلا هنيهة عند المهندس، فقط الوقت لتشرب فنجان قهوة. فقط الوقت لتكتشف ما معنى أن تتقدم حتى حدود الخيانة. كانت تريد أن تدفع بجسدها باتجاه هذه الحدود وأن تتركه هناك لحظة، كما على عمود التشهير. ثمّ حين يحاول المهندس أن يضمها بين ذراعيه ستقول له كما قالت للرجل صاحب البندقية في «مون - دو - بيير»: «لا، لا! ليست هذه رغبتي».

وعندئذ سيُخفض الرجل بندقيته ويقول بصوت عذب: «إذا لم تكن هذه رغبتك، فلا يمكننا والحالة هذه أن نقوم بهذا. ليس لنا الحق في ذلك».

وستلتفت عندها إلى جذع الشجرة وتجهش بالبكاء.

16

كانت البناية تعود إلى بداية القرن وتقع في ضاحية عمالية في براغ. ولجت في رواق جدرانه مطلية بالكلس. كانت الأدراج العتيقة للسلّم الحجري الذي يحيط به درابزين حديدي، تؤدي إلى الطابق الأول. استدارت إلى الشمال، على الباب الثاني حيث لا يوجد اسم ولا جرس، قرعت.

فُتح الباب.

كان المسكن بكامله يتألف من غرفة واحدة تقسمها ستارة على بعد مترين من الباب لكي توحي بأنّ هذا مدخل، حيث يُوجد طاولة وموقد وبرّاد. ولجت إلى الداخل فلاحظت قبالتها مستطيل النافذة العمودي في نهاية الغرفة الضيقة .والممتدة طولاً. في جهة، كانت هناك مكتبة، وفي جهة أخرى سرير وكنبة وحيدة.

- «بيتي متواضع جدّاً»، قال المهندس. «آمل ألاّ يُخيّب هذا ظنك».

- «لا، إطلاقاً»، قالت تيريزا وعيناها مسمّرتان إلى الحائط الذي تحجبه تماماً رفوف مزدحمة بالكتب. لم يكن هذا الرجل يملك طاولة جديرة بهذا الاسم، ولكنه مع ذلك كان يملك مئات الكتب. سرّت تيريزا لذلك. والقلق الذي رافقها وهي في طريقها إلى هنا أخذ يتلاشى. منذ طفولتها، كانت ترى في الكتاب علامة على أخوّة سرّية. فمن يملك مكتبة كهذه، ليس في مستطاعه إذاً أن يؤذيها.

سألها ماذا بإمكانه أن يقدم لها: نبيذ؟

لا، لا، لم تكن راغبة في النبيذ. إذا كان هناك شيء ترغب في شربه، فسيكون القهوة.

اختفى وراء الستارة فاقتربت من المكتبة. استوقفها أحد الكتب وهو مسرحية مترجمة لسوفوكليس: «أوديب»، أمر غريب أن تجد هذا الكتاب بالذات عند هذا الرجل الذي تجهله. كان توماس قد أهداه لتيريزا من سنوات متوسلاً إليها أن تقرأه بانتباه، وحدّثها عنه طويلاً. ثم نشر انطباعاته عن هذا الكتاب في إحدى الصحف، فقلب هذا المقال حياتهما رأساً على عقب. كانت تنظر إلى ظهر الكتاب فتهدئ هذه الرؤية من روعها. كان الأمر كما لو أنّ توماس ترك عن قصد أثره هنا بمثابة رسالة تبلغها أنه قد رتّب كل شيء بنفسه. أخذت الكتاب وفتحته.. عندما سيرجع المهندس، سوف تسأله عن سبب اقتنائه لهذا الكتاب، وعمّا إذا كان قد قرأه وما هو رأيه فيه. وهكذا سيكون في وسعها الانتقال بفضل خدعة كلامية من المنطقة المحفوفة بالمخاطر لمسكن المجهول، إلى العالم الأليف لأفكار توماس.

ثم أحسّت بيده فوق كتفها. انتزع المهندس الكتاب من يدها وأرجعه، دون أن يقول شيئاً، إلى المكتبة، ثم اقتادها إلى السرير.

فكّرت في الجملة التي كانت قالتها إلى مُنفِّذ الإعدام في «مون - دو - بيير»، فنطقت بها بصوت عالٍ: «لا، لا! ليست هذه رغبتي!».

كانت مقتنعة بأنّ هذه العبارة الساحرة ستغير الموقف ولكن هذه الكلمات كانت تفقد كل قدرة سحرية لها في هذه الغرفة. وفي اعتقادي حتى أنها حثّت الرجل على أن يتصرف بطريقة أكثر تصميماً: شدّها ناحيته ووضع يده على نهدها.

أمر عجيب: فهذه الملامسة حرّرتها من قلقها في الحال. كما لو أنّ المهندس قد أظهر لها من خلال هذه الملامسة، جسدها. ففهمت عندئذ أن الرهان لا يقع عليها (أي على روحها) بل على جسدها، وجسدها دون غيره. هذا الجسد الذي كان قد خانها والذي طردته بعيداً ليلتحق بالأجساد الأخرى.

17

فكَّ زرّاً من قميصها منتظراً أن تكمل البقية بنفسها. ولكنها خيّبت توقّعه. فهي كانت قد طردت جسدها بعيداً عنها، ولا تريد بذلك أن تأخذ أمره على عهدتها. لم تتعرَّ لكنها في الوقت نفسه لم تقاوم. وكأن روحها، على الرغم من أنها تستهجن ما يجري، قد اختارت مع ذلك أن تبقى على الحياد.

عرّاها من ثيابها، وبقيت خلال هذا الوقت جامدة تقريباً. وحين قبّلها لم تتجاوب شفتاها معه. ثم شعرت فجأة أن فرجها رطب فذُهلت لذلك.

كانت كلّما شعرت أنها مهتاجة رغماً عن إرادتها، يزداد اهتياجها أكثر. ها قد بدأت روحها الآن تمتثل بطريقة غامضة لمجريات الأمور، ولكنها كانت عارفة أيضاً أنّ موافقتها هذه يجب أن تبقى مضمرة من أجل إطالة هذا الاهتياج الشديد. فَلَو أنها قالت نعم بصوتٍ عالٍ، لو

أنها قبلت أن تشترك بكامل إرادتها في تمثيلية الحب، لاضمحلّت الإثارة. ذلك أنّ الأمر الذي كان يثير روحها بالذات هو خيانة الجسد لها وتصرفه ضد إرادتها، فيما هي شاهِدة على هذه الخيانة.

ثم نزع سروالها الداخلي فأصبحت الآن عارية تماماً. كانت الروح تتأمل الجسد عارياً بين ذراعي رجل غريب. فبدا لها هذا المشهد عجيباً كمن يتأمل كوكب المريخ عن كثب. وتحت هذه الإضاءة العجيبة فَقَد جسدها للمرة الأولى تفاهته، وللمرة الأولى نظرت إليه مفتونة: كان تفرد جسدها وتميّزه الذي لا يُضاهى يحتلان الصدارة. إذ لم يعد جسدها ذلك الجسد الأكثر عاديّةً بين الأجساد (كما بَدا لها حتى الآن) ولكن الأكثر استثنائية بينها. لم تكن الروح قادرة على إشاحة بصرها عن شائبة الولادة [الصرّة] المستديرة السمراء فوق العانة تماماً؛ كانت الروح ترى في هذه الشائبة ختماً وسمت به الجسد، وكانت تجد أن تحرك عضو غريب على مقربة جداً من هذا الختم المقدس، أمر فيه تجديف.

تذكرت تيريزا حين رفعت عينيها ورأت وجهه، أنها لم توافق قط على أن تجد الجسد، وبالتحديد في المكان الذي طبعت فيه الروح ختمها، بين ذراعي رجل لم تكن تعرفه ولا ترغب في معرفته. فاجتاحتها كراهية مدوّخة. جمّعت ريقها عند شفتيها مستعدة لأن تبصق في وجه الرجل الغريب. كان كلّ منهما يراقب الآخر بالنَّهم ذاته، يبدو أنه أحسَّ بغضبها فأخذ يعجّل في حركاته. وإذ أحسّت تيريزا بالنشوة تعتريها أخذت تصرخ: «لا، لا، لا!». كانت تقاوم المتعة التي تقترب. وبما أنها كانت تقاومها، فإنّ المتعة المردوعة كانت تغلغل عميقاً في حنايا جسدها دون أن تجد منفذاً لتهرب منه، كانت النشوة تسري في جسدها كما تسري حقنة المورفين في العرق. كانت تتخبط بين ذراعي الرجل وتضربه على غير هدى وتبصق في وجهه.

18

ترتفع المراحيض العصرية فوق الأرض مثل زهرة النيلوفر البيضاء. فالمهندس المعماري يفعل كل ما في وسعه كي ينسى الجسد بؤسه فلا يعرف الإنسان عما سيؤول إليه غائط أحشائه بعد أن تدفعه مياه الخزان مقرقرةً. ومع أنّ قساطل المجارير تصل مجساتها حتى شققنا، فإنها محجوبة بعناية عن أنظارنا ونجهل كل أمر عن «بندقية» البراز التي تقوم عليها غرف حماماتنا ونومنا وقاعات رقصنا ومجالسنا.

أما مراحيض هذا المبنى القديم، الواقع في ضاحية عمالية من براغ، فكانت أقل خبثاً. كان المرحاض يرتفع يتيماً بائساً فوق بلاط الأرض الرمادي. ومنظره لم يكن يذكر بزهرة النيلوفر بل بأنه مرحاض أي: الفوهة الواسعة للقسطل لم تكن عليها مقعدة خشبية فاضطرت تيريزا إلى الجلوس على الصفيحة المطلية بالمينا، فجعلتها ترتعش.

كانت تيريزا جالسة فوق المرحاض وكانت الرغبةُ التي تملّكتها فجأة في إفراغ أمعائها، رغبةً في الذهاب حتى نهاية الذل، رغبةً في أن تكون جسداً، جسداً فحسب، في أن تكون ذلك الجسد الذي كانت تقول أمها عنه إنه وُجد ليهضم ويتغوط. تيريزا إذاً تفرغ أمعاءها وتشعر الآن بحزن ووحدة يفوقان الوصف. إذ لا شيء أكثر تعاسة من جسدٍ عارٍ جالس فوق الفوهة الواسعة لقسطل التفريغ.

فقدت عندئذ روحها فضولية المُشاهد وعدوانيتها وكبرياءها: فمن جديدٍ، غارت في قعر جسدها، في تلافيفه الأكثر سرية وقبعت تنتظر هناك بيأس استدعاءها من جديد.

19

قامت عن المرحاض وشدّت على طرّادة الماء، ثم رجعت إلى

المدخل. كانت الروح ترتعش في الجسد المنبوذ العاري. كانت تيريزا تشعر أنّ الورقة التي مسحت بها مؤخرتها لا تزال عالقة هناك.

فحدث عندئذ شيء لا يُنسى: رغبت في موافاته إلى الغرفة وسماع صوته وندائه. لو أنه يتكلم معها بصوت عذب وخفيض ربّما ستستعيد روحها الجرأة للصعود إلى سطح جسدها، وربما سوف يمكنها البكاء. ربّما ستعانقه كما كانت عانقت في الحلم، الجذع العريض لشجرة الكستناء.

كانت في المدخل تجاول جاهدة أن تتمالك هذه الرغبة الجامحة في البكاء أمامه. كانت عارفة أنها لو لم تتمالك هذه الرغبة، فسوف يحدث ما لا ترغب فيه، ستقع في غرامه.

في هذه اللحظة بالذات، تناهى إلى سمعها صوت من عمق المسكن. عندما سمعت هذا الصوت غير المجسّد (أي دون أن يترافق مع رؤية القامة الفارعة للمهندس) أخذها العجب: كان الصوت خافتاً وحاداً. كيف لم تلاحظ ذلك قبل الآن؟

ربما بسبب هذا الانطباع المُحيّر والمقيت الذي تركه هذا الصوت في داخلها، استطاعت أن تقاوم التجربة، فرجعت إلى الغرفة، حيث لملمت ملابسها ثم ارتدت ثيابها على عجل وغادرت.

20

كانت راجعة من جولاتها الشرائية بصحبة كارنينا التي تحمل فطيرة في خطمها. كانت الصبيحة باردة جليديّة قليلاً. كانت تسير بمحاذاة أرض مفرزة تتخلل المسافات بين البيوت الكبيرة جنائنُ مزروعة صغيرة جداً وحدائق صغيرة. توقفت كارنينا بغتة، وحدّقت بثبات إلى هناك. نظرت هي أيضاً إلى تلك الجهة دون أن يلفت نظرها شيء ما. كانت كارنينا تجرّها فاستسلمت لها. وأخيراً، رأت فوق الصلصال المتجمّد

لمسكبة صغيرة رأس زاغٍ أسود ذا منقار طويل. كان الرأس الصغير دون جسد يتحرك ببطء ويرسل من وقت لآخر صوتاً حزيناً أجش.

كانت كارنينا مضطربة إلى درجة أنها تخلت عن الفطيرة. فاضطرت تيريزا لأن تربطها إلى شجرة لئلا تسيء إلى الزاغ. ثم انحنت وحاولت أن تنبش التراب المتكوّم حول العصفور المدفون حياً. لم يكن الأمر سهلاً فأحد أظفارها انكسر ونزف الدم منه.

في هذه اللحظة، سقط حجر قربها. رفعت بصرها فلمحت صبيين في العاشرة من عمرهما عند زاوية أحد البيوت. نهضت. وإذ شاهدا ردّ فعلها والكلب المربوط إلى الشجرة، ولّيا راكضين.

ركعت من جديد على الأرض لتحفر التراب الصلصالي وتمكنت أخيراً من تحرير الزاغ من قبره، لكن العصفور كان مشلولاً وغير قادر على المشي أو على الطيران. فغطّته بالمنديل الذي كانت تلفّه حول عنقها وضمّته بيدها اليسرى إلى صدرها. أفلتت باليد اليمنى وثاق كارنينا من الشجرة. واحتاجت إلى كل قوتّها لتتحكم بها وتبقيها إلى جانب ساقها.

وبما أنّ يدها لم تكن فارغة لتبحث عن المفتاح في جيبها، قرعت الجرس، ففتح لها توماس. ناولته رَسَن كارنينا وأمرته قائلة: «أمسكها!» وحملت الزاغ إلى الحمام. هناك، وضعته تحت المغسلة. كان الزاغ يتخبط دون أن يقدر على الحركة. كان هناك سائل سميك أصفر ينزف من جسده. صنعت له تيريزا فراشاً من خرق عتيقة، ووضعته عليه تحت المغسلة كيلا تصل إليه برودة البلاط. كان العصفور يحرّك جناحه المشلول يائساً وكان منقاره ناتئاً وكأنه إشعار باللوم.

21

كانت جالسة على حافة المغطس غير قادرة على إشاحة بصرها عن

الزاغ المحتضر. وكانت ترى في وحدته صورة مصيرها الخاص ثم رددت: لا أحد لي في هذا العالم غير توماس.

هل علّمتها التجربة مع المهندس أنّ المغامرات العاطفية لا علاقة لها بالحب؟ وأنّ هذه المغامرات خفيفة لا تزن شيئاً؟ وهل صارت هي نفسها أكثر هدوءاً من ذي قبل؟

إطلاقاً.

ثمة مشهد يلاحقها باستمرار: وهي خارجة لتوّها من المرحاض وكان جسدها واقفاً في المدخل عارياً ومتروكاً، وكانت الروح المذعورة ترتعش في أحشائها. أحسَّت أنّ الرجل فيما لو خاطب روحها من عمق الغرفة في هذه اللحظة بالذات، فسوف تشهق بالبكاء مرتمية بين ذراعيه.

كانت تتخيل أنّ هناك صديقة لتوماس واقفة مكانها في المدخل أمام المرحاض، وتوماس في الغرفة مكان المهندس. لو أنّ توماس قال عندها كلمة للمرأة الشابة، كلمة واحدة لا أكثر، لارتمت بين ذراعيه باكية.

تعرف تيريزا جيداً أنّ هذه اللحظة تشبه تلك اللحظة التي يولد الحب فيها: حين لا تستطيع المرأة أن تقاوم الصوت الذي ينادي روحها المذعورة، والرجل لا يستطيع أن يقاوم المرأة التي تصير روحها متنبهة لصوته. وتيريزا تعرف أيضاً أنّ توماس لن ينجو أبداً من فخاخ الحب وهي ليس في مقدورها إلاّ أن تخاف عليه كل ساعة وكل دقيقة.

والحالة هذه، بأي سلاح يمكن لها أن تتزود؟ بوفائها فقط. . وفاؤها الذي منحته إياه منذ البداية ومنذ اليوم الأول، كما لو أنها كانت عارفة للحال أنها لا تملك شيئاً آخر لتمنحه إياه. فحبهما بناء غير متساوق إلى حدّ عجيب: لأنه يرتكز على اليقين المطلق بوفاء تيريزا كما يرتكز قَصْر ضخم على عمود واحد.

الآن، لم يعد الزاغ يحرّك جناحيه تقريباً. كان بالكاد يحرّك رجله الممزقة المكسورة. لم تكن تيريزا تريد أن تتركه، كما لو كانت ساهرة قرب سرير أخت تحتضر. ومع ذلك ذهبت أخيراً إلى المطبخ لتتناول غداءها على عجل.

عندما رجعت كان الزاغ قد مات.

22

إبّان السنة الأولى لعلاقتهما، كانت تيريزا تصرخ أثناء المضاجعة، وكان هذا الصراخ، كما سبق لي أن قلت، يحاول أن يعمي الحواس وأن يصمَّها. ثم صار صراخها يتضاءل، ولكن الحب كان دائماً يُعمي روحها فلا ترى شيئاً. عندما ضاجعت المهندس، ردَّ غياب الحب الرؤية أخيراً إلى روحها.

كانت تأخذ حمام السونا وكانت تقف من جديد قبالة المرآة. أخذت تتأمل نفسها وتسترجع في ذهنها مشهد الحب مع المهندس، لم تكن تتذكر العشيق، وكانت في الحقيقة غير قادرة على وصفه، وربَّما لم تلاحظ كيف كانت هيئته وهو عارٍ تماماً. الشيء الوحيد الذي كانت تتذكره (والذي كانت تنظر إليه مستثارة عبر المرآة) هو جسدها وبالتحديد عانتها والشائبة المستديرة فوقها تماماً. هذه الشّائبة التي لم تكن ترى فيها حتى الآن إلاّ مجرد عيب جلدي، بدأت تنطبع في ذاكرتها. كانت تريد أن تنظر إليها وتنظر إليها من جديد وهي على مقربة لا توصف من قضيب الرجل الغريب.

لا يمكنني إلاّ أن أشدّد على هذا ثانيةً: هي لم تكن راغبة في رؤية قضيب الغريب. بل كانت تريد أن ترى عانتها وهي على مقربة من هذا القضيب، وعانتها تحديداً. لم تكن ترغب في جسد الآخر، بل في

جسدها هي، الذي اكتشفت فجأة أنه كلّما كان أكثر قرباً وأكثر غرابة، كان أكثر إثارة.

ها إنها تنظر إلى جسدها المتلألئ بقطرات ماء صغيرة من الدوش، وتفكر في أنّ المهندس سيمرّ بين يوم وآخر إلى الحَانة. كانت راغبة في أن يأتي وفي أن يدعوها لزيارته! كانت عندها رغبة عارمة في ذلك!

23

كانت على مرّ الأيام تخشى ظهور المهندس ثانيةً أمام طاولة الحانة، فتكون غير قادرة على أن تقول لا. على مرّ الأيام، كانت خشيتها من أن تراه، تخلي المكان لخشيتها من ألا يأتي.

انقضى شهر والمهندس منقطعة أخباره. كانت تيريزا عاجزة عن فهم السبب. فأفسحت الرغبة الخائبة المكان للقلق: لماذا لا يأتي؟..

كانت تقدّم الشراب للزبائن. ها قد رجع الأصلع القصير الذي كان اتّهمها ذلك المساء بأنها تقدّم الكحول لمن هم دون السنّ. كان يروي بصوتٍ عالٍ قصّة داعرة. القصة نفسها التي سمعتها مئات المرات من أفواه السكارى الذين كانت تقدّم لهم كؤوس جعة كبيرة في الريف. وإذ أحست بأنّ عالم أُمّها ينقضّ عليها من جديد، قاطعت حديثه بفظاظة شديدة.

تضايق: «ليس هناك أوامر تملينها عليّ! اعتبري نفسك محظوظة لأننا نحن الذين نتركك تعملين في هذه الحانة».

- «نحن»، ماذا تقصد بـ«نحن»؟

- «نحن»، قال الرجل ثم أمر بكأس أخرى من الفودكا. «وتذكّري أني لن أسمح لك بإهانتي».

ثم أشار إلى عنق تيريزا الذي كان مطوّقاً بعقدٍ مؤلفٍ من عدة

صفوف من اللؤلؤ الرخيص، وقال: «من أين لكِ هذا اللؤلؤ؟ لا تقولي إنه هدية من زوجك الذي يعمل في تنظيف الزجاج والبلاط. فهو لا يقدر على أن يشتري لك هذا اللؤلؤ بالأجر الذي يكسبه! هل هم الزبائن الذين يعطونك هذا؟ ومقابل أي شيء، قولي؟».

صرخت تيريزا: «أقفل فمك فوراً».

حاول الرجل أن يمسك العقد بين أصابعه: «تذكّري أنّ الدعارة ممنوعة في بلادنا!».

انتصبت كارنينا وأسندت قائمتيها الأماميتين إلى طاولة الشُّرب ودمدمت متذمّرة.

24

قال السفير: «إنه شرطي!».

فألمحت تيريزا: «لو كان شرطياً لكان أكثر تكتماً. فماذا تنفع شرطة سرّية حين لا تكون سريّة!».

جلس السفير مقرفصاً وكأنه تعلّم ذلك في جلسات لليوغا. على الحائط كان كينيدي يبتسم فيُضفي على كلمات السفير طابعاً مقدساً.

ثم قال بلهجة أبوية: «سيدة تيريزا، للشرطة مهام عدة. المهمة الأولى كلاسيكية ومفادها أن يسمعوا ما يقوله الناس وينقلوه لرؤسائهم.

والمهمة الثانية هي التهديد. يُظهرون لنا أنهم يضعوننا تحت رحمتهم ومرادهم أن نخاف. وهذا ما كان يبغيه رجلك الأصلع.

والمهمة الثالثة تعنى بإعداد مواقف يمكنها توريطنا. ما من أحد عاد يهتم بأن نُتّهم بالتآمر على النظام لأن هذا يزيد من تعاطف الناس معنا. لذلك، فهم يفضّلون العثور على حشيشة في قعر جيوبنا أو أن يثبتوا بأننا اغتصبنا فتاة في الثانية عشرة. ويُحضرون صبية لتشهد على ذلك».

فتذكرت تيريزا المهندس. كيف يمكنها أن تفسر عدم رجوعه؟

كان السفير يتابع: «ينصبون للناس أفخاخاً ليستعبدوهم ويستغلوهم لنصب فخاخ للآخرين. وهكذا دواليك، حتى يجعلوا شعباً بأكمله منظمة هائلة من المُخبرين».

لم تكن تيريزا تفكر إلا في شيء واحد، في أنّ المهندس مبعوث لها من قبل الشرطة. ولكن من يكون هذا الصبي الغريب الذي ذهب ليثمل في المقهى المقابل ومن ثم رجع ليعترف لها بالحب! فبسبب هذا الصبي خاصمها الشرطي وبادر المهندس إلى الدفاع عنها. ثلاثتهم إذاً لعبوا دوراً في سيناريو مُعَدّ مسبقاً. وكل ذلك أُعِدّ في سبيل أن تستلطف الرجل الذي تنصّ مهمته على أن يُغويها.

كيف أنها لم تفكر في ذلك؟ ثم إنّ ذاك المسكن كان يوحي بالارتياب ولا يتناسب إطلاقاً مع هذا الشخص. فلماذا يقيم مهندس أنيق في مسكن بهذه الحقارة؟ أهو حقاً مهندس؟ كيف أمكنه إذاً أن يغيب عن عمله في الساعة الثانية من بعد الظهر؟ وهل في المستطاع تخيّل مهندس يقرأ سوفوكليس! لا لم تكن المكتبة تلك تخصّ مهندساً. وهذه الغرفة كانت تشبه بالأحرى مسكناً مصادراً لمثقف معدم وموجود حالياً في السجن. عندما كانت في العاشرة من عمرها أوقفوا أباها وصادروا الشقة والمكتبة كلها. من يدري لأي مأرب استعملوا الشقة فيما بعد؟

الآن، باتت تفهم بوضوح لماذا لم يعد ثانية. لأنه قد أنجز مهمته وأية مهمة؟ كان الشرطي الأصلع قد أوحى بها دون أن يدري عندما قال: «في الوقت الحاضر الدعارة ممنوعة عندنا، لا تنسي هذا الأمر!» وذلك المهندس المزيف ربما سيشهد بأنها ضاجعته وأنها طلبَتْ منه مالاً! سيهدّدونها بإثارة فضيحة ويبتزونها لتُبلغ عن هؤلاء الذين يأتون إلى الحانة ليسكروا.

كان السفير يحاول طمأنتها: «مغامرتك لا تبدو لي خطيرة إلى الحد الذي تتصورين».

فقالت تيريزا بصوت مخنوق: «ممكن». وخرجت مع كارنينا إلى شوارع براغ السوداء.

25

لكي نتحاشى العذاب نلجأ في أكثر الأحيان إلى المستقبل. فنتصور أن ثمة فاصلاً ما على حلبة الزمن يتوقف بعد العذاب الحالي عن أن يكون موجوداً. ولكن تيريزا لم تكن ترى أنّ هذا الفاصل موجود إزاءها.. وكان الرجوع إلى الوراء وحده يجلب لها شيئاً من المؤاساة. كان نهار أحد آخر. ركبا السيارة ليذهبا في نزهة بعيداً عن براغ.

كان توماس وراء المقود وتيريزا إلى جانبه وكارنينا على المقعد الخلفي. تمد أحياناً رأسها إلى الأمام لتلحس لهما آذانهما. في زهاء ساعتين وصلا إلى مدينة صغيرة مليئة بالمياه المعدنية. كانا قد أمضيا بضعة أيام فيها لخمس أو ست سنوات خلَتْ. فرغبا في التوقف فيها لقضاء الليل.

أوقفا السيارة في الساحة، وترجّلا منها. ما زالت المدينة كما كانت. في الجهة المقابلة الفندق الذي نزلا فيه تلك السنة، وأيضاً شجرة الزيزفون القديمة أمام المدخل. على يسار الفندق تصطف قناطر خشبية قديمة وفي نهايتها تنساب عينُ ماء في بركة رخامية. كان هناك أناس ينحنون فوقها، كما في السابق، والأكواب في أيديهم.

كان توماس يشير إلى الفندق. ولكن هناك شيئاً ما تغيّر على أية حال.. ففي السابق كان الفندق يُسمّى «الفندق الكبير»، والآن صار اسمه استناداً إلى اللافتة «البيكال». ثم نظرت إلى اللائحة عند زاوية

المبنى وقد كُتب عليها: «ساحة موسكو». فَجَالا معاً (كانت كارنينا تتبعهما وحدها دون رَسَن) في كل الشوارع التي كانا يعرفانها وتفحّصا الأسماء: شارع ستالينغراد وشارع لينينغراد، وشارع روستوف، وشارع نوڤوسبيرسك، وشارع كييڤ، وشارع أوديسا. وهناك دار تشايكوفسكي للنقاهة، ودار تولستوي للنقاهة، ودار ريمسكي كورساكوف للنقاهة، وهناك أيضاً فندق سوفوروف وسينما غوركي ومقهى بوشكين. كانت كل الأسماء مأخوذة من روسيا ومن التاريخ الروسي.

أخذت تيريزا تتذكر أيام الاجتياح الأولى. كان الناس يُخفون آنذاك اللافتات في كل الشوارع، في كل المدن، ويقتلعون من الطرقات الألواح المشيرة إلى الاتجاه. فأصبح البلد غير معروف في ليلة واحدة. كان الجيش الروسي يتسكع في البلاد دون أن يعرف وجهته. وكان الضباط يفتشون عن مباني الإعلام والتلفزيون والراديو ليحتلوها، لكن دون أن يتمكنوا من العثور عليها. وحين كانوا يسألون الناس عنها يهز هؤلاء الأخيرون أكتافهم أو يدلّونهم على عناوين خاطئة وعلى اتجاهٍ خاطئ.

ومع مرور السنوات، يبدو أنّ هذا التستر عاد بالضرر على البلاد. فلا الشوارع ولا البيوت تمكنت بعد ذلك من استعادة أسمائها الأصلية. وهكذا تحولت منطقة حمامات معدنية في بوهيميا، بين يوم وآخر، إلى روسيا خيالية مصغّرة. كانت تيريزا تكتشف إذاً أنّ الماضي الذي أتيا للتفتيش عنه هنا قد تمت مصادرته. وكان يستحيل عليها البقاء لتمضية الليلة.

26

توجها من جديد إلى السيارة صامتَيْن. كانت تيريزا تقول في نفسها إنّ الأشياء كلها والناس كلهم يعرّفون عن أنفسهم متنكرين: كانت

المدينة القديمة بوهيميا قد اكتست بأسماء روسية. والتشيكيون الذين كانوا يلتقطون صوراً عن الاجتياح، كانوا يعملون دون أن يدروا لمصلحة الشرطة السرية الروسية. فالرجل الذي أرسلها إلى الموت كان مُقنَّعاً بقناع توماس، والمهندس كان يريد أن يلعب دور رجل «مون - دو - بيير»، والكتاب في مسكنه كان رمزاً خادعاً وُجد هناك لتضليلها.

وإذ فكرت في الكتاب الذي أمسكته بيدها، مرَّت في خاطرها فكرة احمرَّ لها خداها خجلاً: كيف حدثت هذه الأمور؟ قال المهندس إنه ذاهب لإحضار القهوة، فاقتربت من المكتبة وانتزعت كتاب «أوديب» لسوفوكليس. ثم عاد المهندس لكن بدون قهوة.

كانت تقلّب الموقف في جميع الاتجاهات: تُرى، عندما ذهب متذرعاً بتحضير القهوة، كم من الوقت بقي هناك؟ لا شك أنه بقي دقيقة على الأقل أو دقيقتين وربما ثلاثاً. ماذا يمكن أن يكون قد فعل كل هذا الوقت في مدخل صغير؟ هل ذهب إلى المرحاض؟ كانت تيريزا تحاول أن تتذكر ما إذا كانت قد سمعت طرطقة باب أو قرقرة من خزّان الماء. لا، بالتأكيد لم تسمع الماء وإلاّ لكانت تذكرت ذلك. كانت على يقين تقريباً من أنها لم تسمع كذلك طرطقة باب. إذاً ماذا كان يفعل في المدخل؟

وفجأة، انجلى الأمر لها تماماً: لم تكن شهادة المهندس وحدها كافية لإيقاعها في الفخ.. وإنما يجب إعطاؤهم دليلاً قاطعاً. فخلال هذا الغياب الطويل المشبوه ذهب المهندس ليضع كاميرا في المدخل. أو بشكل أفضل، من المحتمل أن يكون قد أدخل شخصاً يحمل آلة تصوير فاختبأ خلف الستارة وقام بتصويرهما.

منذ أسابيع قليلة كانت متعجبة من أن بروخازكا لم يكن يعرف أنه يعيش في معسكر اعتقال لا مكان للمرء فيه لأن تكون له حياة خاصة. لكن ماذا عنها هي؟ عندما رحلت عن بيت أمها، اعتقدت لسذاجتها

أنها أصبحت من الآن فصاعداً سيدة حياتها الخاصة. ولكن البيت الأمومي كان يمتد ليطال العالم كله ويُدركها في كل مكان. كانت تيريزا غير قادرة على الإفلات منه أينما ذهبت.

نزلا الدرج وسط الحدائق ليبلغا الساحة حيث أوقفا السيارة.

«ما بكِ»، سألها توماس.

وقبل أن يتسنّى لها الوقت للإجابة، ألقى أحدهم التحية على توماس.

27

كان الرجل فلاحاً في الخمسين غضّنت الرح وجهه. وكان توماس قد أجرى له قديماً عملية جراحية. ومنذ ذلك الوقت وهم يرسلونه كل سنة للاستشفاء في منطقة مياه معدنية. دعا توماس وتيريزا لشرب كأس. وبما أنّ الكلاب غير مسموحٍ بها في الأماكن العامة، ذهبت تيريزا إذاً لتضع كارنينا في السيارة. في خلال هذا الوقت جلس الرجلان في المقهى لانتظارها. عندما رجعت كان الفلاح يقول: «عندنا، كل شيء هادئ. حتّى أنهم انتخبوني رئيساً للتعاونية من سنتين».

قال توماس: «تهانينا».

- «كما تعرفون، هنالك الريف، والجميع يغادرونه. وفي الجبال، يعتبرون أنفسهم محظوظين فيما لو قبل أحد بالبقاء عندهم. ليس في إمكانهم السماح لأنفسهم بطردنا من عملنا».

قالت تيريزا: «سيكون إذاً المكان الأمثل لنا».

- «ولكنكِ هناك ستضجرين يا سيدتي الصغيرة.. هناك لا شيء، لا شيء إطلاقاً».

كانت تيريزا تنظر إلى الوجه الذي غضنته الريح. كانت تستلطف كثيراً هذا الفلاح. وأخيراً وبعد وقت طويل، وجدت أحداً ما تستلطفه! وللحال انبثقت لوحة ريفية أمام نظرها: قرية وقبة جرس وحقول وغابات وأرنب بري ينسحب مسرعاً من أحد الأثلام وخفير للصيد يلبس قبعة خضراء. لم يسبق لها أن عاشت في الريف. كان الريف صورة رسمها خيالها من خلال الأحاديث أو من خلال قراءاتها. أو ربّما حفرها أجداد بعيدون في شعورها الباطن. ومع ذلك فإنّ هذه الصورة كانت واضحة في داخلها ونقية مثل صورة أم الجدة في ألبوم عائلي أو مثل محفورةٍ قديمة.

سأل توماس: «هل ما زلت تشعر بالألم؟».

فدَلّه الفلاح على موضع خلف عنقه حيث تتصل الجمجمة بالعمود الفقري وقال: «أشعر أحياناً بألم في هذا المكان».

تحسس توماس المكان الذي أشار إليه مريضه القديم، دون أن ينهض عن كرسيه، طارحاً عليه بعض الأسئلة. ثم قال: «لم يعد يحق لي أن أكتب لك وصفات. ولكن عند عودتك قل لطبيبك إنك تحدثت معي وإنني أمرتك بأن تأخذ هذا الدواء». ثم أخرج مذكرته من جيبه الداخلي وانتزع ورقة منها، ثم كتب عليها اسم الدواء بأحرف كبيرة.

28

كانا يسيران باتجاه براغ.

كانت تيريزا تفكر في الصورة حيث كان جسدها عارياً بين ذراعي المهندس. فبدأت تحاول أن تتحرّر من قلقها: حتى ولو سلّمت بأنّ هذه الصورة موجودة فعلاً، فلن تتسنّى لتوماس رؤيتها. لأنّ الصورة لا تخدم هؤلاء الناس في شيء إلاّ إذا استعملوها كورقة ابتزاز لتيريزا. مما يعني أنّ هذه الصورة إن أرسلت إلى توماس تفقد كل قيمتها في الحال.

ولكن ماذا سيحدث لو أن رجال الشرطة قرروا ألا يهتموا بأمر تيريزا مطلقاً؟ في هذه الحالة، ستصير الصورة وسيلة جيدة للمزاح. وإن عنَّ على بال أحدهم وَضْعها في ظرف وإرسالها على سبيل المزاح إلى عنوان توماس، فلن يمنعه أحد من ذلك.

وماذا سيحصل لو أنّ توماس تلقّى مثل هذه الصورة. هل سيطردها خارجاً؟ ربما لا. أو على الأصح لا. ولكن صرح حبهما الهش سوف ينهار تماماً لأنه مرتكز على العمود الوحيد لوفائها. وعلاقات الحب هي مثل الإمبراطوريات، ما إن يختفي المبدأ الذي بُنيت على أساسه حتى تختفي معه أيضاً.

كانت هناك صورة ماثلة أمام عينيها: صورة الأرنب البري وهو ينسحب مسرعاً من ثلم وخفير صيد بقبّعة خضراء وجرس كنيسة في أعلى الغابة.

كانت تودّ أن تقول لتوماس إنّ عليهما ترك براغ بعيداً، بعيداً عن الأطفال الذين يدفنون طيور الزاغ أحياء، بعيداً عن الشرطة، بعيداً عن الفتيات المسلّحات بالمظلاّت. كانت تودّ أن تقول له إنه يجب عليها الانتقال للعيش في الريف، وإن في هذا طريق خلاصهما.

التفتت نحوه. ولكن توماس كان صامتاً وعيناه شاخصتان إلى الطريق الممتد أمامه.. كانت عاجزة عن اختراق سور الصمت الذي يعلو بينهما. وفي الحالة نفسها التي كانت عليها عندما كانت تنزل من «مون - دو - بيير»: كانت تشعر بتشنج في معدتها وبرغبة في التقيؤ. كان توماس يثير فيها الذعر فهو أقوى منها بكثير وهي أضعف منه بكثير. وكان يملي عليها أوامر لا تفهمها. وهي تحاول جاهدة تنفيذها ولكنها لم تكن تعرف كيف تتصرف.

كانت تريد الرجوع إلى «مون - دو - بيير» والطلب من الرجل

صاحب البندقية أن يسمح لها بعصب عينيها، والاستناد إلى جذع شجرة الكستناء. كانت راغبة في الموت.

29

استيقظتْ فوجدَت أنها وحدها في البيت.

خرجت ومشت باتجاه الشوارع التي تحاذي نهر الفلتافا. كانت راغبة في رؤية النهر والتوقف عند الضفة والنظر طويلاً إلى الماء. لأن رؤية الماء الجاري تهدّئ وتُشفي. النهر يجري عبر القرون وقصص الناس لا تنفك تحدث على ضفافه، ولكنها ما إن تحدث حتى تُنسى في اليوم التالي والنهر لا يتوقف عن الجريان.

كانت تنظر إلى الأسفل متكئة إلى الدرابزين. كانت هذه أطراف براغ حين يجتاز النهر المدينة تاركاً وراءه روعة «هردخين» والكنائس: كان النهر هناك يشبه ممثلة بعد انتهاء العرض المسرحي منهكة وساهمة البال. كانت المياه تسيل وسط ضفاف متسخة محاطة بأسياج وبحيطان توجد خلفها مصانع وملاعب مهجورة.

نظرت طويلاً إلى الماء الذي يبدو في هذا المكان أكثر حزناً وأكثر قتامة. ثم لمحت فجأة شيئاً غريباً وسط النهر، أحمر، نعم، إنه مقعد. مقعد خشبي أرجله معدنية كتلك المقاعد التي يوجد منها بكثرة في حدائق براغ العامة. كان يعوم ببطء في وسط نهر الفلتافا ويعوم خلفه مقعد ثانٍ، ثم معقد ثالث ومقعد رابع. ففهمت تيريزا أخيراً أنها كانت ترى مقاعد الحدائق العامة في براغ تغادر المدينة منجرفة مع تيار الماء. كان هناك الكثير منها ودائماً بتزايد. كانت تسبح فوق الماء مثل أوراق الخريف حين تحملها المياه بعيداً عن الغابات. كان منها الأحمر والأصفر والأزرق.

استدارت تريد أن تسأل الناس ما معنى الذي يجري. تسألهم لماذا

كانت مقاعد الحدائق العامة في براغ تغادر مع التيار؟ ولكن الناس كانوا يمرّون أمامها لامبالين. فسيّان عندهم أن يجري النهر عبر القرون في وسط مدينتهم الزائلة.

أخذت تتأمل الماء من جديد. كانت تشعر بحزن لامتناهٍ وتدرك أن هذا المشهد كان بمثابة وداع، وداع من الحياة التي تغادر مع موكب ألوانها.

كانت المقاعد قد توارت عن مدى رؤيتها. ولكنها رأت أيضاً بضعة مقاعد أخيرة متخلفة عن الأخرى. ثم رأت أيضاً مقعداً أصفر وواحداً أزرق، كان الأخير.

القسم الخامس

الخفّة والثقل

1

عندما جاءت تيريزا إلى توماس في براغ، على غير انتظار، تضاجعا للحال في اليوم نفسه، كما سبق أن قلت في القسم الأول، ولكنها فيما بعد أصابتها الحمى. كانت ممدَّدة على سريره وكان جالساً قربها وهو مقتنع بأنها طفل وُضع في سلة وأُرسل مع مجرى المياه.

ومنذ ذلك الحين وهو يهوى صورة الولد اللقيط هذه، ويفكر دائماً في الخرافات القديمة التي تظهر فيها هذه الصورة. ربّما هنا يكمن الحافز الخفي الذي دفعه إلى الذهاب للتفتيش عن ترجمة «أوديب» لسوفوكليس.

قصة «أوديب» معروفة جداً: ومفادها أنّ راعياً عثر على لقيط رضيع فحمله إلى الملك بوليب فاحتضنه. عندما كبر «أوديب» صادف على درب جبلية عربة كان يسافر فيها أمير مجهول. فتخاصما وقتل «أوديب» الأمير. فيما بعد، تزوج من الملكة جوكاست وأصبح ملكاً على «طيبة». لم يكن يعلم أنّ الرجل الذي قتله في الماضي في الجبال كان أباه وأنّ المرأة التي يضاجعها كانت أمه. في غضون ذلك، كانت المصائب تنزل بأبناء رعيته وتثقل كاهلهم بالأمراض. وعندما فهم

«أوديب» أنه هو نفسه كان المسؤول عن عذاباتهم، ففقأ عينيه بالدبابيس وغادر «طيبة» إلى الأبد.

2

هؤلاء الذين يعتقدون أنّ الأنظمة الشيوعية في أوروبا الشرقية هي فقط من صنع مجرمين، فإنهم يغفلون حقيقة أساسية: الأنظمة المجرمة لم ينشئها أناس مجرمون وإنما أُناس متحمسون ومُقتنعون بأنهم وجدوا الطريق الوحيد الذي يؤدي إلى الجنة. فأخذوا يدافعون ببسالة عن هذا الطريق، ومن أجل هذا قاموا بإعدام الكثيرين. ثم، فيما بعد، أصبح جليّاً وواضحاً أكثر من نور النهار، أنّ الجنة ليست موجودة وأنّ المتحمسين كانوا إذاً مجرد سفّاحين.

عندئذ، أخذ كل واحد يقوم بمهاجمة الشيوعيين قائلاً: «أنتم المسؤولون عن مصائب هذا البلد (فهو معوزٌ ومفلس) وعن خسارته لاستقلاله (فهو واقع تحت سيطرة الروس) وعن الجرائم القضائية!».

أما المتَّهمون فكانوا يجيبون: لم نكن عارفين! لقد خُدعنا! كنا مؤمنين بالقضية! نحن أبرياء في قرارة قلوبنا.

كان الجدال يتمحور حول هذا السؤال: هل كان صحيحاً أنهم لم يكونوا عارفين؟ أم أنهم كانوا يتظاهرون فقط بأنهم غير عارفين؟

كان توماس يتابع هذا الجدال (كحال عشرة ملايين من التشيكيين) وكان يفكر في أنه يوجد بالتأكيد بين الشيوعيين أُناس لم يكونوا على أية حال جاهلين إلى هذا الحد (كان يفترض بهم على الأقل أن يكونوا قد سمعوا الكلام على الفظائع التي ارتكبت والتي لا تزال تُرتكب في روسيا ما بعد الثورة). ولكن كان من المحتمل أيضاً ألا تكون أغلبيتهم مطّلعة فعلاً على مجريات الأمور.

وكان يفكر أنّ السؤال الأساسي ليس: هل كانوا عارفين؟ بل: هل هم أبرياء لأنهم غير عارفين؟ أيكون الغبيّ الجالس على العرش منزّه عن كل مسؤولية فقط لأنه غبي؟

فلنُسلّم جدلاً بأنّ القاضي التشيكي الذي كان يطالب، في بداية الخمسينات، بعقوبة الإعدام لرجل بريء، لنُسلّم أنه كان مخدوعاً من الشرطة الروسية السرية ومن نظام بلاده. ولكن الآن، قد عرف الجميع أن التهم باطلة وأنّ المحكومين أبرياء، كيف بإمكان القاضي نفسه أن يحتشد للدفاع عن براءة ذمته وأن يلطم صدره قائلاً: ضميري لا تشوبه شائبة، لم أكن أعرف هكذا كنت أعتقد! ولكن ألا تكمن غلطته التي لا تعوّض هنا بقوله: «لم أكن عارفاً، هكذا كنت أعتقد!»؟.

عندما تذكر توماس حكاية أُوديب. أُوديب أيضاً لم يكن عارفاً بأنه يضاجع أمه، ومع ذلك فإنه عندما عرف بالأمر لم يجد نفسه بريئاً. ولم يستطع تحمّل مشهد الشقاء الذي سببه جهله ففقأ عينيه وغادر «طيبة» وهو أعمى.

كان توماس يسمع زعيق الشيوعيين وهم يدافعون عن براءة ذمتهم، ويفكر: بسبب جهلكم فقد هذا البلد حريته لقرون عديدة مقبلة وتزعقون قائلين إنكم أبرياء؟ كيف تجرؤون بعد على النظر حواليكم؟ كيف، ألم تصابوا بالهلع؟ أوليس لكم عيون لتبصروا! لو كانت لكم عيون حقاً لكنتم فقأتموها وغادرتم «طيبة»!

كانت هذه المقارنة تروق له إلى حد أنه كان يستعملها مراراً في أحاديثه مع أصدقائه، وكان يعبّر عنها بعبارات أكثر لذعاً وأكثر فصاحة.

كان يقرأ في تلك الفترة، مثل كل المثقفين، مجلة أسبوعية يطبع منها ثلاثمائة نسخة وينشرها اتحاد الكتّاب التشيكيين الذي اكتسب استقلالاً ذاتياً لا يُستهان به في ظل النظام والذي كان يتكلم أشياء لا يجرؤ الآخرون على التفوّه بها علانية. كانت المجلة الخاصة بهؤلاء

الكتّاب تنشر مقالات يسألون فيها أسئلة على نمط «من هو المذنب، أو إلى أي حدّ ارتكبت جرائم قضائية خلال المحاكمات السياسية في السنوات الأولى للنظام الشيوعي»؟

كان السؤال ذاته يتكرر دائماً في كل هذه المجادلات وهو: هل كانوا عارفين أم لم يكونوا عارفين؟ وبما أنّ توماس كان يعتبر هذه المسألة ثانوية، كتب في ذات يوم خواطره عن أوديب وأرسلها إلى المجلة الأسبوعية. بعد شهر تلقّى جواباً من مسؤولي المجلة يتوسلون إليه أن يمرّ بمكتب التحرير. وعندما ذهب إلى هناك، استقبله صحافي قصير القامة وفي غاية الاستقامة. ثم اقترح عليه أن يغيّر من تركيبة إحدى الجمل. وظهر المقال فيما بعد في الصفحة ما قبل الأخيرة في زاوية «رسائل القراء».

لم يكن توماس راضياً إطلاقاً عن المقال. كانوا قد ارتأوا استدعاءه إلى المجلة لكي يجعلوه يوافق على تغيير في تركيبة إحدى الجمل، ولكنهم اقتطعوا جزءاً كبيراً من المقال، فصارت خواطره تقتصر على فكرة رئيسية (مبسطة أكثر مما ينبغي وتعسفية) ولم تعد تعجبه إطلاقاً.

حدث ذلك أثناء ربيع 1968. كان ألكسندر دوبتشك مستلماً سدّة الحكم ومُحاطاً بالشيوعيين الذين كانوا يحسون أنهم مذنبون ومستعدون لعمل شيء ما من أجل إصلاح خطئهم. ولكن الشيوعيين الآخرين الذين كانوا يزعقون بأنهم أبرياء، كانوا خائفين من أن يحيلهم الشعب الغاضب إلى المحاكمة. وكانوا يذهبون كل يوم ليشكوا أمرهم إلى السفير الروسي ويستجدوا دعمه. وعندما نُشرت رسالة توماس، أطلق هؤلاء الصرخة: هل وصل الأمر إلى هذا الحد! يتجرأون على الكتابة علانية بأنه يجب فقء عيوننا!

بعد شهرين أو ثلاثة قرر الروس عدم السماح بالجدال الحرّ في المناطق التابعة لهم واحتل جيشهم في غضون ليلة واحدة بلد توماس.

3

كان توماس بعد رجوعه من زوريخ قد وجد وظيفة له في المستشفى نفسه الذي كان يعمل فيه في براغ. ولكن، بعد قليل من الوقت استدعاه رئيس القسم.

قال له: «يا زميلي العزيز، في النتيجة أنت لست كاتباً ولا صحافياً، لست منقذ الشعب، بل أنت طبيب ورجل علم. وأنا لا أودّ أن أخسرك وسأفعل كل ما في وسعي للاحتفاظ بك هنا. ولكنني أرى أنه يجب أن ترجع عن هذا المقال الذي كتبته بخصوص «أوديب». هل أنت متمسك به إلى حد بعيد؟».

فقال توماس وهو يتذكر أنّ ثلث مقاله قد اقتُطع: «أستاذي، إنه آخر شيء يمكن أن أتمسّك به في هذا العالم».

قال رئيس القسم: «هل لديك فكرة عن مجريات الأمور؟».

كان يدرك أنّ هناك أمرين في الميزان: من جهة شرفه (الذي كان يقضي بألا يتراجع عمّا كتبه) ومن جهة ثانية هناك الأمر الذي تعوّد على اعتباره هدف حياته (أي عمله كرجل علم وطبيب).

أردف رئيس القسم: «تلك عادة قروسطية أن نفرض على رجل ما أن يرجع عن كلامه. لكن ماذا تعني عبارة «رجع عن كلامه»؟ في أيامنا هذه، ليس في إمكاننا أن نرجع عن قول فكرة، بل في إمكاننا فقط أن ننقضها من الأساس. وبما أنّ الرجوع عن الكلام أمر مستحيل يا زميلي العزيز، لا بل كلاميّ بحت وشكلي ووهمي وسحري، فإنّي لا أفهم لماذا لا تنفّذ لهم ما يطلبون منك. ففي مجتمع يحكمه الإرهاب، لا قيمة للبيانات، فهي مأخوذة بالابتزاز والإكراه! لذلك يجدر برجل شريف ألاّ يعيرها اهتماماً وألاّ يصغي إليها. أقول لك ذلك يا زميلي

العزيز من أجل مصلحتي ومصلحة مرضاك. يجب أن تبقى في وظيفتك».

فقال توماس والتعاسة تبدو على وجهه: «أستاذي، من المؤكد أنك محق في ما تقول».

- «ولكن؟» قال رئيس القسم وهو يجهد لقراءة أفكاره.

- أنا خائف من أن أشعر بالخجل؟

- لكن مِنْ مَن؟ أتولي اعتباراً كبيراً للناس الذين يحيطون بك حتى تهتم بما يفكرون؟

- «لا»، قال توماس. «لا أولي اعتباراً كبيراً للناس».

أضاف رئيس القسم: «على كل حال، لقد أكّدوا لي أنّ الإفادة لن تكون علنية. فهُم بيروقراطيون ويحتاجون إلى أن يضعوا في ملفّاتهم شيئاً يثبت أنك لست ضد النظام. وهذا ليتمكنوا من الدفاع عن أنفسهم في حال أُخِذَ عليهم إبقاؤك في وظيفتك. لقد وعدوني بأن تبقى إفادتك سراً بينك وبين السلطات، دون أن تكون لهم نية في نشرها».

فقال توماس مُنهياً الحديث: «أعطني مهلة أسبوع لأفكر».

4

كان توماس يُعَدُّ أفضل جرّاح في المستشفى. وكان يُشاع أن رئيس الخدمة الذي كان يقترب من سن التقاعد، سيترك له منصبه عما قريب. وعندما سرى الخبر بأنّ السلطات العليا كانت تفرض عليه تقديم إفادة نقد ذاتية، لم يشكّ أحد في أنه سيمتثل للأمر.

وهذا أول أمر فاجأه: أن يراهن الجميع على عدم استقامته مع أنه لم يقم بشيء يبرهن على صحة هذا الافتراض، بدلَ أن يُراهنوا على استقامته.

والشيء الآخر هو ردّ فعلهم أمام تصرّفه المفترض. ويمكنني بالإجمال أن أقسم ردّ الفعل إلى فئتين:

فالنموذج الأول لردّ الفعل يتضمن هؤلاء الذين كانوا هم أنفسهم (هم أو أقاربهم) قد تنكّروا لشيء ما، والذين أُجبروا على التصريح علانية أنهم على وفاق مع نظام الاحتلال، أو هؤلاء الذين كانوا يتحضرون للقيام بذلك (على مضض طبعاً، لأنّ أحداً لا يقوم بذلك عن طيبة خاطر).

كان هؤلاء الناس بالذات يوجهون إليه ابتسامة غريبة لم يكن له عهد بها من قبل: الابتسامة الخجولة لتواطؤ سري، كمثل ابتسامة رجلَيْن يتلاقيان صدفة في المبغى فيعتريهما في البداية شعور بالخجل. ولكنهما فيما بعد يُسرّان لكون شعورهما بالخجل متبادلاً، فينشأ بينهما ما يسمّى رابطاً أخوياً.

كانوا يبتسمون له بتحبّب متزايد لا سيما وأنّه لم يكن يُعدّ امتثالياً في وقت من الأوقات. لذلك، ستكون موافقته المفترضة على عرض رئيس القسم شاهداً على أنّ الجبن آخذ في أن يتحول ببطء ولكن بِيَقين إلى عادة في السلوك. وسيكفّ بعد وقت قصير عن أن يُحسب كذلك. فأدرك توماس بشيء من الهلع أنه لو كتب حقاً هذه الإفادة التي يملونها عليه، لا شك في أنهم عندئذ سيدعونه لتناول كأس في بيوتهم وسيسعون إلى اكتساب صداقته.

أما النموذج الثاني لردّ الفعل فيتضمن هؤلاء الذين كانوا هم أنفسهم (هم أو أقاربهم) مضطهدين والذين كانوا يرفضون الموافقة على أية مساومة مع السلطة المحتلة، أو هؤلاء الذين لم يكن أحد ليطالبهم بمساومة أو بإفادة (ربما لأنهم كانوا صغاراً في السنّ ولم يكونوا بعد قد تورّطوا في شيء) لأن لا أحد كان مقتنعاً بأنهم سيقبلون بذلك.

س. . . هو أحد هؤلاء وهو طبيب شاب ومتفوق فضلاً عن ذلك. . سأل توماس ذات يوم: «ماذا، هل كتبت لهم «ذاك الشيء؟»».

- «عمّ تتكلم، لو سمحت؟».

- «عن رجوعك عما قلته»، قال س. . . ولم يكن يقول ذلك عن خبث بل حتى أنه كان يبتسم. وكانت هذه الابتسامة مختلفة تماماً عن أنواع الابتسامات الأخرى، ابتسامة الفوقية الأخلاقية الراضية عن نفسها.

قال توماس: «اسمع، ماذا تعرف بشأن إفادة الرجوع عما قلته؟ هل قرأتها؟».

- «لا»، أجاب س. .

فقال توماس: «عمَّ تتحدّث إذاً؟».

كان س. . . يبتسم الابتسامة الراضية نفسها: «هيا، نعرف كيف تجري الأمور. فهذه الإفادات تكتب على شكل رسالة موجهة إلى المدير أو إلى الوزير أو إلى تارتمبيون الذي يَعِدُ بأنّ الرسالة لن تُنشر كي لا يشعر كاتبها بالمذلة. هذه هي الحال، أليس كذلك؟».

رفع توماس كتفيه مستهزئاً وانتظر أن يُكمل.

«وبعد ذلك ، تُوضع الإفادة في الملف، ولكن كاتبها يعرف أن بإمكانهم أن ينشروها في أية لحظة. من هنا، فإنه لن يعود بإمكانه أن يقول شيئاً ولا أن ينتقد أي أمر ولا أن يعارض، لأنّ إفادته ستنشر حينئذ وسيُفْتَضَح أمره أمام الجميع. وفي نهاية الأمر، إنها طريقة لطيفة نوعاً ما. فبالإمكان تصور طرقٍ أسوأ منها بكثير».

قال توماس: «أجل، تلك طريقة لطيفة جداً. ولكني متشوّق كثيراً لأعرف من قال لك إنني وافقتُ».

رفع الزميل كتفيه هازئاً ولكن الابتسامة لم تتلاشَ عن وجهه.

فَفَهِم توماس أمراً غريباً. لقد كان «الجميع» يبتسمون له، وكان «الجميع» يتمنون أن يكتب إفادته، لأنه لو رجع عن كلامه فسيُدخل السرور إلى قلوب الجميع. كان بعضهم مغتبطين لأنّ تضخم الجُبن يعمّم سلوكهم الخاص ويُرجع لهم الشرف المفقود. وكان آخرون قد اعتادوا على أن يجدوا شرفهم امتيازاً خاصاً لا ينوون التخلي عنه مطلقاً. لذلك، فإنهم يكنّون للجبناء محبة سرية، فلولاهم لما كانت شجاعتهم إلاّ مجرد جهدٍ غير مجدٍ وغير مثير للإعجاب.

لم يكن توماس قادراً على تحمّل هذه الابتسامات، وكان يتخيل أنها تلاحقه في كل مكان، وحتى على وجوه المارّة المجهولين في الشارع. كما وأنه لم يعد قادراً على النوم. ماذا؟ هل كان يعير هؤلاء الناس أهمية إلى هذا الحد؟ إطلاقاً. فهو لم يكن يبالي بأمرهم وكان يأخذ على نفسه أنه سمح لنظراتهم بأن تشوّش على أفكاره. فهل يمكن لمن كان لا يقيم أي اعتبار للآخرين أن يجعل مصيره مرتبطاً إلى حدٍّ بعيد بحكم الآخرين عليه؟

ربما ارتيابه المتأصّل بالناس (أي شكّه فيما يختص بحقهم في تقرير مصيره أو الحكم عليه) قد لعب دوراً في اختياره لمهنة تُثنيه عن أن يكون قبلة الأنظار. فذلك الذي يختار مثلاً مهنة الرجل السياسي يجعل عن طواعية من الجمهور حَكَماً عليه مؤمِناً إيماناً ساذجاً وصريحاً بأنّ عليه أن يكسب ودّه. وكما أنَّ احتمال معاداة الجموع له يحثه بالتالي على القيام بالمآثر أكثر فأكثر تطلباً، كذلك فإنّ صعوبة تشخيص مرض ما تُثير توماس بالطريقة نفسها.

إنّ الطبيب (بخلاف الرجل السياسي أو الممثل) لا يَحْكم عليه إلاّ مرضاه وزملاؤه المقربون، وهؤلاء يحكمون عليه مباشرة وصراحة ودون وسائط وبين أربعة حيطان. وهو يمكنه، في مواجهته لعيون هؤلاء الذين يحكمون عليه، أن يردّ مباشرة وأن يوضح رأيه مدافعاً عن

نفسه. ولكن توماس الآن (وللمرة الأولى في حياته) كان يجد نفسه محط أنظار كثيرة لا عدَّ لها ولا يستطيع إحصاءها. وهو حيالها لم يكن يستطيع أن يردّ لا بنظراته ولا بكلمات، بل كان متروكاً تحت رحمتها. كانوا يتحدثون عنه في كل مكان، في المستشفى وخارج المستشفى (فَبْراغ كانت تعيش على أعصابها، وكانت أخبار هؤلاء الذين يستسلمون ويَشون ويتعاونون مع النظام تنتشر بسرعة مدهشة مشابهة لسرعة قرع الطبول الأفريقية)، وكان يعرف هذا الأمر دون أن يستطيع القيام بشيء حياله. كان هو نفسه مدهوشاً من رؤيته إلى أي حدّ كان هذا غير محتمل، وفي أي ذعر يغرقه. كان الاهتمام الذي يوليه إياه الجميع يجعله معتكر المزاج كمثل تدافع حشود أو كمثل التلامس مع أشخاص ينزعون عنّا ثيابنا في كابوس.

ذهب للقاء رئيس القسم وأبلغه أنه لن يوقّع على شيء.

شدّ رئيس القسم على يده بقوة أكبر من المعتاد بكثير، وقال إنه كان يتوقع منه أن يتخذ هذا القرار.

فقال توماس: «أستاذي، ربما بإمكانك أن تُبقيني في عملي حتى ولو لم أعطِ إفادتي». وكأنه كان يودّ أن يلمح له بأنه يكفي، في حال أُجبر على الرحيل، أن يهدد جميع زملائه بتقديم استقالاتهم.

ولكن أحداً لم يفكر في التلويح باستقالته. وكان توماس مضطّراً بعد ذلك بوقت قصير، (شدّ رئيس القسم على يده بقوة أكبر ممّا في المرة السابقة، إلى درجة أن جلد يده صار مزرَقاً) إلى ترك منصبه في المستشفى.

5

وجد، أوّل الأمر، عملاً له في عيادة ريفية تقع على بُعد أربعة

وعشرين كيلومتراً من براغ. كان يذهب إليها كل يوم بالقطار ويعود منهكاً من التعب. ثم بعد مرور سنة، وُفِّق إلى إيجاد عمل له أكثر راحة ولكن غير هام البتة، في مستوصف في الضواحي. هناك، لم يعد يستطيع أن يكرّس نفسه للجراحة بل كان يعمل كطبيب عام. كانت صالة الانتظار تكتظ بالمرضى، وكان بالكاد يستطيع أن يخصص خمس دقائق لكلّ مريض. كان يصف لهم حبوباً من الأسبيرين أو يكتب شهادات مَرَضية ليقدموها لأرباب عملهم، أو يرسلهم لاستشارة أطباء في الأقسام المختصة. وهكذا لم يعد يعتبر نفسه طبيباً بل موظفاً في مكتب.

ثم، في ذات يوم، وعند انتهاء الخدمة، جاء لزيارته رجل خمسيني كانت تمنحه سمنته مظهراً جدياً. عرّف الرجل عن نفسه بصفته رئيس دائرة في وزارة الداخلية. ثمَّ دعا توماس للجلوس في المقهى المقابل.

طلب قنينة نبيذ فاعترض توماس قائلاً: «أقود سيارة وإذا أوقفتني الشرطة، ستأخذ منّي رخصة السير». عندئذ ابتسم رجل وزارة الداخلية: «وإذا حدث لك شيء، يمكنك ذكر اسمي»، ثم أعطى توماس بطاقة كُتب عليها اسمه (المزيّف طبعاً) ورقم هاتف الوزارة.

ثم استفاض يشرح لتوماس عن مقدار الاحترام الذي يكنّه له. فالجميع في الوزارة ليسوا راضين على أن تقتصر مهمة جرّاح في مثل مكانته، على وصف حبوب الأسبيرين في مستوصف في الضاحية. وأفهمه أيضاً بطريقة غير مباشرة بأنّ الشرطة، وإن لم تكن تستطيع التصريح عن ذلك، كانت تأسف لطرد الاختصاصيين من مناصبهم بمثل هذه الوقاحة.

وبما أنّ زمناً طويلاً قد مرَّ ولم يسمع توماس أحداً يُحسن الثناء

عليه، فإنه كان يستمع إذاً بانتباه كلي إلى الرجل القصير المتكرّش؟ ويكتشف لدهشته أنه كان مطّلعاً كلّياً وبالتفاصيل على نجاحاته في حقل الجراحة. لَكَم نحن ضعفاء أمام المديح! لم يكن في مستطاع توماس لجم نفسه عن أن يأخذ على محمل الجدّ ما كان يقوله رجل الوزارة.

ولكن ذلك لم يكن بسبب الغرور فقط بل، خاصّة، لانعدام الخبرة. فَحين يجد المرء نفسه في حضرة شخص متودد ومراعٍ ومؤدّب، يصعب عليه كثيراً أن يُقنع نفسه في كل دقيقة بأنّ لا شيء مما كان يقوله صحيح، أو أن لا شيء حقيقي. ولكي ينجح في «ألاّ يصدّق» (بطريقة مستمرة وجذرية ومن دون دقيقة تردد) يلزمه جهد خارق وتدريب أيضاً، أي محاضر استجواب بوليسية متكررة. وهذا التدريب تحديداً هو ما يفتقر إليه توماس.

ثم تابع رجل الوزارة: «دكتور، نعرف أنّ مركزك كان رفيعاً في زوريخ. ونحن نقدّر كثيراً رجوعك إلى هنا. تلك مبادرة جيدة من قبلك. فأنت تعرف أن مكانك هنا». ثم أضاف وكأنه يريد توجيه ملامة لتوماس «ولكن مكانك الحقيقي في غرفة العمليات!».

فقال توماس: «أشاطرك الرأي».

بعد صمت قليل، أردف الرجل بصوت يُدمي الفؤاد: «ولكن، قلْ لي يا دكتور، أفي اعتقادك حقاً أنه يجب فَقْءُ عيون الشيوعيين؟ ألا ترى أنه أمر مستغرب أن يكون هذا الكلام صادراً عنك أنت بالذات؟ أنت الذي أرجعْت العافية لأناس كثيرين؟».

فاعترض توماس قائلاً: «ولكن هذا لا معنى له. اقرأ جيداً ما كتبتُ».

قال رجل الوزارة بلهجة تفتعل الأسف: «قرأتُه».

- وهل تُراني كتبتُ أنه يجب فقء عيون الشيوعيين؟

فقال رجل الوزارة وصوته يزداد تحسراً: «هذا ما فهمه الجميع».

- لو أنك قرأت النص كاملاً، كما كنت قد كتبته، لما أمكنك قط أن تفكّر في شيء مماثل. لقد اختُصر النص قليلاً. .

فقال رجل الوزارة وقد أرهف السمع: «ماذا؟ ألم ينشروا مقالك كما كتبته؟».

- اختصروا منه.

- كثيراً؟

- الثلث تقريباً.

كان رجل الوزارة يبدو وكأنّه صادق في سخطه: «واضحٌ أنّ هذا لم يكن نزيهاً من قِبلهم».

هزّ توماس كتفيه هازئاً.

- كان يُفترض بك أن تدافع عن حقوقك! كان يُفترض بك أن تطالب فوراً بتصويبٍ ما!

فقال توماس: «ماذا تريدني أن أفعل! قَدِم الروس بعد ذلك بوقت قصير، فانشغل الجميع بهموم أخرى».

- لكن لماذا تجعل الآخرين يعتقدون بأنّ طبيباً في مكانتك يتمنّى أن يفقد أناس معيّنون بَصَرهم؟

- مهلاً! لقد ظهر مقالي في مكان ما في آخر المجلة وسط رسائل أخرى. وهو لم يثر انتباه أحد، إلاّ السفارة الروسية، طبعاً لأنّ ذلك كان يتوافق مع رغباتهم.

- لا تقل هذا يا دكتور! لقد تجادلت بنفسي مع أناس كثيرين حدثوني عن مقالك وكانوا كلهم مدهوشين من أن تكون قادراً على كتابته. ولكن عندما قلت لي إنّ مقالك لم ينشر بالضبط كما كتبته،

صار كل شيء أكثر وضوحاً بالنسبة لي. هل أوحوا لك إذاً بكتابته؟

قال توماس: «لا ، أرسلته من تلقاء ذاتي».

- هل كنت على معرفة بهؤلاء الناس؟

- أيهم؟

- هؤلاء الذين نشروا مقالك.

- لا.

- ألم تكلمهم من قبل؟

- لم أرَهم سوى مرة واحدة. عندما طلبوا مني أن أمرّ بقسم التحرير.

- ولأي غرض؟

- بسبب ذاك المقال.

- ومع مَنْ تحدثتَ؟

- مع صحافي.

- وما كان اسمه؟

أدرك توماس أخيراً أنّ هذا كان استجواباً. فقال في نفسه إنّ كلمة واحدة يقولها يمكنها أن تضع أحدهم في خطر. كان يعرف بكل تأكيد اسم الصحافي ولكنه أنكر: «لا أعرف».

فقال الرجل بنبرة مفعمة بالسخط على انعدام الصدق هذا: «ولكن هيّا يا دكتور! يُفترض به أن يكون قد عرّف عن نفسه!».

إنه لمن المضحك - المبكي أن تصير أخلاقنا الحسنة بالتحديد في صالح الشرطة، والسبب أننا لم نتعلم الكذب. فصيغة الأمر: «قل الحقيقة!» التي رسّخها آباؤنا وأمهاتنا في أذهاننا، تجعلنا نشعر بطريقةٍ آلية بالعار حين نكذب حتى ولو كنّا أمام الشرطي الذي يستجوبنا. وإنه

لأسهلَ علينا أن نتخاصم معه وأن نشتمه (وهذا لا معنى له) من أن نكذب عليه صراحة (فيما هذا هو الأمر الوحيد الذي يجدر القيام به).

عندما سمع توماس رجل الوزارة يأخذ عليه انعدام الصدق، أحسّ بأنه مذنب تقريباً. ووجب عليه أن يقهر جداراً أخلاقياً لكي يتمكن من الاستمرار في كذبه: «لا شك في أنه قد عرّف عن نفسه، ولكن بما أن اسمه لم يكن يعني لي شيئاً، فقد نسيته في الحال».

- كيف كان شكله؟

كان الصحافي الذي ذهب لمقابلته، آنذاك، قصير القامة. وكان شعره أشقر وقصيراً جداً ومنتصباً. فحاول توماس أن يجد صفات مناقضة له تماماً فقال: «كان طويل القامة وكان شعره طويلاً أسود».

قال رجل الوزارة: «آه صحيح! وهل كانت ذقنه طويلة ومعقوفة؟»

فقال توماس: «أجل، تماماً».

- ومحني الظهر قليلاً؟

وردّد توماس مرة أخرى بعد أن فهم أنّ رجل الوزارة كان يشتبه بشخص ما: «أجل تماماً». إنَّ توماس لم يشِ بصحافي تعيس فحسب بل إنّ وشايته كانت فوق ذلك كاذبة.

- ولكن لماذا استدعاك؟ وعمّ تحدثتم؟

- كانوا يريدون أن أغيّر في تركيبة إحدى الجمل.

بدا هذا الجواب وكأنه ذريعة تافهة. فاغتاظ رجل الوزارة من جديد لأن توماس يرفض أن يقول الحقيقة: «هيا يا دكتور! لقد أكّدت لتوّك بأنهم حذفوا من النص ثلثه، والآن تقول لي بأنكما تحدثتما بخصوص تغيير جملة! ألا ترى أنّ هذا غير منطقي أبداً!».

وجد توماس على الفور وبسهولة أكبر جواباً، والسبب أنّ ما قاله كان الحقيقة عينها فقال وهو يضحك: «هذا ليس منطقياً، ولكن هذا

هو بالضبط ما حصل. لقد طلبوا مني أن أسمح لهم بالتغيير في تركيبة إحدى الجمل لكنهم فيما بعد اقتطعوا ثلث المقال».

من جديد هزَّ رجل الوزارة هازئاً وكأنه لم يكن في مستطاعه أن يستوعب تصرفاً لاأخلاقياً إلى هذا الحد، ثم قال: «لم يكن هؤلاء الناس نزيهين معك».

أفرغ كأس النبيذ مستنتجاً: «دكتور، لقد كنت ضحية التلاعب. إنه لأمر يدعو إلى الأسف أن تدفع الثمن أنت ومرضاك. نعرف تماماً ما تتحلى به من مزايا يا دكتور. وسنرى ما في وسعنا أن نفعل».

مدّ يده إلى توماس مصافحاً ثم استأذن بالانصراف بمحبة قلبية. ثم خرجا من المقهى وتوجّه كل منهما إلى سيارته.

6

عكّر هذا اللقاء مزاج توماس. فهو كان يأخذ على نفسه استسلامه للنبرة البشوشة للحديث. ما دام قد قبل بالتحدث مع الشرطي (لم يكن مستعداً في الأساس لموقف كهذا ولم يكن عارفاً ماذا يبيح القانون وماذا يحظّر) كان يجدر به على الأقل أن يرفض الذهاب معه إلى المقهى ومشاركته في شرب كأس وكأنه يشارك صديقاً! ماذا لو رآه أحد، أحد يعرف ذلك الرجل! بالطبع سيكون على استعداد لأن يستنتج أنّ توماس يعمل في خدمة الشرطة! ثم لماذا قال لهذا الشرطي إنّ مقاله قد اجتُزئ منه! لماذا أخبره بهذا الأمر وليس هناك سبب يدعوه إلى ذلك؟ شعر عندها بأنه مستاء من نفسه كل الاستياء.

بعد مرور خمسة عشر يوماً، رجع رجل الوزارة. واقترح عليه الذهاب إلى المقهى المقابل كما في المرة السابقة. ولكن توماس فضّل البقاء في حجرة المعاينة.

فقال الآخر وهو يبتسم: «دكتور، أفهمك».

فصدمت توماس هذه الجملة. لأنّ رجل الوزارة كان يتكلم مثل لاعب شطرنج يؤكد لخصمه أنه سجّل خطأ في النقلة السابقة.

كانا جالسين على كرسيهما وجهاً لوجه تفصل بينهما طاولة توماس. ثم أخذا يتحدثان لمدة عشر دقائق عن انتشار وباء الزكام الذي كان يجتاح البلاد آنذاك. ثم قال الرجل: «لقد فكرنا في وضعك يا دكتور. لو كان الأمر يتعلق بك وحدك، لكانت الأمور أكثر سهولة. ولكن علينا أن نحسب حساباً للرأي العام. إنّ مقالك، شئت أم أبيت، ساهم في إحياء الهستيريا المعادية للشيوعية. ولا أخفيك القول إنهم أوحوا لنا بمقاضاتك بسبب هذا المقال. فهناك شرعة قانونية تتعلق بذلك ومفادها تحريض الشعب على أعمال العنف».

توقف رجل وزارة الداخلية للحظة محدّقاً في عينيّ توماس، فرفع توماس كتفيه هازئاً. ثم تكلّم الرجل بنبرة مطمئنة: «لقد تخلينا عن هذه الفكرة. أيّاً تكن مسؤوليتك فإنّ مصلحة المجتمع تقضي بأن تكون في المكان حيث يمكن أن توظّف قدراتك بالشكل الأفضل. رئيس قسمك القديم يقدّرك جلّ تقدير كما وأننا سألنا عنك مرضاك. أنت اختصاصي كبير يا دكتور. لا يمكن لأحد أن يطالب طبيباً بأن يتعاطى السياسة. لقد جعلت من نفسك هزأة يا دكتور، عليك أن تصلح الأمر. من أجل هذا نودّ أن نقترح عليك نصاً لإفادة لكي تضعها حسب رأينا في تصرف الصحافة. ثم بعد ذلك نبذل كل ما في وسعنا لكي تُنشر في الوقت المناسب». ثم مدّ ورقة إلى توماس.

وعندما قرأ توماس ما جاء فيها، أصيب بالذهول. كان الأمر أسوأ بكثير مما طلب منه رئيس قسمه القديم أن يفعل قبل سنتين. إذ لم تكن الإفادة رجوعاً بسيطاً عن مقال «أُوديب»، بل كانت تتضمن جملاً عن حبّه للاتحاد السوفياتي ووفائه للحزب الشيوعي وتتضمن أيضاً اتهاماً

للمثقفين الذين كانوا، حسب ما جاء في الإفادة، يريدون أن يقودوا البلاد إلى الحرب الأهلية. ولكنها كانت تتضمن على الأخص تشهيراً بمحرري المجلة الأسبوعية الخاصة بالكتّاب وباسم الصحافي طويل القامة والمحني الظهر (لم يكن توماس قد قابله من قبل ولكنه كان يعرف اسمه، وقد شاهد صورته) الذي استغلَّ توماس عن قصد فشوّه معنى المقال وجعل منه نداءً معادياً للثورة. والسبب أن هؤلاء كانوا، استناداً إلى ما ورد في النص، أجبن من أن يكتبوا بأنفسهم مقالاً مماثلاً مفضّلين الاختباء خلف طبيب ساذج.

كان رجل الوزارة يقرأ الهلع في عينيّ توماس. انحنى إلى الأمام وربَّت بمودة على ركبة توماس تحت الطاولة: «دكتور، هذه مجرد مسوّدة. ستفكر مليّاً في الأمر وإذا ارتأيت أن تغيّر عبارة أو أخرى فسيكون بإمكاننا التفاهم بشأن ذلك، بكل تأكيد. فالنص «نصّك» في النهاية».

أعاد توماس الورقة إلى الشرطي وكأنه خاف أن يحتفظ بها في يده ثانية واحدة بعد. كان يتخيل، لوهلة، أنهم سيتحققون من بصمات أصابعه.

وبدل أن يستردّ رجل الوزارة الورقة، أبعد ذراعيه بحركة تنمّ عن دهشة مصطنعة (مثل إشارة البابا وهو يبارك الجموع من أعلى شرفته) ثم قال: «ولكن يا دكتور، لماذا تعيدها إليّ؟ يجب أن تحتفظ بها لتفكر في الأمر مليّاً في البيت».

هزَّ توماس رأسه نفياً، وهو يمسك بالورقة بصبرٍ في يده الممدودة. وكفَّ رجل الوزارة عن تقليد البابا الأعظم وهو يبارك الجموع، واقتنع أخيراً باستعادة الورقة.

كان توماس يريد أن يقول له بلهجة حازمة إنه لن يكتب شيئاً ولن

يوقّع على شيء.. ولكنه غيّر لهجته في اللحظة الأخيرة وقال بهدوء: «أنا لست أمياً. لماذا ينبغي عليّ أن أوقع على شيء لم أكتبه؟».

- جيد، جيد يا دكتور. يمكننا أن نسلك طريقاً معاكساً: تكتب في أول الأمر شيئاً بنفسك ومن ثمَّ نتباحث في شأنه سوية. أما الورقة التي قرأتها الآن فيمكنك على الأقل أن تستخدمها كنموذج.

لكنْ لماذا لم يرفض توماس حالاً وبشكل قاطع اقتراح الشرطي؟

لأنه تمسّك بهذه الفكرة بأسرع ما يمكن: زدْ على أنّ إفاداتٍ من هذا النوع ترمي إلى إفساد أخلاق أمة بكاملها (فالتعبئة السوفياتية كانت تسير في هذا الاتجاه) فالشرطة كانت تلاحق في وضع كوضعه هدفاً محدداً: إذ ربما كانوا يستعدون لإقامة محاكمة ضد صحافي المجلة الأسبوعية التي كان توماس بعث بمقاله لها. وفي هذه الحالة، ستكون إفادة توماس بمثابة وثيقة إثبات يستخدمونها في الحملة التي ستُشن على الصحافيين المذكورين.. ولو أنه رفض حالاً وبطريقة حازمة لا رجوع فيها، فهو سيخاطر إذاً بقيام الشرطة بنشر هذا النص المعدّ مسبقاً وإرفاقه بتوقيعه المزوّر. وعندئذ لن تنشر أية صحيفة إطلاقاً نفيه للخبر! ولن يصدق أحد من الناس أنه لم يكتب المقال بنفسه ولن يوقّعه. ألم يسبق له أن أدرك أنّ الناس يتلذّذون بتحقير الآخرين أكثر من أن يفسدوا هذه المتعة بالشروح والتفسيرات!

وإذا كان قد أعطى الشرطة أملاً بأنه سيكتب النص بنفسه، فهذا لكسب الوقت لأنه كتب رسالة استقالته في اليوم التالي. وكان يَفترض (وافتراضه في محله) أنه فيما لو هبط عن عمد إلى أسفل درجة في السلم الاجتماعي (والتي تَوجّب حينذاك على آلاف المثقفين ومن مختلف الفئات، الهبوط إليها) فإن الشرطة لن يكون في مستطاعها أن تملك أي وسيلة للضغط عليه، فتكفّ عن الاهتمام بأمره. ولن يقدروا أيضاً على نشر إفادة تدعي أنها موقّعة باسمه لأنّ الأمر ساعتَها لن يعود

قابلاً للتصديق. والسبب أنّ الإفادات الدنيئة العلنية تترافق عادة مع ترقيات موقّعيها وليس مع تدنّي أحوالهم.

ولكنّ الأطباء في بوهيميا هم مجرد موظفين وبإمكان الدولة تسريحهم من وظائفهم ساعة تشاء، ولكنها غير مضطرة إلى ذلك. حاول الموظف الذي قدّم له توماس استقالته أن يقنع توماس بالعدول عن ترك وظيفته. فهو كان مطّلعاً على شهرته ويحترمه. ففهم توماس فجأة أنه غير واثق بأنه قام بالاختيار المناسب. ولكنه شعر مع ذلك بأنه ملتزم بقراره هذا وكأنه عهد على الوفاء. فأصرّ عليه بعناد، وهكذا أصبح مُنظِّف زجاج.

7

لسنوات خَلَتْ، عندما كان توماس يقود سيارته من زوريخ إلى براغ، كان يردد قائلاً: «ليس من ذلك بدٌّ» وهو يفكر في حبه لتيريزا. وحين عبر الحدود ساوره الشك وبدأ يفكر فيما إذا كان قراره لا بدّ منه فعلاً: فَفَهِم حينئذٍ أن سلسلة الصدف التافهة التي حصلت قبل سبع سنوات هي التي دفعته باتجاه تيريزا (كانت هذه الصدف قد بدأت بمرض ألم عرق النَّسا الذي أصاب رئيس القسم) واقتادته إلى قفص لا سبيل إلى الفرار منه.

هل يجب الاستنتاج من هذا أنه لم يكن في حياته «ما ليس منه بدٌّ». إنه لم يكن في حياته ما يُسمّى ضرورة قصوى؟ حسب رأيي، ثمة ضرورة قصوى في حياته. وهي لا تتمثل في الحب بل في المهنة. فالشيء الذي دفعه للطب لم يكن الصدفة ولا القرار المنطقي وإنما رغبة داخلية دفينة.

إذا كان من سبيل لتصنيف الكائنات إلى فئات فسيجري هذا التصنيف بالطبع وفقاً لتلك الرغبات الدفينة التي تقودهم باتجاه هذا

النشاط أو ذاك، الذي يمارسونه طوال حياتهم. فكل فرنسيّ مثلاً مختلف عن الآخر، ولكن جميع ممثلي العالم متشابهون سواء كانوا في باريس أم في براغ أم في المسرح الأكثر تواضعاً في أحد الأرياف. لأن الممثل هو ذاك الذي يقتنع منذ الطفولة بأن يقدم عروضاً أمام الجمهور المجهول. فمن دون هذه الموافقة الجوهرية التي لا علاقة لها بالموهبة، بل هي شيء أعمق من الموهبة، لا يمكن للمرء أن يصير ممثلاً. كذلك، فإنّ الطبيب هو ذلك الذي يقبل أن يكرس نفسه للجسد البشري متحملاً جميع العواقب، طوال حياته. إنّ هذا العهد الأساسي (لا الموهبة أو البراعة) هو الذي يسمح له، في خلال سنته الدراسية الأولى، بالدخول إلى غرفة التشريح ليتخرجَ طبيباً بعد ذلك بست سنوات.

الجراحة ترفع المبدأ الإلزامي لمهنة الطب إلى حدّه الأقصى حيث يلامس البشريُّ الإلهيَّ. عندما يُضرب أحدهم بعنف على جمجمته بالهراوة، فإنه ينهار ويتوقف عن التنفس إلى الأبد. ولكنّه في جميع الأحوال سيتوقف يوماً عن التنفس. لا أهمية لهذه الجريمة سوى أنها عجّلت بما سيقوم به الله آجلاً. فهو لم يكن يشكّ في أن يجرؤ الإنسان يوماً على إدخال يده في أحشاء الجسم التي خلقها مغلّفة بعناية بالجلد ومختومة ومحجوبة عن الأنظار. عندما وضع توماس، لأول مرة، المبضع على جلد مريض خامد تحت تأثير المخدّر وعندما شقّ هذا الجلد بضربة قوية محكمة وفتّقه تبعاً لخط مستقيم ودقيق (كأنه قطعة لحم ميّتة أو كأنه رداء أو تنورة أو ستارة) أحسّ حينئذ بشعور وجيز لكن حاد وبأنه يخرق المقدسات. وهذا الشعور بالتحديد كان يشدّه في آن! هذه الضرورة، هذا الذي «لا بدّ منه» المتجذّر عميقاً في داخله والذي لم تدفعه إليه لا الصدفة ولا ألم عرق النّسا الذي أصاب رئيس القسم، ولا أيّ شيء آخر.

إذاً، كيف تمكّن في هذه الحالة من أن يتخلّص بهذه السرعة وبهذا الإصرار وبهذه السهولة من شيء متجذر في أعماقه إلى هذا الحدّ؟

ربما سيكون جوابه أنه تصرّف على هذا النحو ليمنع الشرطة من استغلاله. ولكن، ولنكن صريحين، حتى ولو كان هذا الأمر ممكناً على الصعيد النظري (فهناك حالات من هذا النوع حصلت فعلاً) فإنه قلّما كان محتملاً أن تقوم الشرطة بنشر إفادة مزوّرة مرفقة بتوقيعه.

من البديهي أن يملك الواحد منا الحق في أن يخاف حتى من المخاطر القليلة الاحتمال. فلنقبل بذلك. ولنسلّم أيضاً بأنه كان غاضباً من نفسه ومن رعونته بالذات وبأنه كان يريد أن يتحاشى علاقات جديدة مع الشرطة لا فائدة تُرجى منها سوى أنها تزيد من حدة شعوره بالضعف. ولنسلّم أيضاً بأنه قد خسر وظيفته فعلاً منذ زمن لأنّ عمله الآلي في المستوصف حيث كان يصف حبوباً من الأسبيرين لا علاقة له بالفكرة التي كان يكوّنها عن مهنة الطب. ومع ذلك كله، فإنّ فجائية قراره قد بدت لي غريبة. ألا تظنون معي أنها تخفي في طياتها شيئاً ما أكثر غموضاً، شيئاً يتعدى مجال تفكيره المنطقي؟

8

كان توماس قد شرع يحب بيتهوفن ليُدخل السرور إلى قلب تيريزا. ولكنه لم يكن مولعاً بالموسيقى، لذا أشكّ في أن يكون عارفاً بالحكاية الحقيقية لِلازِمة بيتهوفن الشهيرة: «أليس من ذلك بدّ؟ ليس من ذلك بدّ».

لقد جرت الحكاية على هذا النحو: كان هناك رجل يدعى دمبشر وكان مديناً لبيتهوفن بخمسين فوراناً. وذات يوم جاء المؤلّف الذي كان مفلساً على الدوام يطالب دمبشر بها، فتنهد هذا المسكين قائلاً: «أليس من ذلك بدّ؟» وردّ عليه بيتهوفن وهو يضحك من كل قلبه: «ليس من

ذلك بدّ!». ثم دوّن هذه الكلمات مع أنغامها على مفكرة وألّف انطلاقاً من هذه اللاّزمة الواقعية قطعة صغيرة من أربعة أصوات: ثلاثة أصوات فيها تغني «ليس من ذلك بدّ، أجل، أجل، أجل». ويضيف الصوت الرابع: «أخرج صرّة نقودك!».

ثم، بعد أربع سنوات، أصبحت اللاّزمة ذاتها نواة العبارة الموسيقية الرابعة من الرباعية الأخيرة في مجموعة القطع الموسيقية رقم 135. لم يعد بيتهوڤن يفكر إطلاقاً في صرّة نقود دمبشر. فصارت الكلمات «ليس من ذلك بدّ» تتخذ طابعاً احتفالياً متزايداً، وكأن القدر مجسّداً كان يتفوّه بها. ففي لغة «كانط»، حتى عبارة «صباح الخير» الملفوظة حسب الأصول ترتدي طابعاً ميتافيزيقياً. فاللغة الألمانية هي لغة الكلمات الثقيلة. «ليس من ذلك بدّ» لم تعد مجرد مزحة بل صارت «القرار المفكّر فيه بخطورة».

كان بيتهوڤن قد حوّل إذاً إلهاماً فَكِهاً إلى رباعية جدّية. ومزحة إلى حقيقة ميتافيزيقية. إنه لَمثَل هام على الانتقال من الخفيف إلى الثقيل (إذاً هو مثال على التبدل من الإيجابي إلى السلبي، حسب رأي بارمينيدس). لكنّ الغريب في الأمر أنّ هذا التحول لا يُفاجئنا. فلو أنّ بيتهوڤن انتقل من رباعيته الجدّية إلى اتباع المزحة الخفيفة للأصوات الأربعة المتعلقة بصرّة نقود دمبشر، لأثار الأمر سخطنا. بيدَ أن بيتهوڤن لو فعل ذلك لكان تصرّف تماماً من وجهة نظر بارمينيدس: لكان انتقل إذاً من الثقيل إلى الخفيف، ومن السلبي إلى الإيجابي! ففي البداية، ستكون هناك حقيقة ميتافيزيقية كبرى (تحت شكل عمل غير منجز) وفي النهاية مزحة ولا أخف! (على شكل مقطوعة منجزة). ولكننا لم نعد نتقن التفكير مثل بارمينيدس.

أعْتَقِدُ أنَّ توماس كان، في صميم أعماقه، حانقاً منذ زمن بعيد على نغمة «ليس من ذلك بدٌّ» لعدائيتها واحتفاليتها الصارمة. وكانت

تراوده رغبة عميقة في أن يبدّل، تمشيّاً مع وجهة نظر بارمينيدس، الثقيل إلى خفيف. فلنتذكر في هذه المناسبة أنّ لحظة واحدة كانت كافية في السابق ليمتنع إلى الأبد عن رؤية زوجته وابنه. وأنه قد تلقّى بارتياح تام قطع علاقة والديه به. فهل كان الأمر شيئاً آخر سوى ضربة عنيفة وقلّما كانت منطقية، يدفع بها ما يَفرض نفسه عليه كواجب ثقيل، كمثل «ليس من ذلك بدّ».

جليّ أن الأمر حينذاك كان يتعلق بـ«ليس من ذلك بدّ» خارجي تمليه الأعراف الاجتماعية، في حين «ليس من ذلك بدّ» المتعلق بحبه للطب، كان ضرورة داخلية. لذلك، فإنّ الأمر الآن كان أسوأ من السابق. لأن الضرورة الداخلية أكثر قوة وتحثّ بشكل أكثر عنفاً على التمرد.

أنْ يكون المرء جرّاحاً، فمعنى ذلك أن يَشرطَ ظاهر الأشياء ليرى ما الذي يختبئ داخلها. ربما هذه الرغبة هي التي حَدَت بتوماس للذهاب لرؤية «ما وراء» «الذي ليس منه بدّ». وبكلمة أخرى، للذهاب لرؤية ماذا يبقى من الحياة حين يتخلى الإنسان عن كلّ ما كان اعتبره حتى الآن رسالته.

بيد أنه، حين جاء للمثول أمام المديرة اللطيفة لمؤسسات تنظيف الزجاج والواجهات في براغ، بدت له نتيجة قراره فجأة في كامل حقيقتها فكاد يرتعب منها. وعاش في جو الرعب هذا، الأيام الأولى من تسلّمه وظيفته الجديدة. ولكن بعدها اجتاز (في خلال أسبوع تقريباً) الغرابة المخدّرة لحياته الجديدة، اكتشف أنّه كان يجد نفسه فجأة في عطلة طويلة الأمد.

كان يقوم بأعمال لا تعني له شيئاً وكان الأمر جميلاً. أخذ يتفهم شعور الناس (الذين كان دائماً يشعر بالشفقة حيالهم، حتى ذلك الحين)

الذين يمارسون مهنة لم يدفعهم إليها «ما ليس منه بدّ»، بل يقدرون على نسيانها ما إن ينتهوا من عملهم. لم يكن قد عرف هذه اللاّمبالاة السعيدة من قبل. وهو الذي كان في السابق حين لا تنجح عملية جراحية كما يتمنى، يتملكه اليأس ولا يعود قادراً على النوم، ويفقد شهيته للنساء حتى. كان «ما ليس منه بدّ» المتعلق بمهنته أشبه بعَلَقَةٍ تمتصّ دمه.

أما الآن، فها هو يجوب براغ حاملاً عصاه الطويلة التي ينظف بها الواجهات.. كان متعجباً من اكتشافه أنه يحس نفسه أصغر بعشر سنوات. كانت بائعات المخازن الكبرى ينادينه بالدكتور (فقرع الطبول في براغ كان يسير على الوجه الأكمل) ويستشرْنه بشأن زكامهن أو آلامهن الحقوية أو تأخّر عادتهن الشهرية. كن يشعرن بالخجل وهن يرينه يرش الواجهات بالماء ومن ثم يُثبت فرشاة في نهاية عصاه ويشرع في التنظيف. لو كان في وسعهن ترك الزبائن في المخزن لكُنَّ بادرن إلى أخذ الفرشاة من يده وتنظيف ألواح الزجاج بدلاً منه.

كان توماس يعمل بخاصة في المخازن الكبرى، ولكن المؤسسة كانت ترسله أيضاً إلى بيوت أشخاص معينين. كان الناس في ذلك الحين يعيشون الاضطهاد الممارس على المثقفين التشيكيين في حالة من التضامن المتباهي. عندما عرف مرضى توماس القدامى بأنه كان يعمل منظفاً للزجاج، اتصلوا بالمؤسسة يطلبون إرساله إليهم. كانوا يستقبلونه بقنينة شمبانيا أو أي نوع من الخمر ويسجّلون على ورقته أنه قام بتنظيف ثلاث عشرة نافذة. ثم يمضون برفقته ساعتين وهم يثرثرون أو يقرعون الكؤوس. وعندما كان يغادرهم ذاهباً إلى أشخاص آخرين أو مخزن آخر، كان يشعر أنه رائق المزاج كليّاً. كانت عائلات الضباط الروس تتوافد للإقامة في البلاد. كان الراديو يبث الخطابات الإرهابية لموظفي وزارة الداخلية الذين كانوا يحلّون محل الصحافيين

المسرّحين. أما هو فكان يترنح سكران عبر شوارع براغ وفي حالة رجل يتنقل من فرحة إلى فرحة. كانت هذه أيام عطلته الطويلة الأمد.

كان يرجع إلى عهد حياته كرجل عازب. فهو وجدَ نفسه فجأة دون تيريزا التي لم يكن يراها سوى في الليل حين ترجع من الحانة، فيفتح عيناً في بداية نومه. وفي الصباح تكون هي غارقة في النوم فيما هو معجّل للذهاب إلى عمله. كان يملك في متناول يده ست عشرة ساعة وكانت هذه فسحة حرية منحت إليه بطريقة مباغتة. وفسحة الحرية تعني له، مذ كان في مطلع الصبا، النساء.

9

عندما كان أصدقاؤه يسألونه كم يبلغ عدد النساء اللواتي حظي بهن في حياته، كانت إجابته مراوغة. وحين كانوا يصرّون، كان يقول: «ما يقارب المئتين». كان بعض الحاسدين يؤكدون أنه يبالغ فيدافع عن نفسه قائلاً: «هذا ليس بالعدد الكبير. إنّ علاقاتي بالنساء بدأت منذ خمسة وعشرين عاماً تقريباً. أقسموا مئتين على خمس وعشرين فيكون الحاصل ثماني نساء جديدات كل عام. وهذا ليس بكثير».

ولكنه مذ صار يعيش مع تيريزا أخذ نشاطه الجنسي يصطدم بصعوبات في التنظيم. لم يكن في مستطاعه أن يخصص له (بين عمله في غرفة العمليات الجراحية وبين بيته) إلاّ حيّزاً ضيقاً من الوقت ليستغله قدر الإمكان طبعاً (كما يعتني المزارع الجبلي بقطعة أرضه بدأب متواصل). ولكن لا يمكن مقارنة ذلك بفسحة الست عشرة ساعة التي نزلت عليه فجأة نعمتها غير المتوقعة (أقول ست عشرة لأن الساعات الثماني التي كان ينظف خلالها الزجاج، كانت هي أيضاً تمنحه ألف فرصة للتعرف إلى بائعات جديدات أو إلى موظفات أو إلى مدبّرات منازل، وضرب مواعيد معهنّ).

عمَّ كان يبحث لدى كل هؤلاء النسوة؟ ما الذي كان يشدّه إليهن؟ أليست العلاقة الجنسية تكراراً للشيء نفسه؟

إطلاقاً. تبقى هناك دائماً نسبة صغيرة من «المتعذّر تصوّره» فهو حين كان يرى امرأة في كامل ثيابها، كان في وسعه أن يتخيل تقريباً كيف ستبدو وهي عارية (هنا كانت خبرة الطبيب تكمل خبرة العاشق). ولكن بين مقاربة الفكرة ودقة الواقع تبقى دائماً هناك ثغرة صغيرة، ثغرةُ المتعذِّرِ تصورهُ. وهذه الثغرة بالذات هي التي لم تكن تتركه في سلام. ثم وأنَّ ملاحقة المتعذِّر تصوّرُه لا تكتمل باكتشاف العري وحده بل تتعداه: كيف ستكون حركاتها وهي تخلع ملابسها؟ ماذا ستقول عندما يضاجعها؟ وكيف ستكون نغمة تنهداتها؟ وأي تكشيرة سترتسم على وجهها لدى وصولها إلى لحظة النشوة؟

إنَّ تفرد الأنا يكمن تحديداً في هذا الجزء من «المتعذّر تصوّره» الذي يملكه كل إنسان. ليس في الإمكان تخيّل إلا ما هو مشترك بين الكائنات.

أما «الأنا» الفردية التي تتميز عن ما هو عام، فهي تلك التي لا تدعنا نتكهن بها أو نحدسها. وهي أول ما يجب نزع الحجاب عنه لاكتشافه وامتلاكه لدى الآخر.

كان توماس قد اهتمّ في السنوات العشر الأخيرة من نشاطه الطبي بالدماغ الإنساني على وجه أخص.. كان يعرف أن لا شيء أكثر صعوبة من الاستحواذ على «الأنا». فبين هتلر وأينشتاين، أو بين بريجينيف وسولجنستين هناك تشابه أكثر مما هناك اختلاف. وإذا أردنا أن نعبّر عن ذلك حسابياً نقول إنه يوجد فيما بينهم جزء من المليون من الاختلاف، وتسعمائة وتسعة وتسعون ألفاً وتسعمائة وتسعة وتسعون جزءاً من المليون من التشابه.

وتوماس يسكنه هاجس اكتشاف هذا الجزء من المليون

والاستحواذ عليه. هكذا يحدّد معنى هوسه بالنساء. فهو ليس مهووساً بالنساء بل بما تملكه كل واحدة منهن من «المتعذّر تصوره». وبكلمة أخرى، بهذا الجزء من مليون من الاختلاف الذي يميّز امرأة عن سواها.

(ربما كان شغفه بالجراحة يتلاقى وشغفه بالجري وراء النساء. لذلك لم يكن يتخلى عن المبضع الوهمي حتى عندما يكون مع عشيقاته. كان يرغب في الاستحواذ على شيء ما، دفيناً في أعماقهن، شيء يجب أن تُمزَّق في سبيله القشرة الخارجية).

يحق لنا بالطبع أن نتساءل لماذا لم يكن يفتش إلاّ من خلال الجنس عن هذا الجزء من مليون من الاختلاف. ألم يكن قادراً مثلاً على إيجاده في مشيتهن أو في ذوقهن في المآكل، أو في ميولهن الفنية؟

بطبيعة الحال، هذا الجزء من مليون من الاختلاف موجود في جميع مجالات الحياة الإنسانية. ولكنه ظاهر علانية أينما كان ولا تدعو الحاجة إلى اكتشافه ولا يحتاج الأمر إلى مبضع. فأن تفضّل امرأة الجبنة في الحلويات، أو ألاّ تتحمل واحدة أخرى الأرضي - شوكي، فهذه بالطبع علامة تمايز. ولكننا ندرك تلقائياً أنّ التمايز هذا تافه وغير مُجدٍ وأنّ اهتمامنا به وتفتيشنا فيه عن قيمة ما، إنما هو مضيعة للوقت.

ولكن في الجنس وحده يظهر هذا الجزء وكأنه شيء ثمين. لأنه لا يمكن إدراكه علانية بل يجب امتلاكه. قبل نصف قرن، كان هذا النوع من الامتلاك يتطلب الكثير من الوقت (أسابيع وربما أشهراً في بعض الأحيان!) لأن قيمة المحظية العاطفية كانت تُقاس بالمدة التي اقتضاها امتلاكها. ولكن، اليوم، وعلى الرغم من أن المدّة التي يستغرقها الامتلاك قد تقلّصت بشكل محسوس، فإنّ الجنس يبدو دائماً وكأنه الخزينة التي يختبئ في داخلها سر «الأنا» الأنثوية.

إذاً، لم تكن الرغبة في المتعة الجنسية (مع أنّ المتعة تأتي تقريباً في الطليعة) هي التي تدفع توماس لمطاردة النساء، بل الرغبة في الاستيلاء على عالم (في شرْطِ جسدِ العالم المسجّى بالمبضع).

10

في الإمكان قسمة الرجال الذين يلاحقون النساء بكثرة إلى قسمين: القسم الأول يبحث لدى كل النساء عن حلمه الخاص وعن فكرته الذاتية عن المرأة. والقسم الآخر تحرّكه رغبة الاستحواذ على الاختلاف اللامتناهي للعالم النسائي الموضوعي.

هَوَسُ الأولّين هَوَسٌ رومنطيقي: فالشيء الذي يفتّشون عنه عند النساء هو أنفسهم ومثالهم الأعلى. وهم دائماً وأبداً خائبون لأنّ المثال كما نعرف يستحيل إيجاده. وبما أنّ الخيبة هي التي تدفعهم للتنقل من امرأة إلى امرأة أخرى، فإنها تعطي تقلّبهم ذريعة ميلودرامية. وهناك الكثير من النساء العاطفيات اللواتي يجدن تعددية عشيقاتهن المستمرة مؤثّرةً في النفس.

أما الهوس الآخر فهوسٌ إباحي، والنساء لا يجدنه مُؤثّراً إطلاقاً: فبما أنّ الرجل في هذه الحالة لا يُسقط على النساء مثالاً ذاتياً فإنّ كلَّ شيء عندئذ يثير اهتمامه ولا شيء يمكن أن يجعله خائباً في آن.. وهذا العجز عن الخيبة بالذات يحمل في حدّ ذاته شيئاً مخزياً. فبالنسبة للجميع هوس المضاجِع الرومنطيقي لا يكلّ (لأنه لا يُكفَّر عن هذا الوسواس من خلال الخيبة).

وبما أنّ المُضاجع الرومنطيقي يلاحق دائماً النموذج عينه من النساء، فإننا لا نلاحظ أنه يغيّر عشيقاته، ويسبب له أصدقاؤه خلافات مع عشيقاته لأنهم لا يلاحظون فرقاً بينهن وينادونهن كلهن بالاسم نفسه.

أما المُضاجعون الإباحيون (بالإمكان تصنيف توماس طبعاً ضمن هذه الفئة) فإنهم يبتعدون، أثناء سعيهم وراء المعرفة، عن معايير الجمال الأنثوي المتعارف عليها (والتي يأنفونها سريعاً) ويتحولون في نهاية المطاف حتماً إلى هواةٍ للغرائب. وهم يعرفون هذا الأمر ويشعرون بقليل من الخجل. لذا فإنهم لا يظهرون برفقة عشيقاتهم أمام الملأ لئلا يزعجوا أصدقاءهم.

كان قد مضى على عمله في تنظيف الزجاج سنتان عندما استدعَتْه زبونة جديدة. ما إن رآها لأول مرة عند عتبة الباب حتى أسرته غرابتها للحال. كانت غرابتها متكتمة ومتحفِّظة واقفة عند حدود التفاهة المرحة (كان ميل توماس إلى الغرائب لا يمتّ بصلة للإعجاب الفلليّني بالنساء المخيفات ببشاعتهن): كانت طويلة القامة فوق العادة، أطول منه بكثير. كان أنفها دقيقاً وطويلاً جداً ووجهها غريباً جداً إلى درجة يستحيل معها أن نقول إنها جميلة (فالجميع سوف يعارضون ذلك) ولكنّها لم تكن خالية من أيّ جمال (على الأقل، حسب رأي توماس). كانت ترتدي بنطلوناً وقميصاً أبيض. ويخيّل للناظر أنها مزيج عجيب من صبي ضامر وزرافة ولقلق.

كانت ترمقه بنظرات طويلة متيقظة ومستقصية، ولا تخلو أيضاً من شعاع سخرية ذكية.

قالت: «ادخل يا دكتور».

ففهم عندئذ أنّ المرأة تعرف من يكون. فسأل دون أن يُظهر أيّ تعجّب: «أين يمكنني أن أستعمل الماء؟».

فتحت باب غرفة الحمام. فرأى أمامه المغسلة والمغطس والمرحاض. وأمام المغطس والمغسلة والمرحاض كانت هناك سجادات صغيرة زهرية اللون.

كانت المرأة التي تشبه زرافة ولقلقاً تبتسم غامزة بعينها، وكل ما كانت تقوله كان يلمّح إلى معنى وسخرية خفيّين.

قالت: «غرفة الحمّام هي تحت تصرّفك يا دكتور. افعل هناك ما يحلو لك».

- هل أستطيع أن أستحم أيضاً؟

فسألته: «هل تحب الاستحمام؟».

ملأ دلواً من المياه الساخنة ورجع إلى الصالون ثم قال: «من أين أبدأ؟».

قالت وهي ترفع كتفيها هازئة:

- هذا متوقف عليك.

- هل يمكنني رؤية نوافذ الغرف الأخرى.

- هل ترغب في مشاهدة شقتي؟

كانت تبتسم كما لو أنّ تنظيف النوافذ إنما هو نزوة من نزوات توماس، من غير أن تثير هذه النزوة اهتمامها إطلاقاً.

دخل إلى الغرفة المجاورة. كانت نوافذها كبيرة وفيها سريران متلاصقان ولوحة تمثل مشهداً خريفياً عبارة عن أشجار سندر تضيئها الشمس الغاربة.

عندما رجع، كانت هناك على الطاولة قنينة نبيذ مفتوحة وكأسان. سألَتْ: «ألا تريد أن تشد من عزمك قليلاً قبل البدء بعملك المضني؟».

قال توماس وهو يجلس: «بكل سرور».

قالت: «لا بدّ أنه أمر مثير للاهتمام أن تذهب إلى بيوت الناس؟».

فقال توماس: «ليس بالأمر السيّئ».

- تلتقي في كل مكان بنساء أزواجهن في العمل.

فقال توماس: «ومرات كثيرة بجدّات وحموات».

- وعملك القديم، ألا تحنّ إليه؟

- قولي لي أولاً أين سمعتهم يتحدثون عن عملي السابق؟

فقالت المرأة - اللقلق: «مستخدِمك فخور بك جداً».

- «حتى في هذا الوقت أيضاً؟» قال توماس متعجباً.

- اتصلت بهم ليرسلوا لي أحداً لتنظيف الزجاج، فسألوني إن كنت أرغب في طلبك أنت بالذات. يبدو أنك كنت جراحاً كبيراً طردوه من المستشفى. وأعتقد أنّ هذا يُثير اهتمامي!

- أنت فضولية بشكل غريب.

- وهل هذا واضح؟

- نعم، من الطريقة التي تنظرين فيها.

- وكيف هي طريقتي في النظر؟

- تطرفين بعينيك وتطرحين الأسئلة دون توقف.

- لماذا؟ ألا تحب أن تجيب؟

كان الحديث يتحول بفضلها إلى دعابة. ولم تكن أي كلمة قالتها تتعلق بالعالم الخارجي. بل كانت كلماتها كلها تتوجه إليهما وحدهما. وبما أنّ كليهما نصّب الحوار كموضوع رئيسي فلم يكن أسهل عندئذ من تكملة الكلمات بالملامسات. فَبينما كان توماس يتحدث عن عينيها اللتين تطرفان، أخذ يداعبهما. وكانت هي ترد على كل ملامسة منه بمداعبة منها. لم تكن تتصرف بطريقة عفوية وإنما بدأب متعمّد. كانا وكأنهما يريدان أن يلعبا لعبة «أفعل لك ما تفعله لي». كانا جالسين وجهاً لوجه ويدا كلٍّ منهما موضوعتان على جسد الآخر.

ولكنّها بدأت أخيراً تتمنع عندما حاول توماس أن يضع يده بين

فخذيها. . لم يكن قادراً على التمييز ما إذا كانت تتمتع بجدية. ولكنّ وقتاً طويلاً قد مرّ، ودقائق عشر تفصله عن موعده مع الزبون القادم.

فنهض شارحاً أنّ عليه الرحيل. كان خدّاها محمرين.

قالت: «انتظر لأوقع لك على ورقة الحساب».

اعترض قائلاً: «ولكنّي لم أفعل شيئاً».

قالت: «هذه غلطتي». ثم أضافت بلهجة ناعمة وبطيئة: «يجب أن أطلبك من جديد لكي تتمكن من إنجاز ما لم تتمكن من البدء به بسببي أنا».

وبما أنّ توماس كان يرفض إعطاءها الورقة لتوقّعها، قالت بعذوبة وبلهجة من يتوسل خدمةً: «أرجوك، أعطني هذه الورقة». ثم أضافت: «أنا لا أدفع بل زوجي. وأنت لا تقبض بل مؤسسة الدولة. هذه الصفقة لا تخصنا، لا أنت ولا أنا».

11

كان مجرّد التفكير في اللاتناسق الغريب للمرأة الشبيهة بالزرافة واللقلق يثيره: الغنج المقرون بالرعونة، والرغبة الجنسية المصرّح بها بسذاجة مصحوبةً بابتسامة ساخرة، والتفاهة المبتذلة للشقة مقارنةً بتفرّد صاحبتها. تُرى كيف ستكون هيئتها وهما يمارسان الحب؟ كان يحاول أن يتخيل ذلك، ولكن الأمر لم يكن سهلاً. وأصبح هذا شغله الشاغل لأيام عديدة.

عندما دعته لزيارتها في المرة الثانية، كانت هناك قنينة نبيذ تنتظر على الطاولة مع كأسين. ولكن هذه المرة حدث كل شيء بسرعة. وجدا نفسيهما بعد قليل متُواجهين في الغرفة (كانت الشمس تغيب فوق مشهد أشجار السندر البيضاء) فتعانقا. قال كعادته: «اخلعي ثيابك»

ولكنها بدل أن تطيعه أمرته قائلة: «كلا، أنت أولاً».

لم يكن معتاداً على ذلك فاضطرب قليلاً. أما هي فأخذت تفكّ أزرار بنطلونه. «اخلعي ثيابك!»، أمرها بذلك عدّة مرات (ولكن بفشل مُضحك) فلم يجد وسيلة عندئذ إلاّ القبول بتسوية، فمشى تبعاً لقوانين اللعبة التي فرضَتْها في المرة السابقة («أفعل لك ما تفعل لي»). نزعت عنه بنطلونه فنزع عنها تنّورتها. ثم جرّدته من قميصه فجرّدها من قميصها. وهكذا حتى وجدا نفسيهما أخيراً عاريين وجهاً لوجه. وضع يده على فرجها الرطب ثم أنزل أصابعه باتجاه الثقب الشرجي وهو المكان الأحب عند النساء جميعهن. كان ثقبها ناتئاً للغاية مما يوحي بوضوح بأنّ الجهاز الهضمي الطويل ينتهي في هذا المكان بحدبة صغيرة. تحسّس الحلقة الصلبة السليمة، ذلك الخاتم الأجمل بين الخواتم جميعها، والذي يسمّى في لغة الطب «الصَّارة». عندها، أحسَّ فجأة بأصابع المرأة تستقر في المكان نفسه من مؤخرته. فهي كانت تعيد حركاته كلها بدقة المرآة.

ومع أنه، كما قلت آنفاً، قد عرف في حياته مئتي امرأة، (ومذ أصبح منظّف زجاج، كان عددهن قد زاد كثيراً) لم يحدث له من قبل أن رأى امرأة أطول منه تنتصب أمامه وتطرف بعينيها وتتحسس شرجه. فدفعها بقوة إلى السرير لكي يتغلب على إحساسه بالانزعاج.

غَدَرَتْها فجائيةُ هذه الحركة فتهاوى جسدها الضخم على ظهره. كان وجهها المكسو بلطخات حمراء أشبه بالهيئة المذعورة لشخص اختلّ توازنه. وبما أنه كان واقفاً أمامها أمسكها من تحت ركبتيها ورفع ساقيها المنفرجتين قليلاً عالياً. فبدت له ساقاها فجأة وكأنهما ذراعان مرفوعتان لجندي مذعور يستسلم أمام سلاح يُشهر عليه.

أثارت الرعونة المقرونة بالحماس والحماس المقرون بالرعونة،

توماس بشكل رائع. تضاجعا طويلاً جداً. كان يراقب وجهها المكسو بلطخات حمراء مفتشاً فيه عن الهيئة المرتعبة لامرأة يتعمد أحدهم إيقاعها فتسقط. كان هذا التعبير الذي لا يضاهى يُصعّد تيار الإثارة المتدفق إلى رأسه.

عندما انتهيا، ذهب للاغتسال في غرفة الحمام. فلحقت به وشرحت له مطوّلاً عن مكان الصابون وكفّ الحمّام وكيف عليه أن يتصرف للحصول على المياه الساخنة. فاستغرب أن تشرح له هذه الأمور البسيطة بهذا الإسهاب. فقال لها إنه فهم وإنه يرغب في البقاء وحيداً في غرفة الحمام.

قالت له بنبرة متوسلة: «ألا تريدني أن أشاهدك وأنت تغتسل؟».

لكنّه نجح أخيراً في إخراجها. كان يغتسل ويبول في المغسلة (وهذه عادة شائعة عند الأطبّاء التشيكيين). كان يساوره شعور أنها تتحرّك جيئة وذهاباً بنفاد صبر أمام غرفة الحمام، مفتشةً عن ذريعة تمكنها من الدخول إلى هناك. عندما سكّر الحنفيات، لاحظ أنّ السكون تام في الشقة، فخيّل إليه أنها كانت تراقبه، كان شبه متأكد أنها تلصق عينها الجميلة الطارفة في ثقب الباب.

عندما غادر، شعر أنه رائق المزاج. كان يحاول أن يتذكر الأساسيّ، وأن يكثّف هذه الذكرى في صيغة كيميائية تسمح له بتحديد التفرد (أي هذا الجزء من مليون من الاختلاف) الخاص بهذه المرأة. فتوصل في النهاية إلى صيغة تتألف من ثلاثة عناصر:

1 - الرعونة المقرونة بالحماس.

2 - الوجه المذعور لشخص يختلّ توازنه ويسقط.

3 - الساقان المرفوعتان الشبيهتان بذراعي جندي يستسلم أمام سلاح يُشهر عليه.

عندما كان يتلو على نفسه هذه الصيغة، كان يغمره شعور مشرق، شعور بأنه تمكن مرة أخرى من الاستحواذ على جزء من عالم، بأنه اقتطع بمبضعه الوهمي قطعة رقيقة من نسيج القماشة اللامتناهية للكون.

12

هاكُم ما جرى معه في الفترة نفسها تقريباً: كان يلتقي مراراً بامرأة شابة في شقة كان يعيره إياها صديق حميم كل يوم حتى منتصف الليل. بعد مرور شهر أو شهرين ذكَّرتْه بأحد لقاءاتهما: كانا يمارسان الحب فوق السجّادة أمام النافذة، وكانت البروق تلتمع والرعود تزمجر. مارسا الحب في أثناء هبوب العاصفة.. وكان الأمر، كما كانت تقول، جميلاً لا يُنسى.

كان توماس يسمعها متعجباً: نعم، كان يتذكر أنهما تضاجعا فوق السجادة (إذ لم يكن في شقة صديقه الصغيرة سوى سرير واحد ضيّق لا يُشعره بالارتياح) ولكنه نسي تماماً أمر العاصفة! يا للعَجَب! فهو كان قادراً على تذكّر اللقاءات القليلة التي جمعته بها، حتّى أنه كان يتذكر بالضبط الطريقة التي كانا يتضاجعان بها (فهي كانت ترفض أن يلجها من الخلف)، وكان يتذكر أيضاً الجمل القليلة التي تتفوّه بها أثناء المواقعة (فهي كانت تطلب منه أن يضمّ وركيها بقوة، وكانت تعارض إذا نظر إليها) ويتذكر كذلك «تفصيلة» ثيابها الداخلية - ولكنه لم يعد يتذكر العاصفة إطلاقاً.

لم تكن ذاكرته تسجّل من مغامراته العاطفية غير الممرّ الضيّق الوعر للامتلاك الجنسي: الكلام المثير الأوّل، والملامسة الأولى والعبارة الفاجرة الأولى التي قالها لها والتي قالتها له وكل الممارسات المتهتكة الصغيرة التي كان يفرضها عليها شيئاً فشيئاً، أو حتى تلك التي كانت ترفض القيام بها. أما البقية فكانت مستبعدة (وبعناية تقارب

الادعاء) من ذاكرته. كان يتغافل أيضاً عن المكان الذي التقى فيه هذه المرأة أو تلك، لأنّ هذه اللحظة حدثت قبل الامتلاك الجنسي.

كانت المرأة الشابة تتحدث عن العاصفة فيما تغمر وجهها ابتسامة حالمة. وكان هو ينظر إليها متعجباً وبشيء من الخجل. فهي عاشت شيئاً جميلاً لم يشاركها فيه. كانت ردّة الفعل الثنائية لذاكرتهما تجاه العاصفة الليلية تعبّر عن كل الاختلاف الذي يمكن أن يوجد بين الحب واللاّحب.

لا أقصد باللاّحب أنّ توماس قد تصرّف بحقارة مع المرأة الشابة، أو أنه لم يكن يرى فيها إلاّ أداة جنسية. على العكس، فهو كان يحبها وكأنها صديقة ويقدّر شخصيتها وذكاءها، لا بل كان مستعداً لمساعدتها كلما احتاجت إلى ذلك. لم يكن هو الذي يتصرف معها بسوء وإنما ذاكرته التي أقصَتْها بعيداً عن دائرة الحبّ دون أن يكون له هو دخل في الأمر.

يبدو أنّ في الدماغ منطقة خاصة تماماً ويمكن تسميتها بـ«الذاكرة الشاعريّة»، وهي التي تسجّل كل الأشياء التي سحرتنا أو التي جعلتنا ننفعل أمامها، وكل ما يعطي لحياتنا جمالها. مذ تعرّف توماس إلى تيريزا، لم يعد لأي امرأة الحق في أن تترك أثراً ولو عابراً في هذه المنطقة من دماغه.

كانت تيريزا تحتل ذاكرته الشاعريّة باستبداد، مكنّسةً منها كل أثر للنساء الأخريات. لم يكن هذا عادلاً لأنّ المرأة الشابة التي مارس الحب معها مثلاً فوق السجادة أثناء العاصفة لم تكن أقلّ جدارة من تيريزا بذاكرته الشاعريّة. كانت تصرخ له: «أغمض عينيك وامسكني من وركيّ ثم ضمّني بقوة!». لم تكن تستطيع أن تتحمل عيني توماس مفتوحتين، ومتيقظتين ومتفحصتين أثناء الجماع. ولم تكن تتحمل أيضاً

أن يكون جسده الذي يعتلي جسدها غير ملتصق به تماماً. لم تكن تريد أن يتفحصها توماس بل كانت تريد أن تجذبه إلى بحر السحر الذي لا يمكن الولوج فيه إلاّ بعينين مغمضتين. كانت ترفض أن تدبّ على الأربع لأن جسديهما في هذا الوضع يتلامسان بالكاد، ولأنه كان يستطيع مراقبتها من مسافة تقارب الخمسين سنتمتراً. وهي كانت تكره هذه المسافة. لذلك، كانت تؤكد أمامه بإصرار، وهي تنظر إلى عينيه، أنها لم تكن تستمتع بذلك، مع أنّ السجادة كلّها تبلّلت من ماء ارتعاشتها. وكانت تقول: «لا أفتش عن المتعة بل أفتش عن السعادة. والمتعة دون السعادة ليست بمتعة». وبكلمة أخرى، كانت تدق على باب ذاكرته الشاعريّة ولكن الباب كان مقفلاً. لم يكن هناك مكان لها في ذاكرة توماس الشاعريّة. لم يكن هناك مكان لها إلاّ فوق السجادة.

ابتدأت مغامرة توماس مع تيريزا في المكان الذي تنتهي عنده بالضبط مغامراته الأخرى مع النساء. كانت المغامرة مع تيريزا تجري في الجانب الآخر من الضرورة التي تدفعه لامتلاك النساء. فهو لم يكن ينوي نزع أيّ حجاب عند تيريزا. لقد وجدها منزوعة الحجاب. ومارس معها الحب دون أن يصرف وقتاً في الأخذ بمبضعه الوهمي الذي كان يشرط به جسد العالم المسجّى. وقع في حبها دون أن يصرف وقتاً في التساؤل كيف ستكون أثناء الجماع.

حكاية الحب لم تبدأ إلاّ فيما بعد: كانت الحمى تنتابها ولم يكن يستطيع أن يرجعها إلى بيتها كما كان يفعل مع النساء الأخريات. كان راكعاً أمام سريرها عندما خطرت له فكرة أنها أُرسلت إليه في سلة مع مجرى المياه. سبق لي أن قُلْتُ آنفاً إنّ الاستعارات خطيرة وإنّ الحب يبدأ من استعارة. وبكلمة أخرى: الحبّ يبدأ في اللحظة التي تسجّل فيها امرأة دخولها في ذاكرتنا الشاعريّة من خلال عبارة.

13

ما لبثت تيريزا أن جدّدت مكانتها في حياته: ذهبت لشراء الحليب كما في كلّ صباح، وعندما فتح لها الباب رآها تضم طائر زاغٍ ملفوفاً بالمنديل الأحمر إلى صدرها، كما تحمل الغجريات أطفالَهن بين أذرعهن. لن يكون في إمكانه أن ينسى أبداً منقار الزاغ الضخم البارز من وجهه وكأنه اتهام.

وجَدَته شبه مدفون كما كان يعامل القوزاقيون قديماً أعداءهم الذين يقعون في الأسر. «إنهم أطفال، الذين فعلوا به هذا»، كان في هذه الجملة شيء أكثر من مجرد تقرير. كانت التعبير عن الفرق الذي تملّكها فجأة من الجنس البشري. فتذكر أنها قالت مؤخراً: «صرت أشعر بالامتنان لك لأنك لم ترغب قط في إنجاب الأطفال».

البارحة، كانت تشتكي من أنّ أحدهم شتمها في الحانة التي تعمل فيها. ثم أمسك عقد اللؤلؤ الذي تضعه حول عنقها مؤكّداً أنها كسبته من الدعارة. كانت مضطربة تماماً، أكثر مما ينبغي، فكّر توماس. وفجأة أزعجته فكرة أنه لا يراها إلاّ قليلاً منذ سنتين، ولا تتسنّى له الفرصة ليضم يديها طويلاً إلى يديه ويمنعهما من الارتجاف.

كانت تراوده هذه الأفكار فيما هو ذاهب صباحاً إلى المكتب ليأخذ من الموظفة برنامج عمله اليومي. فوجد أنّ زبوناً قد طلب استدعاءه هو بالتحديد لينظف له النوافذ. ذهب إلى العنوان المكتوب معكر المزاج خائفاً من أن يكون الزبون امرأة أخرى تبعث في طلبه. كان الآن مستغرقاً كلياً في أفكاره عن تيريزا ولم تكن المغامرات تستهويه.

عندما فُتح الباب، أحسّ بالارتياح. رأى أمامه رجلاً طويل القامة محني الظهر. ثم إنَّ ذقن الرجل طويل ومعقوف يذكّره بأحدهم.

ثم قال مبتسماً: «تفضل يا دكتور» وأدخله إلى الصالون.

كان هناك شاب في انتظارهم. كان واقفاً محمرّ الوجه، ينظر إلى توماس وهو يحاول جاهداً أن يبتسم.

قال الرجل: «لا أرى أن هناك داعياً لأن أعرّف أحدكما إلى الآخر».

قال توماس دون أن يبتسم: «لا»، ثم مدّ يده إلى الشاب مصافحاً. كان ابنه.

ثم عرّف الرجلُ ذو الذقن الطويل المعقوف عن نفسه.

فقال توماس: «كنت واثقاً أنك تذكّرني بأحدٍ ما. كيف لا! بالطبع أعرفك! بالاسم فقط».

توزّعوا على كنبات تفصل بينها طاولة واطئة. فكّر توماس أنّ الرجلين الجالسين قبالته كانا من صنيعه هو دون أن ينوي ذلك أو يرغب فيه: فهو قد صنع طفلاً تحت ضغط زوجته وصورة هذا الرجل الطويل المحني الظهر تحت ضغط الشرطي.

ولكي يبعد عنه هذه الأفكار، قال: «حسناً، بأية نافذة عليّ أن أبدأ؟».

فضحك الرجلان قبالته دون تردّد.

نعم، كان الأمر واضحاً، وهو لا يتعلق إطلاقاً بتنظيف النوافذ. فهو لم يُستدعَ إلى هنا من أجل التنظيف بل اجتُذِب إلى كمين. لم يكن قد تحدّث مع ابنه من قبل. وهذه هي المرة الأولى التي يصافحه فيها. لم يكن يعرفه إلاّ بالنظر ولا نيّة عنده في أن يعرفه بشكل آخر. وهو لم يكن يريد أن يعرف عنه شيئاً آملاً أن يعامله ابنه بالمثل.

ثم قال الصحافي وهو يشير إلى رسم كبير مؤطر معلّق على الجدار قبالة توماس: «ملصق جميل، أليس كذلك؟».

رفع توماس عينيه للمرة الأولى مذ دخل. كانت الجدران مكسوة

بلوحات لافتة للنظر وبصور وملصقات كثيرة. كان الرسم الذي أشار إليه الصحافي قد ظهر في أحد الأعداد الأخيرة من المجلة الأسبوعية قبل أن يمنعها الروس من الصدور. كان الملصق اقتباساً عن ملصق شهير ظهر سنة 1918 خلال الحرب الأهلية الروسية، وكان يدعو الشعب للانضمام إلى الجيش الأحمر. كان يمثل جندياً يرتدي قبعة مزيّنة بنجمة حمراء، ونظرته المفرطة في الصرامة تحدّق فيك مباشرة، وكان يصوّب يده نحوك شاهراً سبّابته. كان النص الروسي الأصلي يقول: «أيها المواطن ألم تنضم بعد إلى الجيش الأحمر؟» فاستُبدل بالجملة التشيكية التالية: «أيها المواطن، ألم توقّع أنت أيضاً على «الألفيْ كلمة»؟».

كانت هذه مزحة موفقة جداً! فالألفا كلمة هي أول بيان كبير ظهر في ربيع 1968 وكان يطالب بنشر جذري للديمقراطية في النظام الشيوعي. وقّع هذا البيان حشد من المثقفين ثم وقّع عليه أناس عاديون. وبدأت تتدفق التواقيع حتى لم يعد بالإمكان إحصاؤها. وعندما اجتاح الجيش الروسي بوهيميا وبدأت عمليات التطهير السياسية، كان هناك سؤال موجّه إلى المواطن يقول: «هل وقَّعت أنت أيضاً على بيان الألفي كلمة؟» فَصُرِفَ هؤلاء الذين اعترفوا بأنهم وقّعوا من وظائفهم في الحال.

قال توماس: «رسم جميل، أتذكَّرُهُ».

ابتسم الصحافي قائلاً: «لنأمل ألا يكون جندي الجيش الأحمر سامعاً ما نقول».

ثم أضاف بنبرة جادة: «لكي يكون كل شيء واضحاً من البداية يا دكتور. هذا البيت ليس بيتي بل هذه شقة لصديق. إذاً، لست أكيداً من أن تكون الشرطة تسمعنا الآن. الأمر محتمل فقط. ولكن، لو أنني دعوتك إلى بيتي، لكان الأمر أكيداً».

ثم تابع من جديد بلهجة أكثر مرحاً: «ولكني أنطلق من مبدأ أنه ليس هناك ما يستوجب أن نخفيه على أحد. على أية حال، تصوّر المنفعة التي ستعود على المؤرخين التشيكيين في المستقبل! سيجدون حياة المثقفين كلهم موضوعة في ملفات الشرطة ومسجّلة على شرائط كاسيت! هل عندك فكرة عن الجهد الذي يقوم به المؤرخ الأدبي لو أراد مثلاً إعادة كتابة الحياة الجنسية لڤولتير أو بلزاك أو تولستوي؟ أمّا في حالة الكتّاب التشيكيين، فلن يكون لديهم أدنى شك. فكل شيء مسجّل، حتى أقلّ تنهيدة».

ثم التفت ناحية آلات التسجيل الوهمية المخفية في الجدران، وقال بصوت عالٍ: «أيها السادة، أريد في مناسبة كهذه أن أشجعكم كالعادة على عملكم، وأن أقدّم لكم الشكر باسمي وباسم مؤرخي المستقبل».

فضحك ثلاثتهم، ثم أخذ الصحافي يتكلم بإسهاب عن الظروف التي أحاطت بمنع مجلته من الصدور. وأخذ يتكلم أيضاً عمّا يفعله الآن الرسام الذي خطرت له فكرة أن يرسم هذا الكاريكاتور، وعمّا يفعله الآن غيره من الرسامين والفلاسفة والأدباء التشيكيين. فبعد الاجتياح الروسي، سُرّحوا جميعاً من أعمالهم وصاروا إمّا منظفي زجاج أو حرّاساً في مواقف السيارات أو حرّاساً ليليين، وإما وقّادين للمراجل في الأبنية الشعبية، أو صاروا، وفي أحسن الحالات، سائقي تاكسي، لأنّ هذا الأمر يحتاج إلى دعم مسبق.

لم يكن ما يقوله الصحافي غير مثير للاهتمام، ولكن توماس كان عاجزاً عن التركيز في معنى كلماته. كان يفكر في ابنه ويتذكر أنه التقاه في الشارع منذ بضعة أشهر. ولم يكن الأمر صدفة بالطبع. ولكن ما يفاجئه الآن هو أن يراه برفقة صحافي مضطهد من قبل السلطات. وهو من كان يحسب أن ابنه واقع لا بدّ تحت تأثير زوجته الأولى التي كانت

شيوعية متشدّدة. كان بإمكانه الآن أن يسأله كيف تسير الأحوال مع أمه، ولكن السؤال بدا له في غير موضعه خصوصاً في حضرة رجل غريب.

ثم وصل الصحافي أخيراً إلى صلب الموضوع. فقال إنّ عدد الناس الموقوفين بسبب تمسّكهم بآرائهم يتزايد باطّراد. ثم أنهى حديثه بهذه الكلمات: «فقررنا أخيراً أن نقوم بعمل ما».

فسأل توماس: «وماذا تريدون أن تفعلوا؟».

في هذه اللحظة، تدخّل ابنه. كانت هذه هي المرة الأولى التي يسمعه يتكلم فيها. فتعجّب من اكتشافه بأنه كان يتأتئ.

فقال: «استناداً إلى ما نعرفه، فإنّ المساجين السياسيين يعامَلون معاملة سيئة، وإنّ وضع بعضهم خطير فعلاً. لذا قرّرنا أنَّ كتابة عريضة موقّعة من المثقفين التشيكيين، والذين لا يزال لاسمهم وزن معيّن، ستكون أمراً جيداً».

لا، لم تكن هذه تأتأة وإنما حازوقة تجعل كلماته أكثر بطئاً، بحيث إن كل كلمة يلفظها تبدو وكأنها موقّعة ومنوّه بها رغماً عنه. لا شك في أنه كان متنبهاً لهذا الأمر، لأنّ خدّيه، بعد أن كان رجع إليهما لونهما الطبيعي، عادا للاحمرار من جديد.

سأل توماس: «هل تريدون أن أدلّكم على أناس ينتمون إلى حقل اختصاصي وبإمكانهم مساعدتكم؟».

ضحك الصحافي قائلاً: «لا، لا نريد منك نصيحة. بل توقيعك!».

مرةً أخرى أحسّ أنه موضع مديح! مرةً أخرى كان سعيداً لأنّ أحدهم لم ينسَ بعد أنه كان جرّاحاً! فَمَانعَ من باب التواضع: «اسمعوا جيداً! إذا كانوا قد طردوني فهذا لا يعني أنني طبيب مشهور!».

قال الصحافي وهو يبتسم لتوماس: «لم ننسَ المقال الذي كتبته في مجلتنا الأسبوعية».

وبحماس لم يفهمه توماس ربما، هتف ابنه: «نعم!».

قال توماس: «لا أفهم ماذا يستطيع اسمي أن يفعل: إذا كان على عريضة من أجل المساجين السياسيين. فهؤلاء الذين يُفترض بهم أن يوقّعوا، يجب ألا يكونوا مغضوباً عليهم، وأن يكونوا قد حافظوا على حدّ أدنى من التأثير على الناس المتسلمين زمام السلطة. ألا تعتقدون ذلك؟».

- «آه، بالطبع، يُفترض بهؤلاء أن يوقّعوا!»، قال الصحافي وهو يضحك.

ثم أطلق ابن توماس ضحكة رجل عارفٍ بالكثير من الأشياء. وقال: «إلاّ أنّ هؤلاء لن يوقّعوا أبداً!».

وأضاف الصحافي قائلاً: «لكن هذا لا يعني أننا لن نسعى لمقابلتهم، فنحن لسنا طيبين إلى درجة أننا سنوفّر عليهم تشنج عضلات وجوههم. وأود لو تسمع اعتذاراتهم، فهي رائعة».

فضحك الابن ضحكة تنمّ عن موافقته على ما قيل.

وأضاف الصحافي: «بالطبع، سيؤكدون جميعاً أنهم مُتّفقون معنا على جميع النقاط. ولكننا لو أصغينا إلى قولهم فعلينا أن نتصرف بطريقة أخرى: علينا أن نكون خبراء بالتعبئة بطريقة أكثر تعقلاً وأكثر تكتماً. فهم خائفون من التوقيع وخائفون في الوقت نفسه من أن نظنّ بهم السوء إن لم يوقعوا».

ضحك الابن والصحافي معاً.

قدّم الصحافي ورقة لتوماس كُتب عليها نص وجيز حيث يُطلب

من رئيس الجمهورية، وبلهجة مؤدبة نسبياً، أن يُصدر عفواً شاملاً عن المساجين السياسيين.

حاول توماس أن يجيل التفكير في الأمر سريعاً: العفو عن المساجين السياسيين؟ جيد جداً. ولكن هل سيتم العفو عنهم فقط لأنّ أناساً ينبذهم النظام (إذاً سجناء سياسيين محتملين) يطالبون به رئيسَ الجمهورية؟ النتيجة الوحيدة التي يمكن أن تصدر عن عريضة من هذا النوع هي أنه لن يتمّ العفو عن السجناء السياسيين، حتى ولو اتفق أنهم كانوا يتهيأون فعلاً للعفو عنهم!

ثم قطع عليه الابن هذه الأفكار: «المهمّ هو أن نجعلهم يعرفون أنه لا تزال في هذا البلد حفنة من الناس الذين لا يهابون شيئاً. وأن نُظهر مَنْ مع مَنْ. وأن نفصل القمح الجيد عن الزؤان».

كان توماس يفكر: نعم، هذا صحيح. ولكن ما علاقة هذا بالمساجين السياسيين! فهناك أمر من أمرين: إمَّا أن الأمر يتعلق بالحصول على العفو، وإما يتعلق بفصل القمح الجيد عن الزؤان. والأمران مختلفان.

سأل الصحافي: «هل أنت متردد يا دكتور؟».

نعم. كان متردداً. ولكنه كان خائفاً من أن يقول هذا. كانت هناك على الحائط قبالته صورة الجندي الذي يشهر إصبعه مهدداً وهو يقول: «هل ما زلت متردداً للانضمام إلى الجيش الأحمر؟» أو يقول: «ألم توقع بعد على الألفيْ كلمة؟» أو بالأحرى: «هل وقّعت أنت أيضاً على الألفيْ كلمة؟» أو أيضاً: «ألا تريد أن توقّع على العريضة لالتماس العفو؟». وأياً يكن جوابه، كان الجندي يهدده.

كان الصحافي يشرح لتوّه ما كان يفكر به في شأن هؤلاء الناس الذين على الرغم من أنهم كانوا مقتنعين بضرورة العفو عن المساجين

السياسيين، يتذرّعون في الوقت نفسه بألف حجة لكي لا يوقّعوا على العريضة. وتلك الحجج كانت، حسب ما يقوله الصحافي، مجرد ذرائع يخفون خلفهما جبنهم. ماذا بإمكانه إذاً أن يقول عن توماس؟

امتدّ الصمت طويلاً ولكن توماس قطعه هذه المرة ضاحكاً. ثم أشار إلى الرسم المعلّق إلى الجدار وقال: «انظروا إلى هذا الرجل الذي يهدّدني سائلاً هل سأوقّع أم لا. يصعب علينا التفكير تحت وطأة نظرته».

ضحك ثلاثتهم طويلاً.

ثم قال توماس: «حسناً. سأفكر في الأمر. ألا يمكننا أن نلتقي في الأيام المقبلة؟».

قال الصحافي: «يسرني جداً أن أراك. ولكن لم يعد هناك متسع من الوقت لإنجاز هذه العريضة. إذ إننا سنسلّمها غداً إلى رئيس الجمهورية».

«غداً؟».

كان توماس يفكّر في الشرطي السمين الذي أعطاه الورقة حيث كان يتوجب عليه بالتحديد أن يشي ضمنها بالرجل ذي الذقن الطويل والمعقوف. كان الجميع إذاً يريدون إجباره على توقيع نصوص لم يكتبها بنفسه.

قال ابنه: «في هذه الحالة لن يكون هناك داعٍ للتفكير».

كانت الكلمات فظة ولكن النبرة يشوبها شيء من التوسل. هذه المرّة نظر أحدهما إلى الآخر مباشرة. فلاحظ توماس أنّ ابنه كان يرفع قليلاً الزاوية اليسرى من شفته العليا، حين يمعن النظر. كانت هذه التكشيرة تشبه تكشيرته هو حين كان يتحقق بدقة أمام المرآة ما إذا كانت

حلاقة لحيته جيدة. لذلك فإنه لم يستطع أن يكبت شعوره بالانزعاج لدى رؤيته هذه التكشيرة تحديداً على وجه شخص آخر.

عندما يعيش المرء باستمرار مع أولاده فإنه يعتاد إذاً على مثل هذه الخصال ويجدها أمراً طبيعياً. وإذا حدث له ولاحظها فإنّ الأمر قد يُمتعه ربما. ولكن، كانت هذه المرة الأولى في حياته التي يتحدّث فيها توماس مع ابنه! ولم يكن معتاداً على الجلوس قبالة تكشيرته هو بالتحديد.

افرضوا أن يداً بُترت منكم لكي تجري زراعتها لشخص آخر. ثم جاء أحدهم ذات يوم، وجلس قبالتكم وأخذ يشوّر بهذه اليد تحديداً في وجهك. لا شك أنكم ستخالونها فزاعة. مع أنكم تعرفون هذه اليد حقّ المعرفة، وستخافون من لمسها مع أنّ هذه يدكم.

أخذ الابن يتابع قائلاً: «أنت، كما آمل، في جانب المضطهَدين!».

طوال الحوار، كان توماس يتساءل هل سيخاطبه ابنه مع رفع الكلفة أو دونها؟ وهو حتى الآن كان يصوغ جمله بطريقة تجنبه هذا الاختيار. ولكنه هذه المرة اختار أخيراً. كان يخاطبه دون كلفة، وتيقّن توماس فجأة من أن هذه التمثيلية بأكملها لم تكن تتعلق إطلاقاً بالتماس العفو للسجناء السياسيين، بل كان موضوع الرهان يتعلق بابنه: لو أنه يوقع على العريضة فإنّ مصيرهما سيتلاقيان وسيُضطر توماس إلى التقرب منه. أما إذا لم يوقّع فإنّ علاقتهما ستكون معدومة كما سبق لها أن كانت على الدوام. ولكن الفرق هذه المرة أنها لن تكون معدومة بإرادته هو، بل بإرادة ابنه الذي سيتنكر لأبيه بسبب جبنه.

ثم قال: «أعطني هذه الورقة»، وأخذها.

وكما لو أنه أراد مكافأته على اتخاذه هذا القرار، قال الصحافي: «المقال الذي كتبته عن «أوديب» كان ممتازاً».

ناوله ابنه قلماً وقال: «مِنَ الأفكار ما يشبه جريمة اعتداء».

كان ثناء الصحافي يطربه ولكن استعارة ابنه بدت له مبالغاً فيها وفي غير موضعها. فقال: «لسوء الحظ، فإنّ هذه الجريمة لم توقع إلاّ ضحية واحدة: أنا. فبسبب هذا المقال لم أعد أستطيع القيام بعمليات جراحية لمرضاي».

كان لهذه الكلمات وقع بارد يشوبه شيء من العدائية.

ولكي يمحو الصحافي هذا النشاز الصغير، استدرك (بدا أشبه بشخص يقدّم اعتذاره) قائلاً: «ولكن مقالك ساعد أناساً كثيرين».

كانت عبارة «مساعدة الناس» تعني لتوماس منذ الطفولة نشاطاً واحداً: الطب. ثم هل حدث لمقال في صحيفة أن ساعد أناساً من قبل؟ ماذا كان هذان الاثنان يريدان إفهامه؟ أنهما يردان حياته كلها إلى خواطر تعيسة كتبها عن «أوديب»، لا بل إلى أقل من هذا أيضاً: إلى كلمة «لا» وحيدة ساذجة كان تلفّظ بها في وجه النظام!

ثم قال (ودائماً بالنبرة الباردة نفسها ولكن دون أن يتعمد ذلك): «لا أعرف حقاً ما إذا كان هذا المقال قد ساعد أحداً ما. ولكني خلال عملي كجرّاح أنقذت حياة أناس كثيرين».

ساد صمت جديد ثم قطعه ابنه قائلاً: «الأفكار أيضاً يمكنها أن تنقذ الحياة».

كان توماس يرى فمه هو بالذات في وجه ابنه، قائلاً في نفسه: «أمر مضحك أن نرى فمنا يتأتئ أمامنا».

وتابع الابن بجهد ملحوظ: «ثمة أمر رائع في مقالك وهو رفض المساومة. فهذه القدرة، والتي نحن في طريقنا إلى خسارتها، هي التي تميّز بوضوح الخير من الشر. . لم نعد نعرف ما معنى أن نكون مذنبين. فالشيوعيون وجدوا لأنفسهم ذريعة مفادها أن ستالين هو الذي خدعهم. كما عندما يبرر القاتل نفسه متذرعاً بأنّ أمه لم تكن تحبه وأنه كان محروماً من العطف. ولكّنك جئت أنت فجأة وقلت: لا مكان للتبرير. إذ لم يكن أحد في روحه وضميره أكثر براءة من «أُوديب». ومع ذلك فقد عاقب نفسه بعد أن رأى فعلته».

حاول توماس جاهداً أن يشيح ببصره عن الشفقة التي كان يراها في وجه ابنه، فأخذ يولي انتباهه للصحافي. كان متضايقاً ويشعر برغبة في معاكستهما، فقال: «كما تعلمون، كل هذا لم يكن إلاّ سوء تفاهم. فالحدود بين الخير والشر حدود ملتبسة بشكل لا يوصف. . لم أكن أُطالب بالعقاب لأحد ولم يكن هذا هدفي. فأن نعاقب أحداً لا يدرك ماذا يفعل أمر بربري. أسطورة «أُوديب» أسطورة جميلة. ولكن استخدامها بتلك الطريقة. . ». كان على وشك أن يضيف شيئاً ما ولكنه تذكّر أنه من المحتمل أن يُسجل قوله. وهو لم تكن لديه أدنى رغبة في أن يستشهد به مؤرخّو العصور المقبلة. أو أنه كان يخاف بالأحرى من أن تستشهد به الشرطة. فالأمر الذي كانت طالبته به هو بالضبط هذه الإدانة لمقاله. فأن يتمكن أخيراً من سماعه من فمه هو بالذات أمر يقززه. فهو يدرك أن كل جملة يتلفظ بها المرء في هذا البلد يمكن أن تبثّ ذات يوم على الراديو. فَصَمت.

سأل الصحافي: «ما الذي دفعك إلى تغيير رأيك؟».

فقال توماس: «بل إني أتساءل بالأحرى ما الذي دفعني إلى كتابة هذا المقال». ثم تذكّر على الفور: كانت قد جنحت إلى ضفة سريره مثل طفل متروك داخل سلة في مجرى المياه. نعم، هذا هو السبب

الذي دفعه للتفتيش عن هذا الكتاب، راجعاً إلى عهد حكايات روميلوس وموسى وأُوديب. وفجأة رآها أمامه تضم إلى صدرها الزاغ الملفوف بالمنديل الأحمر. كانت هذه الصورة تريحه وكأنها تريد أن تقول له إنّ تيريزا لا تزال حية وإنها كانت في هذه اللحظة في المدينة نفسها التي يقطن هو فيها، وأن لا شيء غير ذلك يهم.

قطع الصحافي الصمت قائلاً: «أتفهّم موقفك يا دكتور. أنا أيضاً لا أحب أن يجازيني أحد. ولكننا لا نطالب بالعقاب لأحد بل نحن نطالب بوقف العقاب».

- «أعرف» قال توماس. كان يتقبل الفكرة بأنه سيقوم في خلال ثوانٍ بعمل نبيل ربَّما ولكن بالتأكيد غير مجدٍ إطلاقاً (لأنه لن يساعد بشيء المساجين السياسيين)، بعمل كان يستكرهه شخصياً (فهو كان يتصرف وفق شروط مفروضة عليه).

قال ابنه مرةً أخرى (وبلهجة شبه متوسلة): «إنه لمن واجبك أن توقّع!».

واجبه؟ وهل سيكون ابنه من يذكّره بواجبه؟ لا، هذا أسوأ ما يمكن أن يقال له! مثلَتْ أمام عينيه من جديد صورة تيريزا وهي تحمل بين ذراعيها الزاغ. فتذكر أنها قالت له: إنّ شرطياً جاء البارحة إلى الحانة وراح يضايقها. كانت يداها تبدآن بالارتجاف من جديد. لقد كَبُرت. لا شيء كان ذا أهمية بالنسبة له، عداها. هي وحدها تهمّه، هي المتحدرة من صُدَفٍ ست، هي الزهرة النابتة من ألم عِرْقِ النَّسا الذي أصاب رئيس القسم، هي التي كانت في الجانب الآخر من كل أنواع «المحتمات»، هي الشيء الوحيد الذي كان متمسكاً به فعلاً.

فلماذا عليه إذاً أن يتساءل بعد هل يجدر به أن يوقّع أم لا؟ فهناك معيار واحد يزِنُ به جميع قراراته وهو: ألاّ يفعل شيئاً يمكنه أن يؤذي

تيريزا. لم يكن توماس قادراً على إنقاذ المساجين السياسيين ولكنه كان قادراً على إسعاد تيريزا. لكن لا، كان غير قادر أيضاً على تحقيق هذا الأمر. ولكنه كان متيقّناً من أنه في حال وقّع على العريضة فستأتي الشرطة لمضايقته أكثر من ذي قبل، وستبدأ يدا تيريزا بالارتجاف أكثر من ذي قبل.

قال: «إنّ إنقاذ زاغٍ مدفون حيّاً لَهُو أكثر أهمية بكثير من إرسال عريضة إلى رئيس الجمهورية».

كان يعرف أن لا أحد سيفهم حرفاً مما يقوله، وكان هذا الأمر تحديداً يزيده رضى. كان يشعر بنشوة مفاجئة وغير متوقعة. تلك النشوة السوداء نفسها حين أعلن لزوجته بأنه لم يعد راغباً في رؤيتها، لا هي ولا ابنها. تلك النشوة السوداء نفسها حين رمى الرسالة التي ضمّنها تخلّيه إلى الأبد عن مهنة الطبيب، في صندوق البريد. لم يعد واثقاً إطلاقاً أنه يتصرف بشكل حسن، إنما كان واثقاً أنه يتصرف حسب ما كان يرغب.

فقال: «اعذراني، لن أوقّع».

15

بعد مرور بضعة أيام، أخذت الجرائد كلها تتحدث عن العريضة.

بالطبع، لم يجرِ الحديث على أنّ العريضة كانت مجرد التماس بسيط لصالح المساجين السياسيين، أو أنها كانت مطالبة لإعتاقهم من السجن. لا، لم ترد في أية صحيفة جملةٌ من هذا النوع. وإنما كانت موضوعات الصحف ستتحدث مطوّلاً وبعبارات غامضة ومتوعدة عن دعوة مخربة لا بدّ أنها تشكل ذريعة لإشعال فتيل حرب جديدة ضد الاشتراكية. كانت أسماء الموقعين منشورة بحذافيرها ومصحوبة بشتائم وكلمات لاذعة تقشعر لها الأبدان.

كان الأمر متوقعاً بالطبع. فكل نشاط علني (تجمعاً كان أو عريضة أو تظاهرة في الشارع) لا ينظمه الحزب الشيوعي يُعتبر غير قانوني ويعرّض للخطر كل من يشارك فيه. الجميع كانوا على علم بهذا الأمر. وربما هذا هو السبب الذي حدا بتوماس لأن يلوم نفسه أشد الملامة، لعدم توقيعه العريضة. فما الذي منعه حقّاً من توقيعها؟ ما عاد يفهم بوضوح الحوافز الكامنة وراء هذا الرفض.

وها إني أراه مرة ثانية كما بدا لي في أول هذه الرواية: أمام النافذة، ينظر عبر الباحة إلى حائط البناية المقابل.

إنه وليد هذه الصورة. فكما سبق وقلت لكم، أشخاصي لا يولدون من أجساد أمهاتهم كما تولد الكائنات الحية، ولكنهم يولدون من حالة أو من جملة أو من استعارة تحوي في داخلها برعم احتمالٍ إنساني صميم يُخيَّل للكاتب أنه لم يتسنَّ له اكتشافه بعد أو أنه لم يكتب عنه شيئاً يستحق الذكر حتى الآن.

ولكن، ألا يجري دائماً التأكيد على أنّ الكاتب لا يسعه أن يتحدث إلاّ عن ذاته؟

فالنظر بعجز عبر الباحة وعدم التوصل إلى قرار، وسماع القرقرة المعاندة للبطن أثناء لحظة احتدام عاطفي، والخيانة والعجز عن التوقف على متابعة الطريق الرائعة للخيانات، ورفع القبضة في موكب المسيرة الكبرى، وعرض النكات أمام آلات التسجيل التي أخفتها الشرطة، كل هذه الحالات عرفتها وعشتها بنفسي، لكنّ أيّاً من هذه الشخصيات لا تتحدر من هذه الشخصية التي هي أنا والموجودة في بيان سيرتي. فشخصيات روايتي هي إمكاناتي الشخصية التي لم تتحقق. هذا ما يدفعني لأن أحبهم كلهم ولأن أرتعب منهم في الوقت نفسه. ذلك أنّ كل واحد منهم عَبَر حدوداً ليس في مستطاعي سوى الالتفاف حولها.

وهذه الحدود التي عبروها (والتي بعدها تنتهي «أناي») هي ما يشدني إليهم. لأنّ في هذا الجانب الآخر وحده يبدأ السر الذي تسبر غوره الرواية. فالرواية ليست اعترافاً ذاتياً للكاتب، وإنما تنقيب عمّا تصيره الحياة الإنسانية في الفخ الذي يسمّى العالم. ولكن هذا يكفي. فلنعدْ إلى توماس.

توماس أمام النافذة ينظر عبر الباحة إلى الحائط المتسخ للبناية المقابلة، ويشعر بنوع من الحنين إلى ذلك الرجل طويل القامة ذي الذقن الطويل المعقوف، وإلى أصدقائه الذين لم يعرفهم والذين لا ينتمي إليهم. كمن يلتقي بجميلة مجهولة على رصيف المحطة وقبل أن يتسنى له الوقت للدنو منها، تكون قد صعدت إلى عربة - نوم في قطار متجه نحو لشبونة أو اسطنبول.

أخذ يفكر من جديد: ماذا كان يجدر به أن يفعل. حتى عندما كان يطرح جانباً كل ما له علاقة بالمشاعر، (مثلاً الإعجاب الذي كان يبديه بالصحافي والغضب بسبب ابنه) فهو لم يكن يتوصل إلى معرفة هل كان عليه أن يوقّع على النص الذي عُرض عليه أم لا.

هل صحيح أنه يجب علينا أن نرفع صوتنا حين يُسكت أحدهم رجلاً؟ نعم.

ولكن من جهة ثانية: لماذا كانت الصحف تعلّق أهمية كبيرة على هذه العريضة. ألم يكن بإمكان الصحافة (وهي تقع بأكملها تحت إشراف الدولة) ألا تنبس بكلمة فيما يتعلق بالقضية من الأساس فلا يُعرَف شيئاً عنها؟ إذا كانت قد تحدثت عنها فهذا يعني أنّ الأمر يلائم أسياد البلاد! وأنّ هذه أعطية من السماء يستخدمونها من أجل تبرير حملة جديدة من الاضطهادات.

إذاً، ماذا كان يجدر به أن يفعل؟ التوقيع أو عدمه؟

بالإمكان أيضاً صوغ السؤال على الشكل التالي: أيهما أفضل، الصراخ وتبجيل نهايتنا، أم السكوت والحَوْز على احتضار أكثر بطئاً؟

أيوجد جواب واحد لهذه الأسئلة؟

ومن جديد خطرت له فكرة سبق لنا أن عرفناها وهي: الحياة الإنسانية لا تحدث إلاّ مرة واحدة، ولن يكون في وسعنا أبداً أن نتحقق أي قرار هو الجيد وأي قرار هو السيئ، لأننا في كلّ الحالات لا يمكننا إلاّ أن نقرر مرة واحدة. لأنه لم تعطَ لنا حياة ثانية أو ثالثة أو رابعة حتى نستطيع أن نقارن بين قرارات مختلفة.

وحال التاريخ كحال الإنسان. فالتشيكيون يملكون حكاية تاريخ واحدة. وذات يوم ستنتهي هذه الحكاية مثل حياة توماس دون أن يقدَّر لها أن تتكرر مرة ثانية.

ففي سنة 1618، تشجّع نبلاء بوهيميا وقرروا أن يدافعوا عن حرياتهم الدينية. ومن شدّة حنقهم على الإمبراطور الجالس على عرشه في ڤيينا، ألقوا من نافذة الـ«هرادخين» باثنين من ممثّليه الرفيعي المستوى. وهكذا ابتدأت حرب الثلاثين عاماً التي أدَّت إلى إباحة شبه تامة للشعب التشيكي. فهل كان التشيكيون يحتاجون آنذاك إلى الحذر أكثر مما كانوا في حاجة إلى الشجاعة؟ قد يبدو الجواب سهلاً ولكنه ليس كذلك.

بعد ثلاثمائة وعشرين سنة من هذا التاريخ، أي في سنة 1938 وعلى إثر مؤتمر ميونخ، قرر الشعب بأكمله أن يتخلى عن بلاده لهتلر. إذ هل من المعقول أن يقاتلوا آنذاك وحدهم عدوّاً يفوقهم عدداً بثماني مرّات؟ لقد أظهروا إذاً، خلافاً لما فعلوا في سنة 1618، من الحذر أكثر مما أظهروا من الشجاعة. إن استسلامهم هذا أرّخ لبداية الحرب العالمية الثانية التي انتهت بخسارتهم الكاملة لحريتهم كأمة مستقلة لعشرات السنين ولعدة قرون ربما، فهل كانوا عندها يحتاجون إلى

الشجاعة أكثر مما كانوا في حاجة إلى الحذر؟ ماذا كان عليهم أن يفعلوا؟

لو كان بإمكان التاريخ التشيكي أن يعيد نفسه، لكانت تجربة الاحتمال الآخر أمراً مهماً بالطبع، لأنه إذ ذاك يمكن المقارنة بين النتيجتين. ولكن، بانعدام وجود هذه التجربة، فإنّ هذه البراهين كلها تبقى لعبة افتراضات.

مرة واحدة لا تُحْسَب، مرة واحدة هي أبداً. تاريخ بوهيميا لن يتاح له أن يتكرر مرة ثانية ولا تاريخ أوروبا أيضاً. فتاريخ بوهيميا وتاريخ أوروبا هما محاولتان خطّهما انعدام الخبرة المحتم للبشرية. فالتاريخ خفيف بقدر ما هي الحياة الإنسانية خفيفة، خفيفة بشكل لا يطاق، خفيفة مثل الوبر، مثل غبار متطاير، مثل شيء سيختفي غداً.

فكّر توماس بشيء من الحنين أو من الحبّ ربّما، في الصحافي الطويل القامة والمحني الظهر. كان ذلك الرجل يتصرف وكأنّ كل ما يفعله سوف يتكرر مرات لا عدّ لها في سياق العود الأبدي. كان توماس متأكداً أنه لا يشك في أعماله، ومقتنعاً بأنه كان على حق. وهو لا يرى في يقين الرجل هذا دليلاً على بلادة الذهن بل علامة على فضيلة. كان يعيش في حكاية مختلفة عن حكاية توماس، في حكاية لم تكن محاولة أولية، مسوّدة (أو لم تكن تعي نفسها على أنها كذلك).

16

بعد ذلك بوقت قصير، خطرت له أيضاً هذه الفكرة. وأُنوِّه بها لألقي ضوءاً على الفصل السابق: لنفرض أنّ هناك كوكباً آخر في الكون حيث يمكن أن نولد مرة ثانية، وحيث يمكن أيضاً أن نتذكر تماماً ما حصل لنا في حياتنا السابقة على الأرض وكل التجربة التي اكتسبناها في هذه الدنيا.

ولنفرض أنّ هناك ربما كوكباً ثالثاً حيث يستطيع كل منا أن يبصر النور مرة ثالثة مزوّداً بالخبرة التي اكتسبها خلال الحياتين السابقتين اللتين عاشهما.

وأنّ هناك أيضاً وأيضاً كواكب أُخرى حيث يمكن للجنس البشري أنّ يولد من جديد مرتقياً في كل مرة درجةً (أي حياة) على سُلّم الكمال.

تلك هي الفكرة التي يكوّنها توماس عن العَوْد الأبدي.

نحن أيضاً سكان هذه الأرض (أي الكوكب رقم واحد، كوكب عدم الخبرة)، ليس في إمكاننا طبعاً إلاّ أن نكوّن فكرة غامضة جداً عمّا يحلّ بالإنسان على الكواكب الأخرى. تُرى أيكون أكثر ثقلاً؟ هل الكمال في متناول يده؟ وهل يستطيع الوصول إليه بواسطة التكرار؟

ضمن أفق هذه اليوتوبيا وحده، يمكن لمفهومَي التشاؤم والتفاؤل أن يكون لهما معنى: فالمتفائل هو ذلك الذي يتصور أنّ التاريخ الإنساني سيكون أقل نزفاً على الكوكب رقم 5. والمتشائم هو مَنْ لا يصدّق ذلك.

17

لجول فيرن رواية شهيرة كان توماس يحبها كثيراً عندما كان طفلاً وعنوانها «سنتان من العطلة». وهذا صحيح، فإنّ الحدّ الأقصى لعطلة ما هو سنتان. وها قد انقضت ثلاث سنوات تقريباً وتوماس لا يزال منظّفاً للزجاج.

خلال هذه الأسابيع الأخيرة، أخذ يكتشف (بحزن ولكن أيضاً بفرح غامض) أنه بدأ يتعب جسدياً (كان يشن كل يوم معركة وأحياناً معركتين جنسيتين) وأنه، دون أن يفقد شيئاً من شهيته للنساء، لم يكن

في استطاعته ممارسة الجنس معهنّ إلاّ لقاء شحن كامل لقواه كلها (لا أعني قواه الجنسية وإنما قواه الجسدية، فهو لم يكن يعاني صعوبات مع قضيبه بل مع نَفَسه. وهذا بالضبط ما كان يبدو له مضحكاً).

كان يحاول ذات يوم أن يعيّن موعداً لفترة ما بعد الظهر. ولكن، وكما يحدث أحياناً، لم تردّ أي صديقة من صديقاته على الهاتف فأوشك ما بعد الظهر أن يكون قاحلاً. كان يشعر باليأس. حاول أن يتصل عشرات المرات بامرأة شابة كانت طالبة في معهد التمثيل وجميلة جداً. كان جسدها الذي ذهّبته الشمس على أحد شواطئ العراة في مكان ما من يوغسلافيا يزدهي بسمرة متسقة تماماً وكأنه قُلّب على شيش يدور بدقة عجيبة.

خابرها من كل المخازن حيث كان يعمل ولكن دون جدوى. ونحو الساعة الرابعة، عندما كان راجعاً بعد انتهاء جولته إلى المكتب ليقدم لوائح الحساب الموقّعة، نادته واحدة في شارع وسط براغ. كانت تبتسم له قائلة: «دكتور، أين كنت تختبئ! لقد سهوْتَ عن بالي تماماً!».

كان توماس يبذل جهداً ليتذكر من أين كان يعرفها. هل هي إحدى مريضاته القديمات؟ كانت تتصرف معه وكأنها صديقة حميمة فحاول أن يجيبها بطريقة لا تُظهر أنه لا يعرف مَنْ تكون. وعندما كان يتساءل كيف سيقنعها بمرافقته إلى شقة صديقه الصغيرة والتي يملك مفتاحها في جيبه، كشفت له ملاحظة مفاجئة عمّن تكون هذه المرأة: إنها الطالبة في معهد التمثيل، صاحبة الجسد البرونزي الرائع التي كان يخابرها دون توقف طوال النهار.

أمتعه هذا الحادث المزعج وأرعبه في الوقت نفسه: فهو لم يكن منهكاً جسدياً فحسب بلْ عقلياً أيضاً. فَسَنتا العطلة لا يمكن إطالتهما إلى غير أمد.

كانت العطلة دون طاولة العمليات عطلة أيضاً دون تيريزا: فأيام بكاملها كانت تمر دون أن يتقابلا. وحين يجتمعان أخيراً في يوم الأحد، كانا يمثلان رغبة واحدهما في الآخر ولكن يظلاّن بعيدين كما في ذلك المساء حين رجع توماس من زوريخ وتوجَّب عليهما أن يجتازا طريقاً طويلة قبل أن يقدرا على التلامس أو المعانقة. كانت العلاقة الجنسية تمنحهما المتعة ولكنها لا تمنحهما أية مواساة. فهي لم تعد تصرخ كما كانت تفعل من قبل حين كانت تصل إلى لحظة النشوة، بل كانت تبدو تكشيرتها وكأنها تعبّر عن الألم وعن غياب غريب. لم يكونا متحدين بحنان إلاً في الليل أثناء النوم. كانا يتماسكان دائماً بأيديهما فتَنسى عندئذ الهاوية (هاوية ضوء النهار) التي كانت تفصل بينهما. ولكن هذه الليالي لم تكن تعطي توماس لا الوقت ولا الوسيلة لحمايتها والاعتناء بها. لذلك فهو عندما كان يراها في الصباح ينقبض قلبه ويرتجف خوفاً من أجلها: كانت تبدو حزينة ومتوعكة.

ذات يوم اقترحت عليه أن يركبا السيارة وينطلقا إلى مكان ما في الريف. ذهبا إلى مدينة المياه المعدنية حيث اكتشفا أن جميع الشوارع هناك قد تغيرت أسماؤها وأصبحت روسية، وحيث التقيا بأحد مرضى توماس القدامى. أثّر فيه هذا اللقاء. فها إنّ أحداً يتحدث معه فجأة كما يجري التحدث مع طبيب. لقد اعتقد لوهلة أنه استعاد حياته السابقة بنظاميتها المريحة وساعات المعاينة ونظرات المرضى الواثقة التي كان يتظاهر بأنه لا يعيرها اهتماماً فيما هي تمنحه حقاً الرضا الذي يفتقر إليه.

أخذ توماس إذاً يرَدد في نفسه، وهو يقود السيارة أثناء عودتهما، إن رجوعهما من زوريخ إلى براغ كان خطأً فادحاً. كان يُبقي عينيه

مسمرتين باتجاه الطريق كي يتحاشى رؤية تيريزا. كان حضورها إلى جانبه ينكشف له في كل احتماليته التي لا تُحتمل. فلماذا كانت إلى جانبه؟ ومن ذا الذي وضعها في سلة وتركها لتجري مع المياه؟ ولماذا قُدّر لها أن ترسو على سرير توماس؟ ولماذا هي بالذات دون سواها؟

كانا يسيران في السيارة ممتنعين عن الكلام طوال الطريق.

كان الصمت ينتصب بينهما كالشقاء، ويثقل في كل دقيقة. ولكي يتخلصا منه أسرعا إلى النوم. وأثناء الليل أيقظها ليخلّصها من نحيبها فأخبرته: «كنت مدفونة. منذ زمن بعيد. وكنت تأتي لزيارتي كل أسبوع. كنت تقرع على السرداب فأخرج. كانت عيناي ممتلئتين تراباً».

كنت تقول: «أنتِ لا تستطيعين أن تري شيئاً». ثم أخذْتَ تزيل التراب عن عينيَّ.

وكنتُ أردّ عليك: «لكني في جميع الأحوال لن أرى شيئاً. فهناك فجوتان مكان العينين».

ثم ذهبْتَ مدة طويلة وكنت أعرف أنك برفقة امرأة أُخرى. كانت الأسابيع تمرّ وأنت لا تعود. وأنا لم أعد أنام إطلاقاً، لأنني كنت أخاف من أن أفوّت عودتك. وذات يوم رجعت أخيراً وقرعت على السرداب، ولكني كنت منهكة لأنني لم أنم منذ شهر كامل، فبالكاد كانت لي القوة لأخرج من السرداب. وعندما تمكنْتُ من ذلك أخيراً، كنتَ تبدو وكأنك خائب. كنت أعرف أنني لا أروق لك وأن خدّيَّ غائران وأنني أقوم بحركات فظة وغير متماسكة.

ولكي أعتذر إليك، قلت: سامحني لم أنم منذ ذلك الوقت.

فقلْتَ لي بصوت مطمئن، لكن خادع: أرأيتِ، يجب أن ترتاحي، أن تأخذي عطلة شهر.

وكنت أعرف جيداً ماذا تقصد وأنت تتحدث عن العطلة! كنتُ

أعرف أنك تريد أن تبقى شهراً كاملاً دون أن تراني لأنك ستكون برفقة واحدة أخرى. ذهبْتَ ونزلْتُ أنا من جديد إلى عمق القبر. كنت أعرف أنني سأبقى شهراً أخر دون نوم لأني لا أريد أن أفوّت عودتك. وأعرف أيضاً أنك حين ستعود بعد شهر، سأكون أشدّ قبحاً وستكون أكثر خيبة من قبل.

لم يكن قد سمع في حياته حكاية مزّقت قلبه كهذه الحكاية. أخذ يضم تيريزا وجسدها يرتعش بين ذراعيه. كان يفكر أنه لم تعد لديه القوة ليتحمل الحب الذي يكنّه لها.

بإمكان الكوكب أن يتهاوى على أثر تفجير القنابل. ويمكن للوطن أن ينهبه كل يوم مختلس جديد، ويمكن لسكان الحي جميعهم أن يُساقوا إلى كتيبة الإعدام. يمكنه أن يتحمل كل هذا بسهولة أكبر مما يجرؤ على القول، ولكنه غير قادر على تحمّل الحزن الذي يسببه حلم واحد من أحلام تيريزا.

كان يرجع إلى داخل الحلم الذي أخبرته به لتوّها. كان يراها أمامه. كان يداعب خدّيها ثم يزيل التراب، بحذرٍ شديد لئلا تلاحظ شيئاً، من فجوتي عينيها. ويسمعها تقول هذه الجملة، الجملة الأكثر إيلاماً بين الجمل كلها: «لكني في جميع الأحوال لن أرى شيئاً. هناك فجوتان مكان العينين».

كان قلبه ينقبض ويشعر أنه على شفير الإصابة بالسكتة القلبية.

عادت تيريزا إلى النوم من جديد. ولكنه هو لم يستطع النوم. كان يتخيلها ميتة وترى أحلاماً رهيبة. ولم يكن في استطاعته إيقاظها لأنها ميتة. نعم، هذا هو الموت: أن تنام تيريزا وترى أحلاماً فظيعة دون أن يتمكن من إيقاظها.

19

خمس سنوات قد مرّت على اجتياح الجيش الروسي لبلاد توماس وبراغ كانت تتغير كثيراً: لم يكن الناس الذين يصادفهم توماس في الشارع هم أنفسهم الذين كان يراهم في السابق، وكان نصف أصدقائه قد هاجروا والنصف الآخر، الذين لم يهاجروا، ماتوا. وهذا الحدث لن يدوّنه أي مؤرخ. كانت السنوات التي أعقبت الاجتياح الروسي، سنوات مآتم ، إذ لم يسبق أن حدثت وفيات بهذه الكثرة. لا أتكلم فقط عن الحالات (وهي نادرة على كل حال) حيث طُورد أُناس حتى الموت كما حصل ليان بروخازكا. فبعد مرور خمسة عشر عاماً على إذاعة أحاديثه الخاصة المسجّلة عبر الراديو يومياً، أُدخل إلى المستشفى. لا شك أن السرطان الذي كان يرقد سراً داخل جسده منذ فترة طويلة بدأ يتفتح مثل وردة. أُجريت العملية له بحضور الشرطة. وعندما اكتشفت هذه الأخيرة بأن ليس هناك من أمل في شفائه، كفّت عن الاهتمام به وتركته يموت بين ذراعي زوجته. ولكن الموت كان يتزل أيضاً بهؤلاء الذين لم يكونوا مضطهدين مباشرة. كان اليأس الذي ضرب البلاد مستحوذاً على الأجساد وزارعاً الذعر فيها ينفذ أيضاً إلى الروح. . كان بعضهم يتهربون من النِّعَم التي كان النظام يريد أن يغدقها عليهم لإجبارهم علانية على الظهور إلى جوار القادة الجدد. هكذا حصل مع الشاعر فرانتشك هروبين الذي مات وهو يتهرب من محبة الحزب. فلحقه وزير الثقافة، وهو الذي كان حاول بكل ما أوتي من قوة الفرار منه، لحقه حتى النعش وألقى على قبره خطبة ضَمَّنها محبة الشاعر للاتحاد السوفياتي. ربما تلفّظ بهذا الكلام الشنيع لعلّه يُقيم الميت من رقاده. ولكن العالم كان من البشاعة بحيث إنّ ما من أحد كان يريد أن يُبعث من بين الأموات.

ذهب توماس إلى محرقة الجثث لحضور مأتم عالم إحياء شهير كان قد طُرِد من الجامعة ومن أكاديمية العلوم. ولكي يتجنبوا تحوّل الجنازة إلى تظاهرة، كانوا يحظّرون الإشارة إلى ساعة الدفن على أوراق النعي. ولم يبلّغوا الأقارب إلاّ آخر لحظة بأنّ الفقيد سيتم إحراقه في الساعة السادسة والنصف صباحاً.

عندما دخل توماس إلى صالة مَحْرقة الجثث، وجد صعوبة في فهم ما كان يجري. كانت الصالة مُضاءة وكأنها صالة استوديو. نظر حواليه مدهوشاً فلمح آلات التصوير في ثلاث زوايا من الصالة. لا، ليس موظفو التلفزيون هم الذين يقومون بالتصوير. بل كانت الشرطة تصوِّر حفل الجنازة لكي تتحقق من هوية المشاركين فيه. ثم تجرّأ زميل قديم للفقيد، وهو كان لا يزال عضواً في أكاديمية العلوم، على إلقاء بضع كلمات أمام النعش. لم يكن يفكر أنه سيصير بهذه السهولة نجماً سينمائياً.

بعد الجنازة وبعد أن صافح الجميع عائلة الفقيد، لمح توماس في إحدى زوايا الصالة جماعة صغيرة فَتعرّف فيها إلى الصحافي صاحب القامة الطويلة والمحنية. شعر من جديد بالحنين إلى هؤلاء الناس الذين لا يهابون شيئاً والذين تربط بعضهم ببعض صداقة قوية. اقترب منه وابتسم له هامّاً بأن يقول صباح الخير ولكن الرجل ذا الجسد الفارع والمنحني قال له: «احذر يا دكتور، من الأفضل ألاّ تقترب».

كانت هذه الجملة غريبة. فهو كان يرى فيها إنذاراً صادقاً ومحباً («احترس، إنهم يصوروننا، لو توجهت إلينا بالكلام ستكون عندئذ نافعاً في استجواب جديد»). ولكنه لم يكن يستبعد في الوقت نفسه أنها كانت تتضمن نبرة ساخرة («لم تتسنَّ لك الشجاعة لتوقّع على العريضة. كن منطقياً إذاً ولا تتواصل معنا»). أيّاً كان التأويل الصائب لهذه الجملة، فإنّ توماس امتثل وانسحب. كان يشعر أن تلك الجميلة

المجهولة التي صادفها على رصيف المحطة كانت تصعد إلى عربة نوم في قطار سريع. ثم في اللحظة التي أراد أن يُسرّ إليها بإعجابه، وضعت إصبعاً على شفتيها لتمنعه من الكلام.

20

وفي فترة ما بعد الظهر أيضاً جرى له لقاء هام. كان يقوم بتنظيف واجهة أحد محلات الأحذية عندما توقّف رجل شاب على بعد خطوتين منه. انحنى الرجل فوق الواجهة ليتفحص الأسعار.

«كلّ شيء يزداد ثمناً»، قال توماس دون أن يكفّ عن تمرير اسفنجته على الزجاج المبلّل.

التفت الرجل. كان ذلك الزميل في المستشفى، والذي دعوْتُه س... والذي كان يبتسم ساخطاً على توماس معتقداً أنّ هذا الأخير كتب رسالة النقد الذاتية. سُرَّ توماس لهذا اللقاء (إنها المتعة الساذجة التي تجلبها لنا الصدفة) ولكنه ما لبث أن لمح في نظرة زميله (فهو لم يتسنَّ له في الثانية الأولى الوقت ليتحكم بردّ فعله) تعبيراً عن مفاجأة لا تروق له.

- «كيف الحال؟» سأل س...

وقبل أن يصوغ جوابه فهم توماس أن س... كان خجلاً من سؤاله.. كان جلياً أنه تصرف أحمق أن يبادر طبيب لا يزال يمارس مهنته إلى أن يسأل طبيباً ينظف الواجهات، عن حاله.

- «في أحسن ما يكون». أجاب توماس وهو يتصنَّع المرح لكي يخفف عن الطبيب انزعاجه. لكنه أحسّ فوراً أنّ عبارة «في أحسن ما يكون» يمكن أن تؤوّل رغماً عنه (وبسبب النبرة الفكِهة التي لجأ إليها بالذات).

لذلك استعجل يقول: «هل هناك من جديد في المستشفى؟».

فأجاب س. . . : «لا، كل شيء، لمّا يزلْ على حاله».

ولكن هذا الجواب والذي كان يتظاهر بأنه محايد كلياً، كان في غير موضعه تماماً. وكلّ منهما يعرف ذلك ويعرف أنّ الآخر يعرف: إذ كيف بإمكان كل شيء أن يكون على حاله فيما أحد الطبيبيْن منظّف زجاج؟

ثم قال توماس متحرياً: «ورئيس القسم؟».

- «ألا تراه؟» سأل س. . .

فقال توماس: «لا».

كان هذا صحيحاً. فهو منذ رحيله عن المستشفى لم يرَ قط رئيس القسم ثانية، مع أنهما كانا في السابق متعاونين ممتازين وحتى أنهما كانا يميلان تقريباً إلى أن يعدّا نفسيهما صديقين. ومهما يكن، فإنّ «اللاّ» التي تلفَّظ بها لتوه كان فيها شيء من الحزن. فأخذ توماس يشك في أن س. . قد استاء منه لأنه طرح عليه هذا السؤال ذلك أن س. . بالذات ورئيس القسم لم يأتيا قط إلى زيارة توماس والسؤال عن أحواله أو عمّا إذا كان محتاجاً إلى شيء.

كان الحوار بين الزميلين القديمين يصير مستحيلاً، ولو أنّ كليهما يأسف لذلك وخصوصاً توماس. فتوماس لم يكن يحمل أي ضغينة لأصدقائه بسبب أنهم نسوه. وكان في نيته أن يشرح ذلك في الحال للطبيب الشاب. كان راغباً في أن يقول له: «لا تكلّف نفسك هذا الانزعاج. فأَمْرٌ طبيعي أنك لم تحاول التردد لزيارتي، فهذا يسير وفق المجرى المعروف للأمور. لا داعي لأن تحمّل نفسك أي شعور بالخجل! ومن دواعي سروري أن ألتقيك!» ولكنه لم يجرؤ على هذا القول، لأنّ أيّاً من كلماته لم يتضمن هذا المعنى الذي يحمّلها إياه

الآن. وفوق ذلك، يمكن لزميله القديم ساعتها أن يشتبه بأنه يُضمر سخريةً وراء جملة صادقة على كل حال.

وأخيراً قال س. . . «اعذرني، إني مستعجل». ثم صافحه وقال: «سأتصل بك».

في السابق، حين كان زملاؤه يحتقرونه بسبب جبنه المفترض كانوا يبتسمون له كلهم. أما الآن، وفيما لم يعودوا قادرين على احتقاره، لا بل صاروا مرغمين على احترامه، فقد بدأوا يتحاشونه.

وفضلاً عن ذلك، فإنّ مرضاه القدامى لم يعودوا يدعونه إلى عبّ الشمبانيا احتفالاً به. والسبب أنّ وضع المثقفين المُبعدين لم يعد استثنائياً بل صار حالة مستمرة وغير مستحبّة.

21

رجع إلى البيت ثم اندسَّ في الفراش ونام بسرعة أكثر من المعتاد. بعد نحو ساعة تقريباً، أيقظه ألم في معدته. كان هذا ألمه القديم الذي يعاوده في لحظات الإحباط. فتح خزانة صيدليته، لا توجد أدوية. شتم. . لقد نسي أن يتزود منها، فحاول أن يخمد نوبة الألم بقوة الإرادة ووُفِّق إلى ذلك تقريباً، ولكنه لم يستطع الرجوع إلى النوم. عندما عادت تيريزا عند الواحدة والنصف صباحاً، رغب في أن يتحدث إليها. أخبرها عن الدفن وعن الصحافي الذي رفض التحدث معه وعن لقائه بزميله س. . .

قالت تيريزا: براغ تصير بشعة.

قال توماس: هذا صحيح.

بعد فترة قصيرة، قالت تيريزا بصوت منخفض: الأفضل هو أن نرحل عن هنا.

قال توماس: أجل، لكننا لا نستطيع الذهاب إلى أي مكان.

كان يجلس على السرير مرتدياً بيجامته. جاءت وجلست قربه ثم طوّقته بذراعها.

قالت تيريزا: إلى الريف.

قال مدهوشاً: إلى الريف؟

- هناك سنكون وحدنا. لن نلتقي لا الصحافي ولا زملاءك القدامى. هناك سنلتقي أناساً مختلفين والطبيعة التي ما زالت على عهدها.

عندها أحسّ توماس من جديد بألم غامض في معدته. كان يشعر أنه عجوز وأن لا رغبة له في شيء آخر عدا قليل من الطمأنينة والسلام.

ثم قال بعد جهد، لأنه يتنفس بصعوبة عندما يكون مريضاً: «ربما أنت على حق».

أردفت تيريزا: سيكون عندنا كوخ وحديقة صغيرة وستمضي كارنينا هناك أوقاتاً ممتعة جداً.

- «نعم». قال توماس.

ثم حاول أن يتصوّر ماذا سيحدث لو أنهما ذهبا حقاً للعيش في الريف. هناك سيجد صعوبة في أن يحظى بامرأة جديدة كل ثمانية أيام. هناك ستكون إذاً خاتمة مغامراته الجنسية.

كان الألم يزداد، ولم يعد في استطاعته الكلام. فكّر أنّ مطاردته للنساء كانت هي أيضاً «ما ليس منه بدٌّ» وضرورة تستعبده. كان راغباً حقاً في أن يأخذ عطلة. ولكن عطلة تامة وتسريحاً من الضرورات كلها. إذا كان قد استطاع في السابق أن يطلب تسريحاً من طاولة العمليات في المستشفى، فلماذا لا يكون في إمكانه أيضاً أن يطلب تسريحاً من طاولة عمليات العالم حيث كان يفتح بمبضعه الخيالي خزنة

«الأنا» الأنثوية فيكتشف هذا الجزء من مليون من الاختلاف؟

وأخيراً لاحظت تيريزا: هل معدتك تؤلمك؟

ردَّ بالإيجاب.

- هل حقنت نفسك بإبرة؟

أجاب نفياً برأسه، ثم أضاف: نسيت أن أشتري أدوية.

لامته على إهماله وداعبت جبينه الناضح بالعَرَق.

قال: أنا الآن أحسن حالاً.

قالت: «تمدد» ثم دثّرته بالغطاء. ذهبت إلى غرفة الحمام ثم عادت بعد قليل لتتمدد إلى جانبه.

أدار رأسه نحوها على الوسادة فأصيب بالذهول: كان الحزن المنبعث من عينيّ تيريزا غير محتمل.

قال: اسمعيني يا تيريزا! ماذا بك؟ أنتِ غريبة الأطوار منذ فترة. أشعر بذلك وأعرفه.

هزّت رأسها: لا، ليس بي شيء.

- لا تنكري!

قالت: إنه الأمر نفسه دائماً.

«الأمر نفسه دائماً»، هذا يعني إذاً أنها كانت تشعر بالغيرة وأنه كان خائناً باستمرار.

ولكن توماس كان يُصرّ: لا يا تيريزا، هذه المرة، الأمر مختلف. فأنا لم أركِ في مثل هذه الحالة من قبل.

احتجت تيريزا قائلة: حسناً، ما دمت تريد أن أقول لك: قم واغسلْ رأسك!

لم يكن يفهم.

قالت بحزن ودون عدائية وبشيء من الحنان: لشعرك رائحة نفّاذة منذ عدة أشهر. تفوح منه رائحة فرْج. لم أكن أريد أن أقول لك ذلك. ولكن ها أنا لا أعرف كم من الليالي جعلتني أتنشق رائحة فرْج إحدى عشيقاتك.

وعلى إثر هذه الكلمات، عاودته تشنجات معدته. كان الأمر ميؤوساً منه. فهو كان يغتسل بإفراط ويفرك جسمه كله يديه ووجهه بعناية فائقة كي لا يترك أي أثر لرائحة غريبة. كان يتحاشى في حمّامات النساء الأخريات أن يستعمل الصابون المعطّر. بل كان يتزود دائماً بصابونه الخاص المستورد من مرسيليا. لكن غاب عن باله أن يغسل شعره. أما الشعر، فلا، لم يكن يفكر في الأمر!

تذكّر عندئذ المرأة التي كانت تفرشخ فوق رأسه وتأمره بأن يضاجعها بواسطة وجهه وأعلى جمجمته. كم كان يكرهها الآن! ويكره هذه الأفكار البلهاء! كان يجد أنه لا توجد وسيلة لأن ينكر. فهو لا يسعه إلاّ أن يضحك بسذاجة ويتحضر للذهاب إلى غرفة الحمام ليغسل رأسه.

أخذت تداعب جبينه من جديد. «ابقَ في سريرك. لا تحمّل نفسك هذا العناء. لقد تعودت على الأمر».

كانت معدته تؤلمه ولم يكن راغباً إلاّ في الهدوء والسلام.

قال: سأكتب رسالة إلى ذلك المريض الذي التقيناه في مدينة المياه المعدنية. هل تتذكرين في أي منطقة توجد قريته؟

قالت تيريزا: لا.

كان توماس يشعر بمشقة في الكلام. كان يوفّق فقط إلى تلفّظ بعض الكلمات: «غابات... تلال...».

- «أجل، هذا ما عنيت. فلنرحل عن هنا». ولكن توقّف عن

الكلام الآن. كانت لا تزال تداعب جبينه. كانا متمددين جنباً إلى جنب دون أن يقولا شيئاً. أخذ الألم ينحسر ببطء. وبعد قليل، استسلم كلاهما للنوم.

22

استيقظ في ساعة متأخرة من الليل متعجباً من اكتشافه أنه رأى أحلاماً جنسية في منامه. كان لا يتذكر بوضوح إلاّ الحلم الأخير: كانت هناك امرأة عملاقة تسبح عارية في بركة للسباحة. كانت أطول منه بخمس مرات وبطنها مكسواً بشعر كثيف يمتد من بين فخذيها وحتى السرّة. كان يراقبها من عند الحافة وهو في أشدّ الهياج.

كيف أمكنه أن يكون مهتاجاً في الوقت الذي كانت تهدُّ جسدَه آلامُ معدته؟ كيف أمكنه أيضاً أن تهيجه رؤية امرأة لا يسعها إلاّ أن تشعره بالقرف فيما لو كان مستيقظاً؟

فقال في نفسه: هناك عجلتان مسننتان تدوران في اتجاه مخالف داخل آلات ساعة الدماغ. على واحدة منهما الرؤى وعلى العجلة الثانية ردود فعل الجسد. فالسن الذي انطبعت عليه صورة امرأة عارية يتشابك في الجهة المقابلة مع السن الذي سجّلت عليه ضرورة الانتصاب. فلنفترض أنّ العجلة قفزت سناً واحداً لسبب أو لآخر. وأن سنّ التهيّج اتصل صدفة بالسنّ الذي رسمت عليه صورة لسنونوة تحلّق في طيرانها، عندها سينتصب قضيبنا لمرأى هذه السنونوة.

من جهة ثانية، كان توماس قد اطلع على دراسة أجراها أحد زملائه وهو اختصاصي في مجال النوم. كان يؤكّد فيها أنّ الرجل الذي يحلم، هو في حالة انتصاب دائمة أياً يكن حلمه. ارتباط الانتصاب بصورة امرأة عارية ليس إذاً إلاّ طريقة ضبط اختارها الخالق من بين آلاف الاحتمالات لينظّم بها حركة آلات الساعة في رأس الرجل.

أما ما علاقة كل ذلك بالحب؟ فلا شيء. إذا دارت عجلة سنّاً واحداً في رأس توماس فتهيج لمرأى سنونوة، فهذا لن يغيّر شيئاً في حبه لتيريزا.

إذا كان الهياج الجنسي آلية يتسلى بها الخالق، فإنّ الحب، خلافاً لذلك لا ينتمي إلاّ إلينا ويمكننا من خلاله الإفلات من قبضة الخالق. فالحب هو حريتنا. الحب هو ما وراء كل «ما ليس منه بدّ».

ولكن هذا أيضاً لا يعطي فكرة كاملة عن الحقيقة. حتى ولو كان الحب مختلفاً عن آلية ساعة الجنس التي ابتدعها الخالق ليتسلّى، فهو مع ذلك موثوق إلى الجنس كما توثق امرأة غضة عارية إلى رقّاص ساعة هائلة.

قال توماس في نفسه: إنّ ربط الحب بالجنس هو إحدى الأفكار الأكثر غرابة للخالق.

وقال في نفسه أيضاً ما معناه: الوسيلة الوحيدة لإنقاذ الحب من غباء الجنس قد تكون في ضبط الساعة بطريقة مختلفة في رأسنا فنتهيّج لرؤية السنونوة.

وعلى هذه الفكرة العذبة، أخذه النعاس. وإذ هو على عتبة النوم، هناك في المساحة الساحرة للرؤى المشوشة، تيقن فجأة من أنه كان يكتشف حلّ الألغاز كلها، مفتاح السرّ، يوتوبيا جديدة، الجنة: كان يكتشف عالماً حيث نتهيج لرؤية سنونوة وحيث بإمكانه أن يحبّ تيريزا دون أن يضايقه الغباء الأرعن للجنس.

ثم نام من جديد.

23

كان وسط نساء شبه عاريات يحمنَ حوله وكان يشعر بالتعب. ثم، لكي يتمكن من الإفلات منهن، فتح باباً يؤدي إلى غرفة مجاورة. رأى

قبالته امرأة شابة مستلقية على أريكة. كانت هي أيضاً شبه عارية وليس عليها سوى سروال داخلي فقط. كانت مستلقية على جنبها ومتكئة إلى مرفقها وتنظر إليه وهي تبتسم وكأنها عارفة أنه سيأتي.

اقترب منها فانتشرت سعادة قصوى في حنايا جسده. فها قد عثر عليها أخيراً وأصبح في مستطاعه الاختلاء بها. جلس قربها وهمس لها بضع كلمات فأسرّت إليه بدورها ببضع كلمات. كانت تشع هدوءاً وحركات يديها بطيئة ناعمة. طوال حياته حلم بمثل هذه الحركات الناعمة. طوال حياته افتقد هذا الهدوء الأنثوي بالذات.

ولكن، في هذه اللحظة، انزلق من النعاس إلى الوعي الجزئي. كان في تلك المنطقة المحايدة حيث لا نكون في حالة النوم ولا في حالة اليقظة أيضاً. كان حانقاً من أنه رأى تلك المرأة تختفي، وكان يقول في نفسه: يا إلهي! يجدر ألا أفقدها. كان يحاول أن يستجمع قواه ليتذكر أين التقى بها وأي حياة عاش معها. هل من المعقول أن يتذكر هذا وهو يعرفها حق المعرفة؟ عزم على أن يتصل بها باكراً. ولكنه ارتجف خوفاً لساعته عندما فكر أنه لن يتمكن من الاتصال بها والسبب أنه لا يتذكر اسمها. كيف أمكنه أن ينسى اسم شخص يعرفه حق المعرفة؟ ثم عندما استفاق تماماً، فتح عينيه وقال في نفسه: أين أنا؟ عرفْتُ، أنا في براغ. ولكن تلك المرأة هل هي من براغ أيضاً؟ ألم ألتقِها في مكان آخر؟ أو ربّما تعرفت إليها عندما كنت في سويسرا؟ لزمه بعض الوقت ليفهم أنه لم يكن يعرف هذه المرأة وأنها لم تكن لا من زوريخ ولا من براغ، بل من منطقة الحلم، لا من أي مكان آخر غير الحلم.

كان مضطرباً إلى حد بعيد فاستوى على حافة السرير. كانت تيريزا تتنفّس تنفساً عميقاً إلى جواره. كان يقول في نفسه إنّ امرأة حلمه الشابة لا تشبه أي امرأة من النساء اللواتي عرفهن في حياته. تلك المرأة الشابة

التي بدت أليفة جدّاً، كانت غريبة عنه تماماً. ولكن هي من رغب فيها على الدوام. لو أنه وجد ذات يوم جنّته الخاصة، هذا إذا افترضنا أنّ هناك جنة، فلا بدّ أنه كان سيعيش فيها إلى جانب هذه المرأة. كانت المرأة الشابة لحلمه هي «ما ليس منه بدّ» لحبه!

تذكّر عندئذ أسطورة «مأدبة» أفلاطون الشهيرة. ففي السابق كان البشر مزدوجي الجنس فقسّمهم الله إلى أنصاف تهيم عبر العالم يفتّش بعضها عن بعض. الحب هو تلك الرغبة في إيجاد النصف الآخر المفقود من أنفسنا.

فلنفترض أن هذا صحيح وأنّ كل واحد منا يملك في مكان ما من العالم شريكاً كان يؤلّف معه فيما مضى جسداً واحداً. إذاً، النصف الآخر لتوماس هو المرأة الشابة التي رآها في منامه. ولكن لن يتسنّى لأحد أن يصادف النصف الآخر من ذاته. لقد أُرسلت له تيريزا، عوضاً عن المرأة، في سلة عبر مجرى المياه. ولكن ما الذي سيحدث لو أنه التقى فعلاً في وقت لاحق المرأة التي قُدّرت له، أي النصف الآخر من ذاته؟ لمن ستكون الأفضلية؟ للمرأة التي وجدها في سلة أم للمرأة الطالعة من أسطورة أفلاطون؟

أخذ يتصور بأنه يعيش في عالم مثالي إلى جوار امرأة حلمه. وها إنّ تيريزا تمرُّ بالقرب من الشبابيك المفتوحة لدارتهما. ها إنها تتوقف وحيدة على الرصيف وتُلقي نحوه من بعيد نظرة حزينة، حزينة. عندئذ، سوف يشعر مرة أخرى بألم تيريزا في قلبه! مرة أخرى سيكون فريسة الشعور بالشفقة وسيغور في روح تيريزا. وإذ ذاك، سوف يقفز من النافذة فيُفاجأ بأنها تقول بمرارة ما عليه إلاّ أن يبقى حيث يشعر بالسعادة. ثم تقوم بتلك الحركات العصبية وغير المتماسكة التي أثارت حنقه على الدوام والتي وجدها مزعجة على الدوام. فيمسك بيديها المرتجفتين ويضمهما إلى يديه بقوة ليهدّئ من روعهما. عندئذ أيضاً

سيعرف أنه مستعد لأن يترك في أية لحظة بيت سعادته، وأنه مستعد لأن يترك في أية لحظة الجنة التي يعيش فيها مع امرأة حلمه، وأنه سيخون «ما ليس منه بدّ» لحبّه في سبيل الرحيل مع تيريزا، هذه المرأة المولودة من ستّ صُدَفٍ مضحكة.

كا جالساً على السرير ينظر إلى المرأة النائمة إلى جواره والتي كانت تمسك بيده أثناء نومها: كان يشعر نحوها بحب لا يفسر. لا شكّ أنها في هذه اللحظة غارقة في نوم هش جداً لأنها فتحت عينيها وألقت نحوه نظرات مذعورة.

ثم سألته: إلامَ تنظر؟

كان يعرف أنه لا ينبغي له أن يوقظها بل أن يعيدها إلى النوم من جديد. حاول أن يجيبها بكلمات يمكن أن تبعث في فكرها شرارة حلم جديد.

فقال: أنظر إلى النجوم.

- لا تكذب، أنت لا تنظر إلى النجوم بل تنظر إلى الأرض.

- ولكن بما أننا في الطائرة، فإنّ النجوم تحتنا.

- «آه، حسناً» قالت تيريزا. كانت تشدّ على يد توماس بقوة أكبر، ثم ما لبثت أن استرسلت في النوم. كان توماس يعرف أن تيريزا كانت تنظر الآن عبر كوة طائرة تحلّق عالياً جداً فوق النجوم.

القسم السادس

المسيرة الكبرى

1

لم يتسنّ لنا أن نعرف الظروف التي مات فيها ابن ستالين إلاّ من خلال مقال نشرته مجلة «الصانداي تايمز» عام 1980. فبعد أن أسره الألمان خلال الحرب العالمية، أُدخل في معسكر الاعتقال نفسه مع ضباط إنكليز أسرى. كانت مراحيضهم مشتركة في المعسكر وكان ابن ستالين يتركها دائماً متّسخة. والإنكليز، لم يكونوا يحبون رؤية مراحيضهم ملطخة بالبراز، حتى لو كان ذلك البراز يخص ابن الرجل الأكثر نفوذاً في العالم آنذاك. كانوا يلومونه على ذلك فاستاء منهم. ثم عاودوا تأنيبه وأجبروه على تنظيف المراحيض. فغضب ثم تخاصم وتعارك معهم، وطلب في النهاية مقابلة آمر المعسكر. كان يريده أن يحكم في نزاعهم ولكن الألماني كان أكثر اعتزازاً بنفسه من أن يتجادل بخصوص البراز. فأطلق ابن ستالين شتائم روسية شنيعة ثم انقضّ باتجاه الأسلاك الشائكة المحيطة بالمعسكر والمزودة بتيار كهربائي ذي توتّر عال. ترك نفسه يتهاوى فوق الأسلاك. وجسده الذي لن يلوث المراحيض البريطانية بعد الآن، بقي معلقاً هناك.

2

لم تكن حياة ابن ستالين سهلة. فلقد أنجبه والده من امرأة كان كل شيء يؤكد أنه سيقتلها يوماً. كان ستالين الابن إذاً ابناً للإله (لأن أباه كان مبجّلاً وكأنه إله) وملعوناً في الوقت نفسه من الإله. كان الناس يهابونه لسببين: الأول، لأنه كان بإمكانه أن يؤذيهم بسلطته (فهو على كل حال ابن ستالين) وبصداقته (لأن الأب كان يمكنه معاقبة الصديق بدلاً من الابن المنبوذ).

اللعنة والحظوة، السعادة والشقاء، لا أحد أحسَّ مثله فعلاً إلى أي حد هذه التناقضات قابلة للتبادل فيما بينها، وإلى أيّ حد ضيّقة هي الحافة التي تفصل بين قطبَي الوجود البشري.

في بداية الحرب أسره الألمان وسجنوه إلى جانب أسرى آخرين ينتمون إلى أمة كان يشعر نحوها بكره عميق وجامح بسبب تحفظها الغريب. وفوق ذلك كانوا يتهمونه بأنه وسخ، هو الذي كان يحمل فوق كتفيه المأساة الأكثر عظمة التي قُدّر لها أن توجد (كان في الوقت نفسه كأنه ابن إله وملاكاً ساقطاً) فهل يجب أن يُدان بسبب أشياء غير عظيمة (لا تخص الله والملائكة) وإنما بسبب البراز؟ هل المأساة الأكثر عظمة والمأساة الأكثر ابتذالاً هما قريبتان بهذا الشكل المدوّخ؟ قريبتان بشكل مدوّخ؟ هل يمكن للتقارب إذاً أن يسبّب الدوار؟

بالطبع، غداً عندما سيقترب القطب الشمالي من القطب الجنوبي إلى حد التلامس تقريباً، فسيختفي الكوكب حينئذ وسيجد الإنسان نفسه في فراغ مدوّخ مما يجعله يستسلم لإغواء السقوط.

فإذا كانت اللعنة والنعمة شيئاً واحداً، إذا لم يكن هناك فرق بين العظيم والحقير، إذا كان بالإمكان إدانته بسبب البراز، فإنّ الوجود الإنساني يفقد معناه ويصبح خفيفاً خفة لا تُحتمل. عندما ينقضّ ابن

ستالين باتجاه الأسلاك الشائكة المكهربة، لكي يرمي هناك بجسده، كأنما على كفة ميزان، فتصعد الكفة مدفوعة بالخفة غير المتناهية لعالم صار دون أبعاد.

ابن ستالين قضى في سبيل البراز. ولكن الموت في سبيل البراز ليس موتاً مجرداً من المعنى. فالألمان الذين ضحّوا بحياتهم من أجل توسيع إمبراطوريتهم أكثر باتجاه الشرق، والروس الذين ماتوا لكي تمتد سلطة بلادهم أكثر صوب الغرب. أجل، كل هؤلاء ماتوا من أجل بلاهة، وموتهم مجرّد من أي معنى ومن أي مغزى عام. أما موت ابن ستالين فكان بالمقابل، الموت الميتافيزيقي الوحيد وسط البلاهة العالمية للحرب.

3

عندما كنت صغيراً، وبينما كنت أتصفح كتاب العهد القديم الذي أعدّ للأطفال والمزيَّن بصور رسمها غوستاف دوريه، كنت أرى الرب فيها طائراً فوق غيمة. كان رجلاً عجوزاً له عينان وأنف ولحية طويلة. وكنت أقول في نفسي إنه ما دام له فم فيُفترض به إذاً أن يأكل، وإذا كان يأكل فهذا يعني أنّ لديه أمعاء. ولكن هذه الفكرة كانت ترعبني في الحال. ومع أني كنت من عائلة ملحدة، فإنني كنت أشعر بأنّ هذه الفكرة المتعلقة بأمعاء الله فكرة تجديفية.

ومن دون أيّ إعداد لاهوتي، كان الطفل الذي كنته آنذاك يفهم بشكل عفوي أنّ هناك تناقضاً بين الدونيات والله. وكنت أفهم بالتالي هشاشة الفرضية الأساسية لعلم الإناسة المسيحي والتي تقول بأنّ الإنسان خُلق على صورة الله ومثاله.

كان الغنوصيون القدامى يعون هذه المسألة بالوضوح ذاته الذي كنت أراها فيه لمّا كنت في الخامسة من عمري. ولكي تُحسم هذه

المسألة اللعينة، كان ڤالانتين، وهو أستاذ كبير للغنوصية في القرن الثاني، يؤكد أنّ المسيح «كان يأكل ويشرب ولكنه لم يكن يتغوط».

البراز إذاً هو معضلة لاهوتية أكثر صعوبة من معضلة الشر. فالله قد أعطى الحرية للإنسان وبذلك يمكننا أن نسلّم بأنّ الله ليس مسؤولاً عن جرائم البشر.

4

في القرن الرابع، كان القديس جيروم يرفض جذرياً أن يكون آدم وحواء قد تمكنا من ممارسة الحب عندما كانا في الجنة. خلافاً لذلك، كان جان سكوت إريجين وهو عالم لاهوتي شهير من القرن التاسع يسلّم بهذه الفكرة. ولكن حسب رأيه، كان بإمكان آدم أن يجعل عضوه ينتصب بالطريقة نفسها تقريباً التي يرفع فيها ذراعه أو ساقه، إذاً ساعة يشاء وكيفما يشاء. ولا يتبادرنَّ إلى أذهاننا أنّ هذه الفكرة تخفي وراءها الحلم الأبدي للرجل المسكون بهاجس العجز الجنسي. إنّ لفكرة سكوت إريجين معنى آخر. إذا كان عضو الذكر يقوى على الانتصاب بمجرّد إيعاز من الدماغ، ينتج عن ذلك أنّ بإمكانه الاستغناء عن الإثارة. ذلك أنّ العضو لا ينتصب نتيجةً لاهتياج المرء بل لأنه يأمره بذلك. كان هذا اللاهوتي الكبير يعتقد أنّ الشيء الذي لا يتفق والجنّة ليس الجماع ولا اللذّة التي تعقبه. إنما الشيء الذي لا يتفق والجنة هو الإثارة. فلنحفظْ هذا جيداً: كانت اللذة موجودة في الجنة لا الإثارة.

نستطيع أن نجد من خلال نظرية سكوت مفتاحاً لتبرير لاهوتي (وبكلمة أخرى مفتاحاً لربانيّة) للبراز. فطوال الفترة التي سمح للإنسان فيها أن يسكن الجنّة، إما أنه (تماماً كالمسيح حسب نظرية ڤالانتين) لم يكن يتغوط، وإما أنّ البراز لم يكن يُعتبر شيئاً كريهاً، وهذه الفرضية

أكثر قابلية للتصديق. حين طرد الله الإنسان من الجنة، أوحى إليه بطبيعته النجسة وبالقرف. وأخذ الإنسان يستر ما كان يُشعره بالعار، وما إن أزاح الحجاب حتى بهره ضوء عظيم. إذاً بعد أن اكتشف الإنسان الدنس، اكتشف في الوقت ذاته الإثارة. فمن دون البراز (بالمعنى الحرفي والمجازي للكلمة) لما كان الحب الجنسي كما نعرفه: تصحبه دقات في القلب وعمى في الحواس.

كنت قد أشرت في القسم الثالث من الرواية إلى سابينا عندما كانت تقف نصف عارية مرتدية قبعتها الرجالية وإلى جانبها توماس وهو في كامل ثيابه. بَيْدَ أن هناك شيئاً لم أتطرق إليه. عندما كان كلّ منهما يراقب الآخر في المرآة وحين أحست بتفاهة الموقف تثيرها، تصوّرت أنّ توماس سيُجلسها كما كانت، أي معتمرة القبعة الرجالية، فوق المرحاض، وأنها ستفرغ أمعاءها في حضرته. أخذ قلبها يضرب مثل الطبل واختلطت عليها أفكارها فقلبت توماس على السجادة. في اللحظة التي تلت، كانت تزعق من فرط اللذة.

5

إنّ الجدال بين هؤلاء الذين يؤكدون أنّ الكون قد خلقه الله، وبين هؤلاء الذين يعتقدون بأنه وُجِد وحده، يتناول أمراً يتجاوز إدراكنا وتجربتنا. هنالك فرق كبير بين هؤلاء الذين يشكون في الكينونة على النحو الذي أعطيت به للإنسان (قلّما يهم كيف وبواسطة مَنْ) وبين هؤلاء الذين يتبنّونها من غير تحفّظ.

في أساس المعتقدات الأوروبية كلها سواء كانت دينية أم سياسية، هناك دائماً الفصل الأول من سِفر التكوين والذي يتفرع منه أنّ العالم خُلق كما كان يفترض به أن يكون، وأنّ الكائن طيب، وأنّ التناسل أمر محمود. فلنسمِّ هذا الاعتقاد الجوهري (الوفاق التام مع الكينونة).

إذا كانت كلمة براز يُستعاض عنها حالياً في الكتب بنُقط، فهذا ليس لأسباب أخلاقية. يجب ألا نذهب إلى حد الادّعاء بأنّ البراز شيء منافٍ للأخلاق! فالخلاف مع البراز خلاف ميتافيزيقي. هناك أمر من أمرين: إما أن البراز شيء مقبول (إذاً لا تقفلوا على أنفسكم بالمفتاح وأنتم في المراحيض!)، وإما أنّ الطريقة التي خُلقنا بها تثير جدلاً.

ينتج عن ذلك أنّ الوفاق التام مع الكينونة يتخذ مثاله الأعلى عالماً يُنتفى منه البراز، ويتصرف كل واحد فيه وكأن البراز غير موجود. هذا المثال الجمالي يدعى «الكيتش».

«كيتش» هي كلمة ألمانية ظهرت في أواسط القرن التاسع عشر العاطفي، ثم انتشرت بعد ذلك في جميع اللغات. ولكن استعمالها بكثرة أزال دلالتها الميتافيزيقية الأصلية وهي: إن كلمة كيتش في الأساس نفي مطلق للبراز. وبالمعنى الحرفي كما بالمعنى المجازي «الكيتش» تطرح جانباً كل ما هو غير مقبول في الوجود البشري.

6

الثورة الداخلية الأولى لسابينا على الشيوعية لم تكن ترتدي طابعاً أخلاقياً بل طابعاً جمالياً. فالشيء الذي كان ينفرها خاصة لم يكن بشاعة العالم الشيوعي أي (القصور التي تحولت إلى زرائب) وإنما قناع الجمال الذي يتستر به، وبكلمة أخرى «الكيتش» الشيوعي. ونموذج هذا الكيتش يتمثل في العيد الذي يسمّى الأول من أيار.

كانت قد شاهدت مواكب الأول من أيار في تلك الحقبة حيث كان الناس لا يزالون متحمسين أو يواظبون على أن يظهروا كذلك. كانت النساء يرتدين قمصاناً حمراء أو بيضاء أو زرقاء. ولكن يعرضن من على الشرفات والنوافذ والزخارف من كل نوع: نجوم بخمس شعب وقلوب وأحرف. كانت تتقدم فصائل الموكب فرق أوركسترا صغيرة

لتوقّع المشي المنتظم. وحين كان الموكب يقترب من المنصة كانت الوجوه الأكثر تقطيباً تشرق بابتسامة وكأنها تريد أن تثبت أنها راضية كما ينبغي، وبطريقة أصح، أنها موافقة كما ينبغي. وهذا الوفاق لا يتعلق بوفاق سياسي بسيط مع الشيوعية بل بوفاق مع الكائن في حد ذاته. كان عيد الأول من أيار يرتوي من المنهل العميق للوفاق التام مع الكائن. ولم يكن شعار الموكب المضمر واللامكتوب «تعيش الشيوعية» بل كان «تعيش الحياة»! قوة السياسية الشيوعية ودهاؤها يكمنان في أنهما استأثرا بهذا الشعار. وهذا الحشو التافه بالذات («تعيش الحياة») هو ما كان يدفع للالتحاق بالموكب الشيوعي حتى هؤلاء الأشخاص الذين كانوا لا يبالون إطلاقاً بالأفكار الشيوعية.

7

بعد انقضاء عشر سنوات، (كانت تعيش في أميركا آنذاك) كان أحد أصدقائها وهو سيناتور أميركي يجول بها في سيارة ضخمة. كان أربعة صبية يجلسون متلاصقين على المقعد الخلفي. أوقف السيناتور سيارته فنزل الأولاد واندفعوا عبر مرجة كبيرة باتجاه ملعب يوجد فيه ميدان للتزلج. كان السيناتور قد بقي وراء المقود يراقب بعين حالمة القامات الصغيرة الأربع التي تندفع راكضة. ثم التفت إلى سابينا وقال وهو يرسم دائرة بيده تشمل الملعب والمرجة والأولاد: «هذا ما أدعوه السعادة».

لم تكن هذه الكلمات تعبيراً عن فرحه بالأطفال الذين يجرون وبالعشب الذي يطلع فحسب، بل كانت لفتة تفهُّم لامرأة آتية من بلد شيوعي، من بلدٍ كان السيناتور مقتنعاً بأن العشب لا ينبت فيه ولا الأطفال يجرون.

ولكن سابينا تخيّلت للتوّ هذا السيناتور واقفاً فوق منصة في إحدى

ساحات براغ وعلى وجهه الابتسامة ذاتها التي يتوجه بها القادة الشيوعيون من أعلى منصاتهم إلى المواطنين المبتسمين بدورهم، السائرين في مواكب عند أسفل أقدامهم.

8

كيف يستطيع هذا السيناتور أن يعرف أنّ في الأطفال يكمن معنى السعادة؟ هل كان يقرأ ذلك في أرواحهم؟ لكن ماذا لو انقضّ ثلاثة منهم، ما إن يبتعدوا عن ناظريه، على الرابع وأخذوا يضربونه ضرباً شديداً متواتراً؟

لم يكن السيناتور يملك سوى حجة واحدة في صالح تأكيده: عاطفته. حين يتكلم القلب لا يعود لائقاً أن يُصدر العقل اعتراضات. ففي مملكة «الكيتش» تسود ديكتاتورية القلب.

من الجلي أنه يجب أن يشارك أكبر عدد من الناس، الأحاسيس التي يثيرها «الكيتش»، من هنا لا حاجة تدعو «الكيتش» لأن يخالف ما هو مألوف. بل هو يستعين بصور أساسية راسخة بعمق في ذاكرة الناس: الابنة العاقة، والوالد المهجور، والصبية الراكضون على مرجة، والوطن الذي جرت خيانته، وذكرى الحب الأول.

«الكيتش» يُسيل دون انقطاع دمعتَيْ تأثر. الدمعة الأولى تقول: ما أجمل أن يُهرول صبية على مرجة.

والدمعة الثانية تقول: ما أجمل أن تتأثر الإنسانية جمعاء بمنظر صبية يركضون على مرجة!

وحدها الدمعة الثانية تجعل «الكيتش كيتشاً».

ذلك أنّ أخوَّة الناس جميعهم لا يمكن أن تُبنى أصلاً إلاّ على أساس «الكيتش».

9

لا أحد يعرف ذلك بصورة أفضل مما يعرفه السياسيون. فما إن يروا آلة تصوير على مقربة منهم حتى يهبُّوا راكضين إثر أول طفل يصادفونه فيحملونه بين أذرعهم ويقبّلونه على خده. «الكيتش» هو المثال الأعلى لكل السياسيين ولكل الحركات السياسية.

في مجتمع تتعايش فيه تيارات شتّى وحيث يمكن لتأثير هذه التيارات أن يُمحى أو يحدّ بعضها بعضاً، يبقى في المستطاع الإفلات تقريباً من محاكم «الكيتش». ويمكن للفرد عندئذ أن يحافظ على تميزه، وللفنان أن يخلق أعمالاً فنيّة مدهشة. ولكن في البلدان التي يستأثر فيها حزب سياسي بالسلطة كلها، نجد أنفسنا حالاً في مملكة «الكيتش» الديكتاتوري.

إذا كنت أقول ديكتاتوري فإني أقصد بذلك أنّ كل ما يطعن بـ«الكيتش» ملغىً من الحياة: كل إظهار للفردية، (لأنّ أي نشاز هو بصقة في وجه الأخوّة الباسمة) وكلّ شك (لأنّ من يبدأ بالشك في التفاصيل الصغيرة يتوصل في نهاية المطاف لأن يشك في الحياة بحد ذاتها). كذلك السخرية (لأنّ كل شيء في مملكة «الكيتش» يؤخذ على محمل الجد)، وأيضاً الأم التي هجرت عائلتها، أو الرجل الذي يفضّل الرجال على النساء مهدداً بذلك الشعار المقدس «تناسلوا واملأوا الأرض».

انطلاقاً من وجهة النظر هذه، فإنّ ما يسمى بـ«الغولاغ» يمكن اعتباره ثغرة عفنة يرمي فيها «الكيتش» التوتاليتاري بأوساخه.

10

كانت السنوات العشر الأولى التي أعقبت الحرب العالمية الثانية هي الفترة الأكثر هولاً للرعب الستاليني. ففي تلك الحقبة بالذات

اعتُقل والد تيريزا لسبب تافه وطردت الفتاة التي كانت تيريزا والتي كان لها من العمر عشر سنوات من البيت. في ذلك الوقت، كانت سابينا في العشرين من عمرها تتابع دراستها في معهد الفنون الجميلة. كان أستاذ الماركسية يشرح لها ولزملائها في الدراسة تلك المسلّمة البديهية للفن الاشتراكي التي تقول بأنّ المجتمع السوفياتي قد وصل به الرقي إلى درجة أنّ الصراع الجوهري لم يعد صراعاً بين الخير والشر، بل بين الجيد والأفضل. لم يكن البراز (أي ما هو غير مقبول في الأساس) موجوداً إلاّ في الجهة الأخرى من العالم (في أميركا مثلاً) وانطلاقاً من هنا، أي من الخارج، يمكن له أن يدخل تحت شكل جسم غريب (الجواسيس مثلاً) إلى عالم «الأخيار والنخبة».

في تلك الحقبة، الأفظع بين الحقبات كلها، كانت الأفلام السوفياتية التي تغص بها صالات السينما في البلدان الشيوعية متشبعة ببراءة غريبة. فالصراع الأكثر خطورة الذي يمكن له أن يحصل بين روسيّين هو سوء التفاهم العاطفي: كأن يتوهم البطل مثلاً أنّ البطلة لم تعد تحبه أو أن تفكر هي الشيء نفسه حياله. وفي النهاية يرتمي كل منهما في أحضان الآخر وعَبَرات السعادة تنهمر من أعينهما.

التفسير المتفق عليه اليوم لهذه الأفلام هو على النحو التالي: كانت هذه الأفلام تصف المثال الشيوعي فيما الواقع الشيوعي كان أكثر قتامة بكثير.

كان هذا الشرح يثير حنق سابينا: ففكرة أنّ عالم «الكيتش» السوفياتي يمكن أن يصير حقيقة؛ وإمكانية أن تجبر على العيش فيه أمر يجعل بدنها يقشعرّ. كانت تفضّل دون أدنى تردد العيش في النظام الشيوعي الواقعي على الرغم من كل الاضطهادات والصفوف أمام محلات الجزارة. ففي العالم الشيوعي الواقعي، العيش ممكن. أما في عالم المثال الشيوعي المتحقق، في هذا العالم المؤلف من البُله

المبتسمين الذين لا يمكن للمرء أن يتوجه إليهم بأية كلمة، فإنها قد تموت ذعراً في فترة لا تتعدى الثمانية أيام.

يبدو لي أنّ الشعور الذي كان «الكيتش» السوفياتي يوقظه في نفس سابينا يشبه الذعر الذي عانته تيريزا أثناء حلمها الذي تسير فيه وسط النساء العاريات حول البركة، حيث كانت مرغمة على إنشاد أغانٍ فرحة. كانت هناك جثث عائمة على وجه الماء. ولم تكن تيريزا تستطيع أن تتوجه لأية امرأة بكلمة أو أن تطرح عليها سؤالاً واحداً. كانت تسمع جواباً واحداً فقط وهو المقطع التالي من الأغنية. ولم يكن بإمكانها أن ترمق أية واحدة منهن بنظرة متحفظة وإلاّ كن سيشيْن بها مشيرات إلى الرجل الواقف في السلة فوق البركة؛ بأن يطلق عليها النار.

إنّ حلم تيريزا يفضح المهمة الحقيقة لـ«الكيتش» وهي أنّ «الكيتش» قناع يخفي وراءه الموت.

11

في مملكة «الكيتش» التوتاليتاري تعطى الإجابات مسبقاً محرِّمة بذلك أي سؤال جديد. ينتج عن ذلك أنّ الإنسان الذي يتساءل هو العدو الحقيقي لـ«الكيتش». السؤال هو مثل سكّين يمزق القماشة المرسومة للديكور فيصبح في المستطاع رؤية ما يختبئ خلفها. هكذا شرحت سابينا لتيريزا معنى لوحاتها: من الأمام الكذب الصارخ، ومن الخلف الحقيقة التي لا يُدرك كنهها.

إلاّ أن هؤلاء الذين يناضلون ضد الأنظمة المسمّاة توتاليتارية قلّما يمكنهم النضال من خلال أسئلة وشكوك. فهُم أيضاً بحاجة إلى قناعتهم وإلى حقيقتهم البسيطة التي يفترض أن يفهمها أكبر عدد ممكن من الناس وأن تحدث فيضاً من الدموع جماعياً.

ذات يوم، نظَّم حزب سياسي معرضاً للوحات سابينا في ألمانيا. أمسكت سابينا بالكتيِّب الذي يُعرّف بها: أمام صورتها رسمت أسلاك شائكة. وفي الداخل كانت هناك نبذة عن حياتها تشبه مسيرة القديسين والشهداء: تعذَّبت، وناضلت ضد الظلم، وأُرغمت على ترك بلدها المعذّب، وها هي الآن تتابع النضال. وكانت الجملة الأخيرة من النص تقول: «من خلال لوحاتها تقاتل من أجل الحرية».

اعترضَتْ ولكنّ أحداً لم يكن يفهمها.

كيف، أليس صحيحاً أن الشيوعية تضطهد الفن الحديث؟

أجابت بغضب: «عدوي ليس الشيوعية، بل هو الكيتش!».

ومنذ ذلك الحين أحاطت سيرة حياتها بالغموض. وفيما بعد حين وجدت نفسها في أميركا، توصّلت حتى إلى إخفاء هويتها التشيكية. كان ذلك جهداً يائساً من قِبلها لتهرب من «الكيتش» الذي أراد الناس أن يصنعوه من حياتها.

12

كانت تقف أمام حامل اللوحات الذي كان عليه لوحة غير مكتملة بعد، كان هناك رجل عجوز جالس وراءها على كنبة يراقب كل خط تخطه بريشتها.

ثم نظر إلى ساعته وقال: «أظن أنه قد حان وقت الذهاب للعشاء».

وضعت مجموعةَ ألوانها جانباً وذهبت لتستحم قليلاً في غرفة الحمام. نهض الرجل عن كنبته وانحنى ليتناول عصاه المسندة إلى الطاولة، كان باب المحترف يؤدي مباشرة إلى المرجة. كان المساء قد حلّ

في الجانب الآخر، وعلى مسافة عشرين متراً، كان هناك بيت خشبي أبيض، نوافذ طبقته الأرضية مضاءة. كانت مشاعر سابينا تهتز لرؤية هاتين النافذتين تتلألآن في المغيب.

كانت قد أكّدت طوال حياتها عداءها لـ«الكيتش». ولكن ألم تكن تحمله هي أيضاً في أعماق نفسها؟ «كيتشها» تمثَّل في رؤية بيت هادئ عذب متناغم تتولاه أُم مُحبّة وأب متشبّع حكمةً. نشأت هذه الصورة في داخلها بعد موت والديها. وبما أنّ مسار حياتها كان مختلفاً تماماً عن هذا الحلم الجميل، فإنّ إحساسها إذاً بسحره كان يزداد. كانت تُحس أكثر من مرة بأنّ عينيها تدمعان حين تشاهد على التلفزيون فيلماً عاطفياً تعانق ابنة عاقة فيه والداً مهجوراً، أو حين تشاهد عند المغيب نوافذ منزل تسكنه عائلة سعيدة.

كانت قد تعرفت إلى الرجل العجوز في نيويورك. كان غنياً ومُحباً للرسم. يعيش وحده في ڤيلاً في الريف مع زوجته التي كانت في العمر نفسه. كانت هناك ضمن ملكيته قبالة الڤيلاّ زريبة قديمة فحوّلها إلى محترف ودعا إليها سابينا. ومنذ ذلك الوقت وهو يمضي أياماً كاملة يتابع حركات ريشتها.

الآن، كان ثلاثتهم يتناولون العشاء. المرأة العجوز تنادي سابينا بـ«ابنتي الصغيرة!»، ولكن خلافاً للمظاهر، العكس هو الصحيح: فسابينا هنا كأمّ يتشبّث ولداها بتنورتها، معجَبيْن بها ومستعدَّيْن لإطاعتها في حال شاءت أن تصدر الأوامر.

هل تكون قد وجدت أخيراً وهي على مشارف الشيخوخة الأبوين اللذين انسلخت منهما وهي لا تزال شابة؟ هل وجدت أخيراً الأطفال الذين لم يتسنَّ لها أن تنجبهم؟

تعرف جيداً أنّ هذا وهم. فإقامتها عند هذين العجوزين الرائعين

ليست إلاّ محطة مؤقتة. الرجل العجوز مصاب بمرض خطير، وزوجته حين تجد نفسها من دونه ستذهب للإقامة عند ابنها في كندا. وعندئذ ستستأنف سابينا من جديد طريق الخيانات، وتقرع في أعماق نفسها، في خفة الكائن التي لا تُحتمل، أغنية مضحكة تتحدث عن نافذتين مضيئتين تعيش خلفهما عائلة سعيدة.

هذه الأغنية تهزّ كيانها، ولكنها لا تأخذ انفعالها على محمل الجد. تعرف جيداً أنّ هذه الأغنية هي مجرّد كذبة جميلة. وفي اللحظة التي يُعرّف فيها «الكيتش» عن نفسه بصفته كذبة، يصير موقعه إذاً في جانب «اللاكيتش». وإذ يفقد مقدرته السلطوية يصبح مؤثراً ككل ضعف بشري. ذلك أن لا أحد منا إنسان متفوق ولا أحد منا يستطيع أن يفلت نهائياً من قبضة «الكيتش». أيّاً يكن الاحتقار الذي يولّده فينا «الكيتش»، فهو مع ذلك جزء من الوضع البشري.

13

مصدر «الكيتش» هو الوفاق التام مع الكائن.

ولكن ما هو أساس الكائن؟ هل هو الله؟ أم الإنسانية؟ أم النضال؟ أم الحب؟ أم الرجل؟ أم المرأة؟

في ما يتعلّق بهذا الموضوع هناك نظريات عدة تقابلها أنواع عدة من «الكيتش» فهناك «الكيتش» الكاثوليكي والبروتستانتي واليهودي والشيوعي والفاشي والديمقراطي والنسوي والأوروبي والأميركي والقومي والأممي.

منذ عهد الثورة الفرنسية وأوروبا مقسومة إلى نصفين، النصف الأول يدعى اليسار، والنصف الثاني يسمّى باليمين، يستحيل عملياً تحديد هذا الحزب أو ذاك استناداً إلى مبادئ نظرية معينة. ليس هناك ما

يدعو للعجب، فالأحزاب السياسية لا تستند أساساً إلى مواقف عقلانية ولكنها ترتكز على تشخيصات أو صور أو كلمات، أو تستند إلى نماذج أولية تؤلف في مجموعها هذا «الكيتش» السياسي أو ذاك.

فكرة المسيرة الكبرى التي يعشقها فرانز وتُثمِله، هي «الكيتش» السياسي الذي يجمع ناس اليسار في كل الأزمنة ومن كل الاتجاهات. فالمسيرة الكبرى هي هذا المشي الرائع المتقدم إلى الأمام، هي هذا المشي باتجاه الأخوّة والمساواة والعدالة والسعادة وما هو أبعد أيضاً، على الرغم من الحواجز كلها لأنه يُفترض أن تكون هناك حواجز وعقبات لكي تكون المسيرة «مسيرة كبرى».

دكتاتورية البروليتاريا أم الديمقراطية؟ رفض المجتمع الاستهلاكي أم زيادة الإنتاج؟ المقصلة أم إلغاء عقوبة الإعدام؟ كل هذه الأمور ليست ذات أهمية. إنّ ما يجعل اليساريّ يسارياً ليس هذه النظرية أو تلك بل مقدرته على إدخال أية نظرية كانت إلى «الكيتش» الذي يسمّى «المسيرة الكبرى».

14

لا أعني بقولي هذا أنّ فرانز هو نموذج «الكيتش». فكرة المسيرة الكبرى تلعب في حياته الدور نفسه الذي تلعبه في حياة سابينا الأغنية العاطفية التي تتحدث عن نافذتين مضاءتين. لأي حزبٍ يصوّت فرانز؟ أخشى بالفعل ألا يكون قد صوّت في حياته إطلاقاً وأن يفضّل الذهاب يوم الانتخابات في رحلة إلى الجبل. هذا لا يعني أنّ المسيرة الكبرى قد كفّت عن التأثير عليه. ذلك أنه جميلٌ أن تحلم بأن تكون في عداد جماعة تمشي قُدماً عبر العصور، وفرانز لم ينسَ مطلقاً هذا الحلم الجميل.

ذات يوم اتصل به أصدقاء من باريس. كانوا ينظمون مسيرة تأييداً لكمبوديا ودعوه للانضمام إليهم.

في ذلك الوقت، كانت كمبوديا تجر وراءها الحرب الأهلية والقصف الأميركي والفظائع التي ارتكبها الشيوعيون المحليون فجعلوا عدد سكان هذا البلد الصغير يتقلّص إلى الخُمس، وأخيراً احتلالها من طرف جارتها الڤيتنام والتي كانت مجرد أداة لروسيا في كمبوديا، كان هناك الجوع وكان الناس يموتون دون أية عناية طبية. طالَبَتْ المنظمات العالمية للأطباء مراراً بأن يُسمَحَ لها بالدخول إلى البلاد، لكن الڤيتناميين كانوا يعارضون. فقرر عندئذ مثقفون غربيون كبار تنظيم مسيرة عند الحدود الكمبودية علّهم يفرضون، من خلال هذا العرض العظيم الذي يجري أمام أنظار العالم بأسره قبول الأطباء في البلد المحتل.

كان الصديق الذي اتصل بفرانز واحداً من أولئك الذين كان يمشي إلى جانبهم في المسيرات عبر شوارع باريس. تحمَّس أول الأمر لاقتراحه غير أنه ألقى بنظره إلى الطالبة. كانت جالسة قبالته على الكنبة وعيناها تبدوان أكبر مما هما في الحقيقة خلف نظارتها التي كانت «على الموضة». فأحسَّ فرانز أن عينيها كانتا تتوسلان إليه كي لا يذهب، فقدّم اعتذاره لصديقه.

لكن ما إن أقفل السّماعة حتى ندم. كان يستجيب لرغبات حبيبته الأرضية مهملاً حبه السماوي. ألم تكن كمبوديا نسخة مختلفة عن وطن سابينا؟ أي بلداً مجاوراً احتله الجيش الشيوعي! بلداً واقعاً في قبضة روسيا! فكّر فجأة أنّ صديقه شبه المنسي قد اتصل به بناءً على إيعازٍ سري من سابينا.

فالمخلوقات السماوية تعرف كل شيء وترى كل شيء، وسابينا

ستراه فيما لو اشترك في هذه المسيرة وستسر لذلك وستفهم أنه بقي على وفائه لها.

فسأل صديقته صاحبة النظارة التي كانت تتحسر على كل يوم تمضيه من دونه، لكن دون أن تكون أيضاً قادرة على أن ترفض له طلباً: «هل ستغضبين مني إن ذهبت إلى المسيرة على الرغم من كل شيء؟».

بعد أيام معدودة وجد نفسه على متن طائرة كبيرة في مطار باريس. كان هناك نحو عشرين طبيباً بين المسافرين يواكبهم نحو خمسين مثقفاً (أساتذة وأدباء ونوّاباً ومغنين وممثلين وعمدة)، ويرافقهم أربعمائة صحفي ومصور.

15

حطَّت الطائرة في بانكوك. توجه الأربعمائة وسبعون طبيباً ومثقفاً وصحافياً إلى الصالة الكبيرة حيث كان هناك في انتظارهم أطباء آخرون وممثلون ومغنّون وفقهاء لغويون، يرافقهم مئات من الصحافيين المزوّدين بمفكراتهم وبآلات التسجيل وآلات التصوير. في عمق الصالة منصة تعلوها طاولة عريضة كان يتحلق حولها عشرون أميركياً باشروا بإدارة الاجتماع.

كان المثقفون الفرنسيون الذين انضمّ إليهم فرانز يشعرون بأنهم مهانون ومهمّشون. فقد كانت فكرة القيام بمسيرة إلى كمبوديا فكرتهم. ومع ذلك، فها هُم الأميركيون يمسكون، بشكل طبيعي مثير للإعجاب، بزمام الأمور. وزيادة في المصيبة، كانوا يتكلمون الإنكليزية دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء التساؤل هل بإمكان فرنسي أو دانمركي أن يفهم حرفاً ممّا يقولونه. بطبيعة الحال، كان الدانمركيون قد نسوا منذ زمن طويل أنهم كانوا يشكلون أمّة قديماً. وهكذا فإنّ الأوروبيين الوحيدين

الذين فكروا في المعارضة هم الفرنسيون. وبما أنهم أناس مبدئيون، فإنهم كانوا يرفضون الاعتراض باللغة الإنكليزية متوجهين بلغتهم الأم إلى الأميركيين الجالسين على المنصة. لم يكن الأميركيون يفهمون حرفاً مما يتفوّه به الفرنسيون فكانوا يردون على كلماتهم بابتسامات لطيفة تنمّ عن الموافقة. وفي نهاية المطاف لم يعد أمام الفرنسيين من حيلة أخرى سوى صياغة اعتراضاتهم بالإنكليزية. «لماذا لا يجري التكلم إلاّ باللغة الإنكليزية في هذا الاجتماع؟ ألا يوجد أيضاً فرنسيون هنا!».

دُهش الأميركيون دهشة كبيرة من هذا الاعتراض الغريب العجيب ولكنهم لم يتوقفوا عن الابتسام ثم وافقوا على أن تُترجم جميع الخُطب. واستغرق البحث عن مترجم، لكي يكون في المستطاع متابعة الاجتماع، وقتاً طويلاً. ثم، وبما أنّ الأمر كان يقتضي بأن يجري الاستماع إلى كل جملة بالإنكليزية، ثم بالفرنسية فإنّ الاجتماع دام وقتاً مضاعفاً إن لم يكن أكثر من مضاعف لأن الفرنسيين بأجمعهم كانوا يتقنون الإنكليزية مما يضطرهم لمقاطعة المترجم وتصحيح أخطائه والتجادل معه في شأن كل كلمة.

وجاء ظهور نجمة أميركية على المنصة تتويجاً للاجتماع. من أجلها أخذ مصورون يتدفقون في الصالة مؤكدين على كل حرف تتفوّه به الممثلة بقعقعة من آلات التصوير. كانت الممثلة تتحدث عن الأطفال الذين يتعذبون وعن الوحشية الشيوعية ودكتاتوريتها وعن حق الإنسان في العيش بأمان، والتهديدات التي تضغط على القيم التقليدية للمجتمع الراقي، والحرية الفردية، والرئيس كارتر الذي تُدمي فؤاده الأحداث في كمبوديا. قالت هذه الكلمات الأخيرة وهي تبكي.

عند هذه اللحظة نهض طبيب فرنسي شاب ذو شاربين حمراوين وأخذ يزعق: «نحن هنا من أجل إنقاذ أناس يحتضرون! لسنا هنا من

أجل إحياء مجد الرئيس كارتر! يجب ألا تنحط هذه التظاهرة إلى مستوى مهرجان للدعاية الأميركية! لم نأتِ إلى هنا لكي نحتجّ على الشيوعية بل من أجل العناية بمرضى!».

انضمَّ فرنسيون آخرون تأييداً للطبيب ذي الشاربين. كان المترجم خائفاً ولم يجرؤ على ترجمة ما كانوا يقولونه. وكما منذ قليل، كان الأميركيون العشرون الجالسون على المنصة يرمقونهم بابتسامات مفعمة بالود. وكثيرون من بينهم كانوا يوافقون على ما يقولونه بإشارات من رؤوسهم. ثم خطرت لأحدهم فكرة أن يرفع قبضته فهو يعرف أنّ الأوروبيين يقومون بهذه الحركة تلقائياً في لحظات الحماس الجماعي.

16

كيف يحدث أن يوافق مثقفون يساريون (لأن الطبيب ذي الشاربين كان واحداً منهم) على السير في تظاهرة تعادي مصالح بلد شيوعي، في الوقت الذي ألّفت فيه الشيوعية جزءاً لا ينفصم من اليسار حتى هذا التاريخ؟

حين تصير جرائم البلد المسمّى بالاتحاد السوفياتي مفضوحة للعيان، يجد اليساريُّ نفسه أمام خيارين: إما أن يبصق على حياته السابقة ويقلع عن المشي في المسيرات وإما (وهذا أمر محرج تقريباً) أن يجعل الاتحاد السوفياتي أحد العوائق التي تحول دون المسيرة الكبرى؛ وأن يتابع طريقه سائراً مع الموكب.

قلت في السابق إن ما يجعل اليسار يساراً هو «كيتش» المسيرة الكبرى. هوية «الكيتش» لا تُحدد من خلال استراتيجية سياسية بل من خلال صور واستعاراتٍ ولغة معينة. في الإمكان إذاً خرق العادة ومعاداة مصالح بلد شيوعي، ولكن ليس من الممكن تبديل الشعارات

بشعارات أخرى. نستطيع أن نرفع قبضاتنا في وجه الجيش الڤيتنامي، ولكن لا يمكن لنا أن نصرخ في وجهه قائلين «فلتسقط الشيوعية»، لأنّ الشعار «فلتسقط الشيوعية» شعار أعداء المسيرة الكبرى. ومن لا يريد أن يفقد ماء الوجه عليه أن يبقى وفياً لطهارة «كيتشه» الخاص.

لا أقول هذا لأشرح سوء التفاهم الكامن بين الطبيب الفرنسي والنجمة الأميركية التي حسبت أنها بسبب من أنانيتها، ضحية الحسّاد ومبغضي النساء. كان الطبيب الفرنسي في الواقع يبرهن عن حساسية جمالية كبيرة: فكلمات «الرئيس كارتر»، «قيمنا التقليدية»، «الوحشية الشيوعية»، تشكّل جزءاً من لغة «الكيتش» الأميركي ولا علاقة لها «بكيتش» المسيرة الكبرى.

17

في صباح اليوم التالي صعدوا جميعاً في الباصات ليعبروا تايلندا باتجاه الحدود الكمبودية. في المساء، وصلوا إلى قرية صغيرة حيث خُصصت لهم بضعة بيوت صغيرة مبنيّة على أوتاد. كان النهر بفيضاناته المرعبة يرغم الناس على السكن في الطبقات العليا. أما عند أسفل الأوتاد فكانت تحتشد الخنازير. كان فرانز ينام في غرفة يشاركه فيها أربعة أساتذة جامعيين. وكان يتنامى إلى سمعه أثناء نومه نخير الخنازير وشخير أستاذ رياضيات شهير إلى جانبه.

عند الصباح، ركب الجميع في الباص. على بُعد كيلومترين من الحدود كان المرور ممنوعاً. كانت هناك فقط طريق ضيقة تؤدي إلى المركز العسكري الرابض على الحدود. توقفت الباصات. حين نزل الفرنسيون اكتشفوا أن الأميركيين قد تقدموهم مرة أخرى وتصدروا طليعة الموكب. كانت هذه اللحظة هي الأكثر حرجاً، لأنها اقتضت أن يتدخل المترجم من جديد فحمي وطيس الجدال. ولكن في نهاية

المطاف توصل الجميع إلى تسوية تقضي بأن يتصدر أميركي وفرنسي ومترجمة كمبودية طليعة الموكب، ويتبعهم الأطباء وجميع الآخرين. فوجدت الممثلة الأميركية نفسها في المؤخرة.

كانت الطريق ضيقة ومحفوفة بحقول الألغام. كانوا يقعون في كل دقيقتين على ممر متعرج مؤلف من كتلتيْ باطون تعلوهما أسلاك شائكة، وبين الكتلتين ممر صغير، مما اضطرهم للمشي الواحد خلف الآخر.

كان يتقدم فرانز على مسافة خمسة أمتار شاعر ألماني شهير ومغنٍّ شعبي كان قد كتب تسعمائة وثلاثين أغنية من أجل السلام وضد الحرب. كان يحمل في نهاية عصا طويلة علماً أبيض يتلاءم جدّاً مع لحيته الكثيفة السوداء ويميّزه عن الآخرين.

كان المصوّرون يروحون ويجيئون عدواً حول هذا الموكب الطويل. كانوا يلتقطون الصور فيركضون إلى الأمام ثم يتوقفون فيتراجعون ويقرفصون ثم يعودون للجري من جديد إلى الأمام. من وقت لآخر كانوا يهتفون باسم رجل أو امرأة من المشاهير فيلتفت المدعو بطريقة آلية في اتجاههم ويبدأون في هذه اللحظة بالذات بالتقاط الصور.

18

بدا أن هناك حادثاً وشيك الوقوع فأبطأ الناس الخُطى والتفتوا إلى الوراء.

رفضت النجمة الأميركية التي جُعل مكانها في مؤخرة الموكب، أن تتحمّل وقتاً أطول هذا الهوان فقررت أن تهاجم. أخذت تركض وكان ركضها كما يفعل الراكض في سباق الخمسة آلاف متر حين يرى

أنه لا يزال في مؤخرة الفريق، فيجمع قواه مندفعاً إلى الأمام ومتجاوزاً جميع المتبارين.

كان الرجال يتسمون بانزعاج ويفسحون المجال للراكضة المنتصرة الشهيرة، ولكن هناك نساء بدأن بالصراخ قائلات: «في الصف! هذه ليست مسيرة لنجوم السينما!».

لم تدعِ الممثلة مكاناً للخجل بل تابعت تقدمها راكضة يتبعها خمسة مصورين وكاميرامان اثنان.

أمسكت امرأة فرنسية، وهي أستاذة في الألسنية، الممثلة من معصمها وقالت لها (بلغة إنكليزية شنيعة): «هذه المسيرة أُقيمت للأطباء كي ينقذوا الكمبوديين المرضى من الموت. نحن لا نقيم هنا استعراضاً للنجوم!».

كان معصم الممثلة محكماً داخل يد أستاذة الألسنية وكأنه داخل كماشة. لم تكن تملك القوة اللازمة للتملص منها.

قالت (بلغة إنكليزية ممتازة): «هذا ليس من شأنك! لقد شاركت في مئات المواكب! في كل مكان، يجب على الناس أن يروا نجوماً! هذه رسالتنا! هذا واجبنا الأخلاقي».

- «طُزّ!»، قالت أستاذة الألسنية (بفرنسية ممتازة).

فهمت النجمة الأميركية قولها وذرفت دموعها بغزارة.

«ابقي كما أنت»، هتف لها كاميرامان.

حدّقت الممثلة طويلاً في العدسة ودموعها تنساب على وجنتيها.

19

أفلتت أستاذة الألسنية أخيراً معصم النجمة الأميركية. هتف المغنّي الألماني ذو اللحية السوداء، والذي كان يحمل العلم الأبيض، باسم الممثلة.

لم تكن الممثلة قد سمعت به من قبل ولكنها كانت في لحظة الذُّل هذه حسّاسة أكثر من العادة لكل مبادرات التعاطف. فما كان منها إلاّ أن انطلقت في اتجاهه. نقل الشاعر - المغنّي سارية علمه إلى يده اليُسرى لكي يتمكن من إحاطة كتفَي الممثلة بذراعه اليُمنى.

أخذ المصورون والكاميرامان ينطنطون حول الممثلة والمغنيّ. ثمة مصور أميركي شهير أراد أن يُظهر وجهيهما والعلم ضمن إطار عدسته. لم تكن هذه اللقطة سهلة نظراً لارتفاع السارية. أخذ يركض متراجعاً في حقل للرز، فوضع قدمه على لغم وحصل انفجار. تناثر جسده المهشّم أشلاءً وأمطر بِوابل من الدم جموع المثقفين العالميين.

ارتعب المغني والممثلة وبقيا مسمّرين في مكانهما. رفع كلاهما نظره صوب العلم. كان ملطخاً بالدم. في البداية كان هذا المنظر يزيد من هلعهما. ولكن فيما بعد رفَعا بخجل عدة مرات أعينهما وراحا يتبسّمان. كان يعتريهما شعور غريب بالاعتزاز، شعور لا عهد لهما به من قبل وهما يفكران أنّ العلم الذي كانا يحملانه قد طهّره الدم، واستأنفا المسير.

20

كانت الحدود مؤلفة من جدول صغير لا تمكن رؤيته لأنه على طول الحدود كان يمتد حائط ارتفاعه متر وخمسون سنتمتراً تعلوه أكياس رمل مُعدّة للقناصة التايلنديين. لم يكن الحائط ينقطع سوى في مكان واحد عند جسر مقبب يتجاوز النهر. لم يكن مسموحاً لأحد أن يتقدم. كانت فصائل احتلال ڤيتنامية تتمركز على الجانب الآخر من النهر ولكن من غير أن يكون في الإمكان رؤيتها. كانت مراكزها مموّهة تماماً. ولكن لا شك أنّ ڤيتناميين محتجبين سوف يطلقون النار إن حاول أحدهم اجتياز الجسر.

اقترب بعض عناصر التظاهرة من الحائط ووقفوا على رؤوس أصابعهم. اتكأ فرانز إلى متراس بين كيسيْ رمل وأخذ يراقب. لم يتمكن من رؤية شيء لأنّ مصوراً دفعه إلى الخلف مُعتبراً أنّ له الحق في أن يأخذ مكانه.

التفت إلى الوراء. على أغصان شجرة منفردة، وبما يشبه سرب من طيور الزاغ الضخمة، كان يجلس سبعة مصورين وأعينهم محدقة بالجهة الأخرى من النهر.

في هذا الوقت أدنت المترجمة التي كانت تمشي في طليعة التظاهرة، شفتيها من قِمْعٍ ضخم وأخذت تزعق بلغة الخمير باتجاه النهر: ثمة أطباء هنا يطلبون بأن يُسمح لهم بالدخول إلى الأرض الكمبودية من أجل توزيع مساعداتهم الطبية. ونشاطهم هذا لا دخل له بالسياسة، دافعهم الوحيد الاهتمام بالحياة الإنسانية.

كان الجواب الذي وافاهم من الجهة المقابلة صمتاً لا يُصدّق، صمتاً كلياً إلى حدّ أن الجميع بدأ ينهشهم القلق. وحدها قعقعة الكاميرات كانت تتردد وسط هذا الصمت العظيم مثل طنين حشرة غريبة.

أحسّ فرانز فجأة أنّ المسيرة الكبرى قد شارفت على نهايتها. كانت الحدود تضيق على أوروبا لتصير المساحة التي تجري فيها المسيرة الكبرى مجرد منصة صغيرة وسط الكوكب. كانت الجموع التي تحتشد في الماضي عند أسفل المنصة قد أشاحت بوجهها منذ زمن طويل. وكانت المسيرة الكبرى تتابع تقدمها وحيدة ودون مشاهدين. نعم، كان فرانز يفكر أنّ المسيرة الكبرى تتابع طريقها على الرغم من لامبالاة العالم ولكنها تصير متوترة ومضطربة. فأوروبا قد سارت بالأمس ضد الاحتلال الأميركي لڤيتنام، واليوم تسير ضد الاحتلال

الڤيتنامي لكمبوديا. بالأمس تأييداً لإسرائيل واليوم من أجل الفلسطينيين، بالأمس من أجل كوبا وغداً ضد كوبا، ودائماً ضد أميركا، وكلّ مرة ضد المجازر، وكلّ مرة دعماً لمجازر أخرى. ولكي تتمكن أوروبا من اللحاق بإيقاع الأحداث من غير أن يفوتها أي منها، تزداد خُطاها تسارعاً بحيث إنّ المسيرة الكبرى صارت موكباً لأناس مستعجلين يسيرون قفزاً، وبحيث إنّ الحلبة تتقلص يوماً بعد يوم إلى أن تصبح مجرّد نقطة صغيرة.

21

هتفت المترجمة ثانية بندائها عبر مكبّر الصوت. ولكن، كما في المرة الأولى، كان الجواب الوحيد صمتاً هائلاً فظيعاً لامبالياً.

كان فرانز يراقب. كان هذا الصمت الآتي من الجهة الأخرى يلطم وجوههم جميعاً وكأنه صفعة. حتى أنَّ المغني الذي يحمل العلم والممثلة الأميركية بَدَوا منزعجين ومترددين.

فهم فرانز فجأة كم أنهم كانوا مضحكين، هو والآخرين. ومع ذلك فإن إدراكه لهذه الحقيقة لم يكن يبعده عنهم ولا يثير فيه أي شعور بالسخرية منهم. على العكس، كان يشعر نحوهم بمحبة لامتناهية، كتلك المحبة التي نشعر بها تجاه المحكومين بالإعدام. المسيرة الكبرى تشارف على نهايتها، هذا صحيح. ولكن هل هذا سبب كافٍ لكي يخونها فرانز؟ ألم تكن حياته هو أيضاً تقترب من نهايتها؟ هل عليه إذاً أن يستهتر بتظاهرة هؤلاء الذين واكبوا حتى الحدود أطباء شجعاناً؟ هل في مستطاع هؤلاء الناس أن يقوموا بشيء آخر غير العرض؟ وهل في حيلتهم شيء أفضل من هذا؟

كان فرانز محقّاً. أُفكّرُ في الصحافي الذي كان ينظم في براغ حملة تواقيع لالتماس العفو للمساجين السياسيين. كان يعرف جيداً أنّ هذه

الحملة لن تساعد المساجين. فالهدف الحقيقي منها ما لم يكن تحرير المساجين وإنما التأكيد أنه لا يزال هناك أناس لا يهابون شيئاً. كان العمل الذي يقوم به من باب العرض، ولكن لم تكن في يده حيلة أخرى. إذ لم يكن مخيّراً بين الفعل والعرض. كان في يده خيار واحد: إما القيام بعرض أو عدم القيام بشيء. ثمة ظروف يكون الإنسان فيها «محكوماً عليه» بأن يقوم بعرض. نضاله ضد السلطة الصامتة (سواء كانت السلطة الصامتة للضفة الأخرى من النهر أم الشرطة التي تحوّلت إلى آلات تسجيل صامتة مخفية داخل الجدران) يشبه نضال فرقة مسرحية تستعدّ لمهاجمة جيش.

رأى فرانز صديقه في جامعة السوربون يرفع قبضته مهدداً صمت الضفة الأخرى.

22

للمرة الثالثة هتفت المترجمة بندائها عبر قِمع مكبّر الصوت.

ومن جديد أجابها الصمت مُحيلاً بغتة قلق فرانز إلى غضب مسعور. كان على بُعد بضع خطوات من الجسر الذي يفصل تايلندا عن كمبوديا، واجتاحته رغبة جامحة في الجري عليه وقذف شتائم فظيعة نحو السماء، والموت وسط الضجة الهائلة لطلقات البنادق.

هذه الرغبة المباغتة لفرانز تذكّرنا بشيء ما، نعم، تذكرنا بابن ستالين عندما انطلق راكضاً للتعلق بالأسلاك الشائكة لأنه لم يعد في استطاعته أن يتحمل رؤية قطبَي الوجود البشري يقتربان إلى درجة التلامس، إلى درجة أنه لم يعد هناك من فرق بين النبيل والحقير، بين الملاك والذبابة، بين الآلهة والبراز.

لم يكن فرانز يستطيع التسليم بأنّ مجد المسيرة الكبرى صار

مقتصراً على غرور مضحك لأناس يسيرون بانتظام، وأن تختفي ضجة التاريخ العظيمة وسط صمت لا ينتهي بحيث إنه لا يعود هناك فرق بين التاريخ والصمت. كان راغباً في أن يضع حياته في الميزان ليثبت أنّ كفة المسيرة الكبرى ستكون أثقل وزناً من كفّة البراز.

ولكن ليس في الإمكان إثبات شيء من هذا القبيل. كان البراز في كفة ميزان، وجسد ابن ستالين كله في الكفّة الأخرى، ولكن الميزان لم يتحرك قيد أنملة.

بدل أن يقتل فرانز نفسه، حنى رأسه ولحق بالآخرين السائرين واحدهم خلف الآخر، ليستقلّ الباص من جديد.

23

نحتاج جميعاً إلى أحد ما يراقبنا. ويمكن تصنيفنا إلى أربع فئات تبعاً لنوع النظرة التي نرغب في العيش في ظلّها.

الفئة الأولى تفتش عن نظرات لا تُحصى من العيون المجهولة، وبكلمة أخرى تفتش عن عيون الجماهير. هذه هي حال المغنّي الألماني والنجمة الأميركية. وهذه هي أيضاً حال الصحافي ذي الذقن الطويل المعقوف. لقد كان معتاداً على قرّائه، وحين حظّر الروس صدور مجلته الأسبوعية، أحسّ أنه يعيش في جو هواؤه أقل كثافة بمئة مرة. إذاً لا أحد يمكن أن يقوم عنده مقام العيون المجهولة. كان لديه شعور حينذاك بأنه يختنق. ثم أدرك ذات يوم أنّ الشرطة تلاحق كل خطوة من خطواته وأنها كانت تتنصت على كل مخابراته الهاتفية، وأنه كان يُصوَّر بطريقة سرّية حتى عندما يكون في الشارع. عند ذلك أخذت عيون مجهولة تصحبه إلى كل مكان فتمكّن أخيراً من استعادة أنفاسه! وشعر بالغبطة! كان يخاطب آلات التسجيل المخفية داخل الجدران بلهجة مفخّمة. وكان يجد في البوليس جمهوره المفقود.

الفئة الثانية تتضمن هؤلاء الذين ليس في إمكانهم أن يعيشوا دون نظرات كثيرة مألوفة، هؤلاء الذين لا يتعبون من إقامة الحفلات ومآدب العشاء. إنهم أكثر سعادة من الناس المنتمين إلى الفئة الأولى الذين يحسبون أنّ الأضواء، حين يفقدون جمهورهم، قد أُطفئت في قاعة حياتهم. وهذا ما يحدث لهم جميعاً بين يوم وآخر. . أما أناس الفئة الثانية فيظل في إمكانهم التوصل إلى العثور على نظرات ما. وماري - كلود وابنتها تنتميان إلى هذه الفئة.

ومن ثم تأتي الفئة الثالثة، فئة هؤلاء الذين هم بحاجة إلى العيش في ظلّ عيون أحبائهم. ظروفهم الحياتية خطرة قدر ما هي خطرة الظروف الحياتية لأناس الفئة الأولى. ما إن تغمض عينا الحبيب حتى تغرق القاعة في ظلام دامس. بالإمكان تصنيف تيريزا وتوماس ضمن هذه الفئة.

وأخيراً هناك الفئة الرابعة وهي الأقل ندرة، وتتضمن أولئك الذين يعيشون في كنف أنظار موهومة لكائنات غائبة. هم الحالمون، فرانز مثلاً. إذا كان قد ذهب إلى الحدود الكمبودية فهذا فقط بسبب سابينا. كان يشعر وهو يترجرج في الباص على الطريق إلى كمبوديا، بأنها تحدّق إليه بنظراتها الثابتة.

ابن توماس ينتمي إلى هذه الفئة أيضاً. سوف أدعوه سيمون (وهو سيُسرّ لإعطائه اسماً توراتياً مثل اسم أبيه). كانت النظرة التي يتوق إليها هي نظرة توماس. كان قد طُرِد من الجامعة للاشتباه في أنه كان من ضمن أصحاب حملة التواقيع. كانت الفتاة التي يعاشرها ابنة شقيق كاهن ريفيّ. تزوجها وأصبح سائق شاحنة زراعية في تعاونية. أصبح كاثوليكياً ممارساً وأباً لعائلة. علم أنّ توماس كان يسكن هو أيضاً في الريف. وهذا أدخل السعادة إلى قلبه. لقد جعل القدر حياتيهما متعادلتين. هذا ما دفعه لأن يكتب رسالة. لم يكن يطلب رداً بل كان

يريد شيئاً واحداً: أن يُلقي توماس نظرته على حياته.

24

فرانز وسيمون هما الحالمان في هذه الرواية. بخلاف فرانز، سيمون لم يكن يحب والدته. بل كان يفتش منذ الطفولة عن أبيه. كان مستعداً للإيمان بأنّ إهانة أُلحقت بأبيه ففسّرَت إجحافه بحقه.. لم يحقد عليه قط ورفض أن يكون حليف أمه التي كانت تمضي وقتها في الذم بتوماس.

عاش معها حتى الثامنة عشرة ثم ذهب بعد حصوله على شهادة البكالوريا لتحصيل علومه في براغ. في ذلك الحين كان توماس منظف زجاج. انتظره سيمون مرات عدة لافتعال لقاء مفاجئ في الشارع، ولكن أباه لم يكن يتوقف مطلقاً.

إنْ كان قد تعلّق بالصحافي القديم ذي الذقن الطويل والمعقوف فهذا لأنه كان يذكّره بمصير والده. لم يكن الصحافي يعرف اسم توماس فالمقال عن أوديب كان منسياً، فنبّهه سيمون إلى وجوده وطلب منه أن يرافقه لرؤية توماس ويعرضا عليه التوقيع على عريضة. ولم يكن امتثال الصحافي إلاّ من باب إدخال السرور إلى قلب الشاب الذي كان يحبه حباً جماً.

عندما كان سيمون يفكر في ذلك اللقاء كان يشعر بالخجل من تهيّبه. من المؤكد أنه لم يُعجب أباه. أما هو فأُعجب بأبيه. كان يتذكر كل كلمة تفوّه بها مستصوباً مواقفه أكثر فأكثر. هناك جملة على الأخص عقلت بذاكرته: «إدانة هؤلاء الذين لا يعرفون ماذا يفعلون، عمل بربري». وعندما وضع عمّ صديقته الكتاب المقدّس بين يديه، تأثر بكلمات يسوع التي تقول: «اغفر لهم لأنهم لا يدرون ماذا يفعلون». كان يعرف أنّ أباه ملحد ولكن التشابه بين الجملتين كان

بالنسبة له وكأنه رمز خفي يعني أنّ أباه يستحسن الطريق التي اختارها.

كان يعيش في القرية منذ ما يزيد على سنتين عندما تسلّم رسالة دعاه فيها توماس لزيارته. كان اللقاء ودياً وأحسَّ سيمون بأنه على سجيته فما عاد يتأتىء إطلاقاً. لا شكّ في أنه لم يلاحظ أنهما ليسا متفاهمين إلى الحد الذي تصوّر. بعد نحو أربعة أشهر تلقّى برقية جاء فيها أنّ توماس وزوجته ماتا مهمشيْن في حادث شاحنة.

في ذلك الوقت سمعهم يتحدثون عن امرأة كانت في السابق عشيقة أبيه وتعيش حالياً في فرنسا. فحصل على عنوانها. وبما أنه كان في حاجة ماسة إلى عين وهمية تتابع مراقبة حياته، أخذ يكتب لها إذاً من وقت لآخر رسائل مطوّلة.

25

حتى آخر حياتها ظلّت سابينا تتلقى الرسائل من ذلك المراسل الريفي التعيس. كثير من هذه الرسائل لم يُفتح، لأنّ اهتمامها بالبلد الذي هو مسقط رأسها، أخذ يتناقص مع الأيام.

مات الرجل العجوز وذهبت سابينا للإقامة في كاليفورنيا. أكثر فأكثر باتجاه الغرب، وأبعد فأبعد من بوهيميا.

كانت لوحاتها تُباع بشكل جيد وكانت تحب أميركا ولكن فقط حباً سطحياً. فتحتَ السطحِ ثمة عالم غريب عنها. إذ لم يكن لديها تحت الأرض جدّ أو عمّ. كانت تخاف من أن يُغلق عليها داخل نعش وأن تُدلّى في أرض أميركا.

لذلك كتبت وصية اشترطت فيها أن تُحرق جثتها بعد موتها، وأن يُنثر رمادها في الهواء. تيريزا وتوماس ماتا تحت شعار الثقل. أما هي فأرادت أن تموت تحت شعار الخفة. سوف تصير أخف من الهواء.

وحسب رأي بارمينيدس، فإنّ موتها هو تحوّل من السلبي إلى الإيجابي.

26

توقّف الباص أمام فندق في بانكوك. لم يعد أحد راغباً في تنظيم اجتماع. فتفرّق الجمع إلى جماعات صغيرة وانطلقوا عبر المدينة، بعضهم ذهب لزيارة المعابد وبعضهم الآخر لزيارة المبغى. اقترح الصديق في جامعة السوربون على فرانز أن يمضيا السهرة معاً، ولكنه آثر البقاء وحيداً.

كان المساء قد حلّ عندما خرج. كان يفكر في سابينا باستمرار ويشعر أنها تحدق إليه بنظرتها الثابتة. كان يشعر أنّ الشك يأخذ في الاعتمال في نفسه تحت تأثير هذه النظرة لأنه لا يعرف ماذا يجول في فكر سابينا.. هذه المرة أيضاً رمته تلك النظرة في الحيرة. تُرى، ألم تكن تهزأ منه؟ ألم تكن تجد العبادة التي يخصها بها أمراً سخيفاً؟ ألم تكن تريد إفهامه أنه آن الأوان ليتصرف تصرّف إنسان ناضج وأن يكرس نفسه كلياً لصديقته التي أرسلتها هي بنفسها إليه!

حاول أن يتخيل الوجه الذي يرتدي نظارة كبيرة. وبدأ يتفهم بوضوح مدى السعادة التي كان يشعر بها بصحبة طالبته فبدا له سفره إلى كمبوديا أمراً مضحكاً ودون معنى. في الواقع، ما الذي أتى به إلى هنا؟ الآن، بدأ يعرف السبب. قام بهذه الرحلة ليعرف أخيراً أنّ حياته الحقيقية، أنّ حياته الواقعية الوحيدة لا تتمثل في التظاهرات ولا في سابينا وإنما في طالبته صاحبة النظارة! قام بهذه الرحلة ليقنع نفسه أنّ الحقيقة شيء أكثر من الحلم، شيء أفضل بكثير من الحلم!

ثم فجأة، انبثق من الظلام طيف وخاطبه ببضع كلمات بلغة لم يفهمها. نظر إلى الطيف بدهشة ممزوجة بالتعاطف. كان المجهول

ينحني ويبتسم ولا يكفّ عن الرطن بنبرة ملحّة. ماذا كان يقول له؟ اعتقد لأول وهلة أنه كان يتوسل إليه للّحاق به. أمسكه الرجل من يده وجذبه. فقال فرانز في نفسه إنه يحتاج إلى مساعدة ربما. أيكون فرانز لم يأتِ إلى هنا عبثاً؟ أيكون مجيئه إلى هنا من أجل إسعاف أحدٍ ما؟

وفجأة انبثق شخصان آخران إلى جانب الرجل الذي كان يرطن بلغة غير مفهومة. ثم أمر أحدهما فرانز بأن يعطيهم مالاً.

عندما اختفت الفتاة الشابة صاحبة النظارة من مجال تفكيره. أخذت سابينا من جديد تراقبه، سابينا اللاّحقيقية بقدرها العظيم، سابينا التي يشعر في حضرتها أنه صبي صغير. ها هي عيناها تراقبانه بنظرات تعبّر عن الغضب وعدم الرضى. لماذا، هل ترك نفسه تنخدع مرة أخرى؟ هل كان يدع طيبته الحمقاء تُستغَل مرة أخرى؟

وبضربة واحدة أفلت من قبضة الرجل الذي كان يتشبث بكُمّه. كان يعرف أنّ سابينا قد أُعجبت دائماً بقوّته. فأمسك الذراع التي شهرها الرجل الآخر نحوه، أمسكها بقوة وقام بحركة جودو موفقة فأطاره من فوق رأسه.

الآن، كان فخوراً بنفسه، عينا سابينا لم تكونا تفارقانه. لن تراه بعد اليوم مُهاناً! لن تراه متراجعاً بعد الآن! ولن يعود فرانز الضعيف والعاطفي بعد اليوم!

كان يحس بحقد ممزوج بالسعادة حيال هؤلاء الرجال الذين يودّون استغلال سذاجته. كان يقف محنياً قليلاً دون أن يشيح بنظره عنهم. ولكن فجأة انهال شيء ثقيل على رأسه فتهاوى على الأرض. كان يشعر وهو نصف واعٍ أنه يتم نقله إلى مكان ما، ثم بدأ يسقط في الفراغ. أحسّ بضربة عنيفةً أخرى، وفقد وعيه كلياً.

استيقظ بعد وقت طويل في أحد مستشفيات جنيف. كانت ماري

- كلود تنحني فوق سريره. فأراد أن يقول لها إنه لا يرغب في رؤيتها هنا. كان يريدهم أن يُعلموا الطالبة ذات النظارة الكبيرة بوجوده في المستشفى. فهو كان يفكر فيها هي دون سواها. كان يريد أن يزعق في وجهها قائلاً إنه لا يحتمل وجود أحدٍ قرب سريره. لكنه اكتشف مذعوراً أنه غير قادر على الكلام. كان ينظر إلى ماري - كلود بحنق لامتناهٍ، وأراد أن يستدير ناحية الحائط كي لا يراها. ولكنه لم يكن في استطاعته تحريك جسده. فحاول أن يشيح على الأقل بوجهه. ولكنه حتى لم يستطع القيام بأدنى حركة، أغمض عندئذ عينيه كي لا يراها.

27

ها قد انتسب فرانز الميت أخيراً إلى زوجته الشرعية كما لم ينتسب إليها من قبل. ها إن ماري - كلود تقرر كل شيء وتقوم بتنظيم مراسم الجنازة وترسل أوراق النعي وتبعث في طلب الأكاليل، وتخيط لنفسها ثوباً أسود هو في الحقيقة ثوب زفاف. نعم، إنّ دفْنَ الزوج أخيراً هو عرس الزوجة الحقيقي، وهو تتويج لحياتها ومكافأة تكفّر عن كل عذاباتها.

على أية حال، الكاهن يفهم ذلك جيداً ويعظ فوق القبر عن الحب الزوجي السرمدي الذي توجّب عليه أن يتجاوز محناً كثيرة ولكنه بقي للفقيد، وحتى آخر أيامه، ملجأ أميناً يستطيع الرجوع إليه في اللحظة الحرجة، حتى أنّ زميل فرانز الذي طلبت منه ماري - كلود أن يقول كلمة صغيرة فوق النعش حيّا فيها خصوصاً زوجة الفقيد الشجاعة.

في مكان ما في الخلف، كانت هناك الفتاة الشابة صاحبة النظارة الكبيرة، متجمّعة على نفسها تستند إلى صديقة. كانت مختنقة من فرط البكاء وكانت قد ابتلعت أقراصاً كبيرة فأصيبت بتشنجات قبل انتهاء

الجنازة. كانت تتلوى من الألم وتمسك بطنها، فما كان من صديقتها إلاّ أن ساعدتها فخرجت من الجنازة.

28

ما إن تلقّى برقية رئيس التعاونية، ركب على دراجته وانطلق. تكفّل القيام بمراسم الدفن. وحفر على شاهدة القبر تحت اسم أبيه الكتابة التالية: «أراد مملكة الله على الأرض».

كان يعرف جيداً أنّ والده لم يكن ليستعمل هذه الكلمات مطلقاً. ولكنه كان متأكداً من أنّ الكتابة تعبّر بدقة كما كان يريده أبوه. فمملكة الله تعني العدالة وتوماس كان متعطشاً إلى عالم تسوده العدالة. ألا يحق لسيمون إذاً أن يعبّر عن حياة أبيه بلغته هو؟ ألا يتوارث جميع الأبناء هذا الحق منذ عصور سحيقة؟

«بعد ضلال طويل، كانت العودة»، يمكننا أن نقرأ على شاهدة قبر فرانز. يمكن أن تؤوّل هذه الكتابة على أنها إشارة لرمز ديني: الضلال في الحياة الأرضية والعودة إلى أحضان الله. ولكن المطلعين على الأسرار يعرفون أنّ لهذه الجملة أيضاً معنىً تجديفياً تماماً. من جهة أخرى، ماري - كلود تتحدث بهذا الخصوص كل يوم:

فرانز، ذاك العزيز، فرانز ذاك الشجاع، لم يستطع أن يتحمل وطأة سن الخمسين فوقع بين براثن فتاة مسكينة! لم تكن حتى جميلة. (أما لاحظتم نظارتها الكبيرة التي بالكاد تُرى خلفها؟) ولكن رجلاً في الخمسين (ونعرف ذلك جميعاً) يبيع روحه لقاء قطعة لحم فتية. ووحدها زوجته تستطيع أن تدرك شدّة ألمه. كان فرانز يعيش عذاباً روحياً حقيقياً! ففرانز في أعماقه رجل شريف وطيب. وإلاّ فكيف نفسّر هذا السفر السخيف اليائس إلى بلد بعيد في آسيا؟ لقد ذهب يبحث عن موته. نعم، ماري - كلود متأكدة من هذا الأمر: من أنّ فرانز اختار

موته بعد طول تبصّر. وخلال أيامه الأخيرة وفيما كان يشارف على الاحتضار ولم يعد حينئذ بحاجة إلى الكذب، لم يعد يومها راغباً إلاّ في رؤيتها هي. لم يكن قادراً على الكلام ولكنه كان يوجه شكره لها على الأقل عبر نظراته. كانت عيناه تطلبان المغفرة منها، وها قد غفرت له.

29

ماذا بقي من محتضري كمبوديا؟

صورة كبيرة للنجمة الأميركية تحمل بين ذراعيها طفلاً أصفر.

ماذا بقي من توماس؟

كتابةٌ: أراد مملكة الله على الأرض.

ماذا بقي من بيتهوڤن؟

رجل مقطب الوجه، مشعث الشعر كمجنون وينطق بصوت مكتئب "Esmuss sein" «ليس من ذلك بدّ».

ماذا بقي من فرانز؟

كتابةٌ: بعد ضلال طويل، كانت العودة.

وهكذا دواليك، وهكذا دواليك. قبل أن نُنسَى نتحول إلى «كيتش». «الكيتش» هو محطة اتصال بين الكائن والنسيان.

القسم السابع

ابتسامة كارنينا

1

كانت النافذة تطلّ على تلّة تلوح فيها قامات ملتوية من أشجار التفاح. في أعلى التلة، كانت الغابة تغطي الأفق وكانت استدارة التلال تمتد إلى البعيد. عند المساء، كان قمر أبيض يبزغ في السماء الشاحبة وكان هذا هو الوقت الذي تظهر فيه تيريزا على العتبة. كان القمر المعلَّق في السماء التي لم تُظْلِمْ بعد مثل لمبةٍ نُسيت أن تُطفأ في الصباح، وبقيت مضاءة طوال النهار في غرفة الموتى.

كانت أشجار التفاح الملتوية تنبت على التلة ولا تستطيع إحداها أن تترك المكان الذي نمت فيه جذورها. كذلك فإنّ تيريزا وتوماس لم يعودا قادريْن إطلاقاً على مغادرة هذه القرية. كانا قد باعا سيارتهما وجهازَي التلفزيون والراديو ليتمكنا من شراء بيت صغير مع حديقة، مِنْ فلاحٍ ذاهب للإقامة في المدينة.

الذهاب للعيش في الريف كان إمكانية الفرار الوحيدة التي تبقّت لهما. لأنّ الريف الذي كان يفتقر إلى السواعد باستمرار ما كانت تنقصه المساكن. ثم أن لا أحد يهتم بالماضي السياسي لهؤلاء الذين يقبلون بالذهاب للعمل في الحقول أو في الغابات. ولا أحد كان يحسدهم.

كانت تيريزا سعيدة لأنها تركت المدينة وصارت بعيدة عن الحانة وزبائنها السكارى، وصارت بعيدة عن النساء المجهولات اللواتي يتركن روائح فروجهن في شعر توماس. ها إنّ الشرطة قد أقلعت عن الاهتمام بهما. وبما أنّ قصة المهندس كانت تتماثل في ذاكرتها مع مشهد «مون - دو - بيير» فإنها بالكاد كانت تلاحظ الفرق بين الحلم والحقيقة. (على أية حال، هل المهندس هو حقاً في خدمة الشرطة السرية؟ ربما نعم وربما لا. ثم إن هناك الكثير من الرجال الذين يعيرون شققهم لبعضهم من أجل مواعيدهم الغرامية، أو الذين لا يحبون مضاجعة المرأة نفسها أكثر من مرّة).

كانت تيريزا سعيدة إذاً معتقدةً أنها وصلت إلى هدفها: كانا معاً هي وتوماس وحدهما، وحدهما؟ عليَّ أن أكون أكثر دقة: إنّ ما أدعوه الوحدة يعني أن يقطعا كل علاقة بأصدقائهما القدامى وبمعارفهما، أن يقطعا حياتهما السابقة كما يُقطَع شريط بالمقص. ولكنهما كانا يشعران بالسعادة في صحبة المزارعين حيث يعملان معهم، وحيث كانا يقومان بزيارتهم من وقت لآخر أو يدعوانهم لزيارتهما.

يوم تعرّفت تيريزا إلى رئيس التعاونية في مدينة المياه المعدنية التي تغيرت أسماء شوارعها لتصبح أسماء روسية، اكتشفت فجأة في داخلها صورة الريف التي خلّفتها ذكريات قراءاتها أو أجدادها: عالم متناغم حيث تتحد فيه جميع العناصر لتؤلف عائلة كبيرة تتقاسم الاهتمامات ذاتها والعادات ذاتها: في أيام الآحاد الذهاب لسماع القداس في الكنيسة، والنُزُل حيث يتلاقى الرجال دون النساء، وصالة هذا النُزُل عينه التي تقام فيها حفلة موسيقية كل سبت وحيث يأتي أهالي القرية جميعاً للرقص.

ولكن القرية في ظل الشيوعية لم تعد تشبه هذه الصورة القديمة. كانت الكنيسة موجودة في مجمّع مجاور، ولا أحد يذهب إليها. أما

النُزُل فقد تحوّل إلى مكاتب ولم يعد الرجال يعرفون أين يستطيعون التلاقي ولم يعد في الإمكان الاحتفال بأعياد دينية، والأعياد الرسمية لم تعد تثير اهتمام أحد. أقرب سينما كانت في المدينة التي تقع على مسافة عشرين كيلومتراً. وكان الناس بعد انتهائهم من العمل يتنادون بسعادة مغتنمين فترة الاستراحة للثرثرة فيما بينهم، ثم يعودون للانزواء داخل جدران بيوتهم الصغيرة بأثاثها العصري ولكن المختار بذوق رديء يعصف فيها مثل تيار هوائي. كانوا يقبعون هناك، أعينهم مسمّرة إلى جهاز التلفزيون. لم يكونوا يزورون بعضهم بعضاً. وبالكاد كانوا يذهبون أحياناً للدردشة مع الجار قبل تناول العشاء. كان الجميع يحلم بالذهاب إلى المدينة. إذ إنّ القرية لم تكن تمنح أي شيء من شأنه أن يثير قليلاً من الاهتمام بالحياة.

وبسبب أن لا أحد عاد يريد الإقامة في القرية فإن الدولة فقدت سلطتها عليها. المزارع الذي لم يعد مالكاً لأرضه صار يعمل في الحقول أجيراً ولم يعد متعلقاً لا بالطبيعة ولا بعمله. لم يعد لديه ما يخشى فقدانه. وبفضل هذه اللاّمبالاة حافظت القرية على فسحة لا يُستهان بها من الاستقلال والحرية. لم يكن رئيس التعاونية يُعيَّن من الخارج (كما هو حال جميع المسؤولين في المدن) بل كان منتخباً من قبل المزارعين، وواحداً منهم.

وبما أنّ الجميع كان راغباً في الرحيل فإنّ وضع تيريزا وتوماس يصير إذ ذاك استثنائياً: لقد أتيا بكامل إرادتهما. كان الآخرون يغتنمون الفرصة من أجل قضاء النهار في البلدات المجاورة. أما تيريزا وتوماس فلا يطلبان سوى البقاء حيث هما: ولم يلبثا أن تعرّفا إلى القرويين أفضل مما يعرف القرويون أنفسهم.

أصبح رئيس التعاونية صديقهما المخلص. كانت لديه زوجة وأربعة أولاد وخنزير رُبِّيَ كأنه كلب. كان الخنزير يدعى «مفيستو» وكان

مفخرة القرية ومحط إعجابها. كان يلبي النداء ما إن يسمعه، وكان نظيفاً جدّاً، زهريّ اللون يجري بسرعة وبخطى صغيرة على كعابه الصغيرة، كما تجري امرأة ذات ربلات ضخمة على كعبيها العاليين.

كانت كارنينا متحيرة حين رأت مفيستو للمرة الأولى وأمضت وقتاً طويلاً تدور حوله ثم أخذت تستنشقه. ولكنها ما لبثت أن ارتبطت بصداقة وثيقة معه مفضّلة إياه على كلاب القرية التي كانت تكرهها وكانت مربوطة إلى أوجارها تنبح ببلاهة طوال الوقت دون سبب. كانت كارنينا تقدّر النّدرة حق قدرها. وكانت متعلّقة بهذه الصداقة مع الخنزير.

كان رئيس التعاونية سعيداً لتمكنه من مساعدة جرّاحه القديم وحزيناً في الوقت نفسه لأنه لا يستطيع أن يفعل له أكثر من ذلك. وكان توماس سائق شاحنة يقود المزارعين إلى حقولهم ويقوم بنقل المعدات الزراعية.

التعاونية مؤلفة من أربعة مبانٍ كبيرة لتربية الماشية، وإلى ذلك زريبة صغيرة تحوي أربعين بقرة عُهِد بها إلى تيريزا لتصطحبها إلى الحقل مرتين في النهار. كانت الحقول المجاورة والتي يمكن الوصول إليها بسهولة مخصصة لحصاد الكلأ. كان على تيريزا اصطحاب قطيعها إذاً إلى التلال المجاورة. كانت البقرات ترعى العشب من المراعي البعيدة، وكانت تيريزا تلحق بها خلال السنة، في طول المنطقة الفسيحة التي تحيط بالقرية. وكما في المدينة الصغيرة، كانت تمسك دائماً كتاباً بيدها تفتحه حين تصل إلى الحقول وتبدأ بالقراءة.

كانت كارنينا تصحبها دائماً. وقد تعلّمت النباح خلف البقرات الصغيرات حين يكنَّ بطرات وينوين الابتعاد عن الأخريات. كانت كارنينا تشعر بمتعة بديهية، من بين الثلاثة كانت هي الأكثر سعادة إطلاقاً، إذ لم تكن وظيفتها «كمسؤولة عن الساعة» محترمة إلى هذا

الحد حتى اليوم، دون أن يكون فيها مكان للارتجال. فالزمن الذي كانت تعيش فيه تيريزا وتوماس، كان يقترب من انتظام زمن كارنينا.

ذات يوم بعدما تناولا الإفطار، (كانا يملكان ساعة فراغ في هذا الوقت كل يوم) قاما بنزهة برفقة كارنينا إلى منحدر التلة خلف البيت.

قالت تيريزا: «لا تعجبني الطريقة التي تمشي بها».

كانت كارنينا تعرج من قائمتها اليسرى. انحنى توماس متلمساً قائمتها، فاكتشف تورماً صغيراً في فخذها.

في صباح اليوم التالي أجلسها قربه على مقعد الشاحنة وتوقّف في القرية المجاورة حيث يقطن بيطريّ. ذهب لزيارته خلال أسبوع وعاد مُعلناً أنّ كارنينا مصابة بالسرطان.

بعد ثلاثة أيام، أجرى لها الطبيب البيطري عملية جراحية. عندما اصطحب كارنينا إلى البيت، لم تكن قد أفاقت من المخدر بعد. كانت نائمة على السجادة، عيناها مفتوحتان وتنوح. كان شعرها محلوقاً عند فخذها وجرحها مخاطاً بست قطب.

بعد قليل، حاولت أن تنهض، لكن دون جدوى.

خافت تيريزا: وماذا لو لم يعد في استطاعتها السير من جديد؟

- «لا تخافي»، قال توماس، «لا تزال تحت تأثير المخدر».

حاولت أن ترفعها ولكنها بدأت تصفّق بفكّيها. كانت هذه المرة الأولى التي تريد فيها العضّ!

- «لا تعرف من أنتِ»، قال توماس. «لم تتعرف إليكِ بعد».

مدّداها قرب سريرهما فغفت بسرعة. وغَفَوا بدورهما، ثم أيقظتهما فجأة عند الساعة الثالثة صباحاً. كانت تهزّ ذنبها وتدوس تيريزا وتوماس متمرّغة بهما بشراسة ودون توقّف.

هذه المرة لم تستطع أن تسيطر على نفسها عندما بدأت تستعيد

وعيها كاملاً خلال الليل. . مَنْ يعرف من أية مسافات بعيدة كانت راجعة! مَنْ يعرف أية أشباح واجهت! الآن وقد اكتشفت أنها في بيتها وتعرفت إلى الكائنَيْن الأحبّ إلى قلبها، لم تستطع الامتناع عن إشاعة فرحتها التي لا توصف، تلك الفرحة التي شعرت بها عند رجوعها وولادتها الجديدة.

2

جاء في أوّل سفر التكوين أنّ الله خلق الإنسان وجعله يسيطر على الطيور والأسماك والماشية. وبالطبع ألّف سفر التكوين إنسان، لا حصان. وليس من المؤكّد أنّ الله أراد حقاً أن يحكم الإنسان سائر المخلوقات. وربما الأكثر احتمالاً أن يكون الإنسان قد اخترع ذلك ليبرّر السلطان الذي اغتصبه على البقرة. وبطبيعة الحال، الحق في سفك دم أيّلٍ أو بقرة هو الشيء الوحيد الذي اتفقت عليه الإنسانية جمعاء بتآخٍ حتى خلال الحروب الأكثر دموية.

قد يبدو لنا هذا الحق بديهياً لأننا نعتبر أنفسنا في قمة السلم. ولكن يكفي أن يتدخل شخص ثالث في اللعبة، زائر آتٍ مثلاً من كوكب آخر وقد أمره الله: «سوف تكون لك سلطة على كائنات الكوكب الأخرى كافة»، فتصبح عندئذ مسلّمة سفر التكوين موضع شك في الحال. فلنتصور الإنسان وقد أوثقه أحد سكان المريخ بعربة ثم قلّبه أحد سكان المجرة على سيخ ليشويه، ربما سيتذكر حتماً حينئذ ضلع العجل الذي اعتاد على تقطيعه في صحنه، وسيقدم اعتذاره (ولو متأخراً جداً) للبقرة.

تيريزا تقدم قطيع بقراتها وتدفعهن أمامها. يتعيَّن عليها دائماً أن تزجر إحداهن لأنّ البقرات الصغيرات لعوبات، ويبتعدن عن الطريق المرسوم ليذهبن للعب في الحقول. ها قد مرّت سنتان وكارنينا ترافق

البقرات وتتبعهن كلّ يوم إلى المرعى. كان يسلّيها جداً أن تكون صارمة معهن، كأن تنبح في إثرهن أو أن تزجرهن. (فالله قد أعطاها حق السيادة على البقرات وهي فخورة بذلك). ولكنها اليوم تمشي بصعوبة كبيرة وتقفز على ثلاث قوائم لأنّ في قائمتها الرابعة جرحاً ينزف. تيريزا تنحني كل دقيقتين لتداعب ظهرها. خمسة عشر يوماً مرّت على إجراء العملية، ومن الجلي أنّ السرطان لا يتوقف عن الانتشار، وحال كارنينا تسير من سيّئ إلى أسوأ.

أثناء المسير، التقين بجارة تزور الإسطبل منتعلة جزمتها المطاطية. توقفت الجارة وسألت: «ما بها كلبتك؟ كأنها تعرج!». أجابت تيريزا: «إنها مصابة بالسرطان ومحكوم عليها بالموت». فأحسّت عندئذ بأنّ حلقها منقبض وبأنها تجد صعوبة في الكلام. شاهدت الجارة دموع تيريزا فغضبت: «ماذا دهاكِ، مهما يكن، لا يجدر بك أن تبكي من أجل كلبة!». لم تقل ذلك عن سوء نية، فهي طيبة القلب ولكنها قالت ذلك لتؤاسي تيريزا وتيريزا تعرف. فهي تسكن في القرية منذ وقت طويل وتعرف جيداً أنّ المزارعين إذا كانوا يحبون أرانبهم كما تحب هي كارنينا فإنهم لا يعودون قادرين على قتل أي منها، ولن يلبثوا حتى أن يقضوا وحيواناتهم في الوقت نفسه. وعلى الرغم من هذا الأمر فقد بدت لها ملاحظة الجارة عدائية. «أعرف»، أجابت دون اعتراض، ولكنها استدارت على عجل متابعة طريقها. أحست أنها وحيدة بحبها لكلبتها. كانت تفكر وهي تبتسم بأسىً أنَّ عليها أن تخفي هذا الحب بعناية قصوى كمن يُخفي خيانة ما. فالحب الذي نحمله لكلبة مثير للاستنكار. لو علمتِ الجارة بأنها تخون توماس لربّتت ربما على ظهرها مشجعة ولابتسمت لها بشكل متواطئ!.

ها هي تتابع طريقها برفقة بقراتها اللواتي يتصادمن، قائلة في نفسها إنّ هذه البهائم عذبة جداً، هادئة، دون مكر، وأحياناً فرحة فرحاً

طفولياً: تخالها سيدات سمينات في الخمسين من عمرهن يتظاهرن بأنهن في سن الرابعة عشرة. لا يوجد شيء أكثر إثارة للعطف من منظر بقرات يلعبن. تيريزا تنظر إليهن بمحبة وتفكر (وهذه الفكرة تعاودها دون توقف منذ سنتين) إنّ البشرية تعيش متطفلة على البقرة كما تعيش الدودة الوحيدة متطفّلة على الإنسان: البشرية تتشبث بضروعها تشبثَ العلق. الإنسان هو طفيلي البقرة. ومما لا شك فيه أنّ هذا هو التعريف الذي يمكن أن يعطيه لا إنسان للإنسان في علم الحيوان.

يمكن أن نرى في هذا التعريف مجرّد مزحة ونبتسم لها بتسامح. ولكن إذا كانت تيريزا تأخذها على محمل الجد فإنها ترمي والحالة هذه بنفسها في منزلق خطر: هذه الأفكار خطيرة وتبعدها عن الإنسانية. ففي سفر التكوين، عهد الله إلى الإنسان بالسيادة على الحيوانات. وبإمكاننا أن نفسر ذلك قائلين إنّ الله قد أعار هذه السلطة له. الإنسان ليس مالك الكوكب بل وكيله وعليه ذات يوم أن يقدم كشفاً لحسابه. ديكارت ذهب أبعد من ذلك في هذا المنحى: جعل الإنسان «سيد الطبيعة ومالكها». وهو منطقي جداً بالتأكيد فيما يتعلق بنفيه لوجود الروح عند الحيوانات. فحسب ما يقول ديكارت، الإنسان هو المالك والسيّد فيما الحيوان ليس إلاّ مسيّراً وآلة حية، أو ما يسمّيه بال «ماكينا أنيماتا». عندما يئن الحيوان فالأمر لا يتعلق بشكوى بل بصرير تطلقه آلة تسير بشكل سيّئ. فحين تئز عجلة عربة فهذا لا يعني أنّ العربة تتألم بل إنها تحتاج إلى تشحيم. وبالطريقة ذاتها يجب أن يُفسر نحيب الحيوان. ويجب ألا نشفق على كلب يُشرَّح وهو حيّ في مختبر.

البقرات ترعى في أحد الحقول وتيريزا جالسة على أرومة شجرة وعند قدميها كارنينا تضطجع مسندة رأسها إلى ركبتيها. تتذكر تيريزا خبراً صغيراً من سطرين قرأته في جريدة جاء فيه أنّ جميع الكلاب قُتلت في إحدى المدن الروسية. هذا الخبر الصغير المتكتم والذي يبدو

غير مهم ظاهرياً جعلها تشعر، للمرة الأولى، بفظاعة هذا البلد الكبير المجاور.

كان هذا استباقاً لكل ما حصل فيما بعد، ففي أول سنتين أعقبتا الاجتياح الروسي، لم يكن في الإمكان بعد التحدث فعلياً عن الرعب. بما أنّ الأمة بأجمعها تقريباً كانت تشجب نظام الاحتلال، كان على الروس أن ينتقوا من بين التشيكيين رجالاً يضعونهم في سدة السلطة. ولكن كيف نجدهم خصوصاً وأنّ الإيمان بالشيوعية وحبّ روسيا باتا أمرين مفروغاً منهما؟ ذهبوا للبحث عنهم بين هؤلاء الذين يغذون في داخلهم الرغبة الحقودة في تسديد حساباتهم مع الحياة. . كان الأمر يتطلب أن يُشَدَّ أزر هذه العدائية وتغذيتها وجعلها في حالة تأهب، وتدريبها في أول الأمر ضدّ أي خطر محتمل. وهذا الخطر يكمن في الحيوانات.

أخذت الصحف تنشر آنذاك سلسلة مقالات وتنظّم حملات في شكل رسائل للقراء. على سبيل المثال، المطالبة بإبادة الحَمام في المدن، فتمّتْ إبادة الحمام كلياً. ولكن الحملة كانت متوجهة على الأخصّ ضدّ الكلاب. كان الناس لا يزالون يعيشون الصدمة الناتجة عن كارثة الاحتلال، أما الصحف والراديو والتلفزيون فكانت تتحدث فقط عن الكلاب ملوثة الأرصفة والحدائق العامة، والمهددة لصحة الأطفال، والتي لا تنفع لشيء والتي يجب إطعامها، إلى ذلك كان يجري خلق جو من الهوس الفعلي وكانت تيريزا تخاف من أن يُسيء السفلة إلى كارنينا. بعد مرور سنة على ذلك انصبّ الحقد المتراكم (المجرب في البدء على الحيوانات) على هدفه الفعلي أي الإنسان. وبدأت عمليات التسريح من العمل وحملات التوقيف والمحاكمات. وهكذا استطاعت الحيوانات أخيراً أن تستعيد أنفاسها.

داعبت تيريزا رأس كارنينا المستند بهدوء إلى ركبتيها. كانت

متمسكة تقريباً بهذه الفكرة: لا فَضْلَ لمن يتصرف جيداً مع أمثاله. تيريزا مضطرة لأن تكون مستقيمة مع القرويين وإلاّ لما كان بإمكانها أن تعيش في جوارهم. وحتى مع توماس هي مجبرة على أن تتصرف كامرأة محبة لأنها بحاجة إليه. ليس في الإمكان قط أن نحدد بدقة إلى أيّ مدى تكون علاقاتنا بالآخرين من حصيلة مشاعرنا، حبنا أو لا حبّنا، رقّتنا أو كراهيتنا؛ وإلى أيّ مدى تكون علاقاتنا مشروطة مسبقاً بامتحان القوى فيما بين الأفراد.

الطيبة الحقيقية للإنسان لا يمكن أن تظهر في كلّ نقائها وحريتها إلاّ حيال هؤلاء الذين لا يمثلون أية قوة. فالامتحان الأخلاقي للإنسانية (الامتحان الأكثر جذرية والذي يقع في مستوى أكثر عمقاً بحيث إنه يخفى عن أبصارنا) هو في تلك العلاقات التي تقيمها مع من هم تحت رحمتها، أي الحيوانات. وهنا تحديداً يكمن الإخفاق الجوهري للإنسان، الإخفاق الذي تنتج عنه كل الإخفاقات الأخرى.

اقتربت بقرة من تيريزا، ثم توقفت وأمعنت النظر فيها طويلاً بعينيها الكبيرتين البنيتين. تيريزا تعرفها وتدعوها مارغريت. كان في ودّها أن تعطي اسماً لكل بقرة من بقراتها ولكنها لا تستطيع لأنهن كثيرات. منذ زمن، منذ ثلاثين سنة، كان أكيداً أنّ بقرات القرية كلها كانت تملك أسماء. (وإذا كان الاسم هو دلالة على الروح، فأستطيع القول إذاً إنهن كنّ يملكن روحاً، حتى ولو كان الأمر لا يعجب ديكارت). ولكن القرية أصبحت فيما بعد مصنعاً تعاونياً كبيراً، وصارت البقرات يمضين حياتهن في العيش بين مترين مربّعين في الزريبة. لم يعد لديها أسماء ولم تعد سوى «آلات حية». وهكذا جعل العالم ديكارت على حق.

أمام عينيَّ ماثلة أبداً تيريزا الجالسة على أرومة شجرة وهي تداعب رأس كارنينا وتفكر في إخفاق الإنسانية. وفي الوقت ذاته تنبثق صورة

أخرى أمام عينيّ: صورة نيتشه وهو خارج من فندق في توران، يرى حوذيّاً ينزل على حصانه بالسوط. فيقترب نيتشه من الحصان ويحيط عنقه بذراعه أمام ناظري الحوذيّ، ويجهش في البكاء.

حدث هذا في عام 1889 عندما كان نيتشه قد تنحى كلياً عن الناس، وبكلمة أخرى في تلك الفترة تحديداً انتشر خبر مرضه العقلي. ولكن، حسب رأيي، هذا الأمر بالتحديد هو ما يعطي لهذا التصرف دلالته العميقة. جاء نيتشه يطلب لديكارت المغفرة من الحصان. وجنونه (أي انفصاله عن البشرية) يبدأ في اللحظة التي بكى فيها من أجل الحصان.

وهذا «النيتشه» بالذات هو الذي أحبه، كما أحب تماماً تيريزا التي تداعب كلبتها المريضة حتى الموت فوق ركبتيها. أراهما جنباً إلى جنب يبتعدان عن الطريق حيث تتابع الإنسانية «سيدة الطبيعة ومالكتها» تقدّمها إلى الأمام.

3

أنجبت كارنينا فطيرتين على شكل هلالين ونحلةً، وكانت تنظر بدهشة إلى ذريتها الغريبة. كانت الفطيرتان تركنان ساكنتين أما النحلة المذهولة فكانت تترنَّح. وبعد قليل طارت واختفت.

عندما استفاقت تيريزا، أخبرت توماس هذا الحلم الذي رأته. ووجد كلاهما تعزية فيه: كان هذا الحلم يُحيل مرض كارنينا إلى حَبَل، ومشهد الولادة كان هزلياً ومؤثراً معاً: فطيرتان ونحلة.

شعَّ في داخلها من جديد أمل غامض، فقامت وارتدت ملابسها. كان نهارها يبتدئ في القرية أيضاً بالجولات الشرائية. كانت تذهب إلى السمّان لتشتري حليباً وخبزاًوفطائر. ولكن حين نادت كارنينا في ذلك

اليوم لتصحبها، بالكاد رفعت الكلبة رأسها. وكانت هذه هي المرّة الأولى التي ترفض فيها المشاركة في الاحتفال الذي تصرّ عليه دائماً بعناد.

ذهبت إذاً من دونها. «أين كارنينا؟» سألت البائعة وقد جهزت فطيرة لها. هذه المرّة، حملت بنفسها الفطيرة في قفّتها. ما إن صارت على العتبة حتى أخرجتها لتُريها لكارنينا. كانت تريد أن تأتي بنفسها لتأخذها ولكن الكلبة بقيت نائمة دون حراك.

كان توماس يدرك مدى حزن تيريزا، فأخذ الفطيرة بنفسه من فمه وزحف قبالة كارنينا، ثم اقترب منها ببطء.

كانت كارنينا تنظر إليه وشعاع من الاهتمام بدأ يلتمع في عينيها، ولكنها لم تنهض. قرَّب توماس وجهه إلى مسافة قريبة جداً من خطمها. ودون أن تحرّك جسدها، أخذت الكلبة في خطمها القطعة التي تبرز من فم توماس. ثم أفلت توماس الفطيرة ليتركها كاملة لكارنينا.

تراجع توماس وهو لا يزال زاحفاً، ثم تكوّم وأخذ ينبح. كان يريد أن يتظاهر بأنه يقاتل من أجل الحصول على الفطيرة. أجابت الكلبة صاحبها وهي تدمدم. وحصل أخيراً ما كانا ينتظرانه! عادت لكارنينا الرغبة في اللعب! لا يزال لدى كارنينا حبّ الحياة!

هذه الدمدمة كانت ابتسامة كارنينا. كان في نيّتهما أن يجعلا هذه الابتسامة تدوم أطول وقت ممكن. من جديد اقترب توماس زاحفاً نحو الكلبة وأمسك طرف الفطيرة التي تبرز من خطمها. كان وجهاهما قريبين جداً الواحد من الآخر وأحسّ توماس بلهاث الكلبة، وبالوبرات الطويلة النابتة حول خطمها تدغدغ وجهه. أرسلت الكلبة دمدمة وهزّت خطمها فجأة. كان لكل منهما نصف فطيرة يلتقطها بين أسنانه. ارتكبت

كارنينا خطأها القديم فأفلتت ما تحتفظ به من فطيرتها للاستحواذ على القطعة التي في فمّ سيّدها. كانت قد نسِيتْ كالعادة أنّ توماس ليس كلباً وأنّ لديه يَدَيْن. لم يفلت توماس الفطيرة التي كانت في فمه وتناول النصف الذي سقط على الأرض بيده.

هتفت تيريزا: «توماس، لا تأخذ لها فطيرتها».

أفلت توماس نصفَي الفطيرة أمام كارنينا. فالتهمت النصف الأول بسرعة، ولكنها احتفظت بالنصف الآخر طويلاً في فمها وبإصرار، لكي تثبت لسيديْها أنها ربِحَت المعركة.

كانا ينظران إليها مردّدين أنّ كارنينا كانت تبتسم، وأنها ما دامت تبتسم، فإنّ هناك أملاً في الحياة، حتى ولو كان محكوماً عليها بالموت.

في صباح اليوم التالي بدا وكأن حالتها تحسنت. تناولا إفطارهما. في مثل هذا الوقت كان يتسنى لهما أن يصطحبا الكلبة في نزهة. كانت تعرف هذا وتبدأ بالقفز عادة من حولهما بلجاجة قبل لحظات الشروع في النزهة. ولكن هذه المرة، حين وضعت تيريزا لها الرسن والطوق، نظرت إليهما طويلاً ودون حراك. كانا منتصبين أمامها ويجهدان لأن يتظاهرا بأنهما سعيدان (بفضلها ومن أجلها) لكي يبثَّا فيها بعضاً من المزاج الطيّب. بعد قليل، اقتربت الكلبة منهما وكأنها أشفقت عليهما. اقتربت تعرج على قوائمها الثلاث لكي يضعا لها الطوق.

قال توماس: «تيريزا، أعرف أنك على خصام مع آلتك الفوتوغرافية. ولكن خذيها معك اليوم!».

أذعنت تيريزا وفتحت الخزانة لتفتش عن آلة التصوير المخفية والمنسية في إحدى الزوايا. أضاف توماس: «سوف نكون سعيدين جداً ذات يوم لالتقاطنا هذه الصور. كارنينا كانت جزءاً من حياتنا».

- «هل قلْتَ كانَتْ؟»، قالت تيريزا وكأن أفعى لسعتها. كانت الآلة أمامها في عمق الخزانة ولكنها لم تقم بحركة. «لن آخذ الآلة معي. لا أريد أن أفكر أن كارنينا لن تعود بيننا. تتكلم عنها من الآن وكأنها جزء من الماضي!».

- «لا تغضبي منّي!» قال توماس.

- «لست غاضبة منك»، قالت تيريزا بهدوء، «أنا أيضاً مرّاتٍ كثيرة فاجأت نفسي وأنا أفكر فيها وكأنها صارت جزءاً من الماضي. ومراتٍ كثيرة لُمت نفسي على ذلك! من أجل هذا، لن آخذ الكاميرا معي».

كانا يمشيان على الطريق دون أن ينبسا بكلمة، كان الصمت الطريقة الوحيدة كي يتجنبا التفكير في كارنينا وكأنها جزء من الماضي. لم يكونا يشيحان ببصرهما عنها وكانا معها باستمرار، متحيّنين الفرصة التي قد تبتسم فيها. ولكنها لم تكن تبتسم بل تمشي فقط ودائماً على قوائمها الثلاث.

- «إنها تقوم بذلك فقط من أجلنا»، قالت تيريزا. «لم تكن راغبة في الخروج من البيت. جاءت فقط لكي تدخل السرور إلى قلبينا».

ما قالَتْه كان محزناً. ولكن، على الرغم من ذلك كانا سعيدين دون أن يدريا. وسعادتهما لم تكن على الرغم من الحزن بل بفضله. كانا يمسكان بأيديهما ويريان أمام أعينهما الصورة ذاتها: كلبة عرجاء تجسّد عشر سنوات من عمرهما.

رغبا في القيام أيضاً بجولة صغيرة. ولكن كارنينا خيّبت آمالهما عندما توقفت فجأة لتعود على أعقابها. وَجُبَتِ العودةُ إذاً.

ربما في اليوم ذاته أو بعده، رأت تيريزا عندما دخلت إلى غرفة توماس بغتةً أنه كان يقرأ رسالة. حين سمع الباب يصفق، أخفى الرسالة بين الأوراق فلاحظَتْ ذلك. وحين خرج من الغرفة رأته يدسّ

رسالة في جيبه. ولكنه كان قد نسي المغلف. عندما صارت وحدها في البيت، تفحصت المغلف. كان العنوان مكتوباً بخط مجهول ولكنّهُ واضح جداً، وبدا لها وكأنه خط امرأة.

فيما بعد، حين تلاقيا ثانية، سألته متظاهرة بأنّ شيئاً لم يكن، هل يتلقى رسائل في البريد.

«لا»، قال توماس، فتولى اليأس قلب تيريزا؛ يأس قاتل لأنها فقدت الاعتياد عليه. لا، لم تكن تعتقد أنّ بإمكان توماس أن يعاشر امرأة هنا في الخفاء، فهذا مستحيل عملياً. كانت على بيّنة من جميع أوقات فراغه. ولكن ربما هناك امرأة في براغ لا يزال متعلقاً بها حتى ولو لم يكن في مستطاعها أن تترك رائحة فرجها في شعره. لم تكن تعتقد أنّ توماس يمكن أن يتركها بسبب هذه المرأة، ومع ذلك فقد أحسَّت بأنّ سعادة السنتين الأخيرتين اللتين عاشتهما في القرية، قد شوّههما الكذب، كما حدث في السابق.

عاودتها فكرة قديمة: سُكناها لم يكن توماس، بل كارنينا. من سوف يعبّئ ساعة أيامهما من جديد عندما لن تعود هنا؟

كانت تيريزا تفكر في المستقبل، في مستقبل دون كارنينا وكانت تشعر أنها متروكة فيه.

كانت كارنينا مضطجعة في إحدى الزوايا وتنوح. ذهبت تيريزا إلى الحديقة. تفحصت الأرض المعشبة بين شجرتي تفاح وقالت في نفسها إنهما سيدفنان كارنينا هنا، غرزت كعبها في التراب لترسم في العشب شكلاً مستطيلاً. ستكون هذه مساحة قبرها.

«ماذا تفعلين؟» سألها توماس الذي باغتها بالشكل الذي باغتته فيه منذ ساعات معدودات عندما كان يقرأ الرسالة.

لم تجب. كان يرى يديها ترتجفان: كانت هذه هي المرة الأولى

منذ وقت طويل. أمسك يديها، فتملصت منه.

«هل هذا قبر كارنينا؟»

لم تُجب.

كان صمتها يُغضب توماس فانفجر غاضباً: «لقد لُمتِني لأني فكرت فيها بصيغة الماضي. وأنتِ ماذا تفعلين؟ تريدين دفنها من الآن!».

أدارت ظهرها ورجعت إلى البيت.

ذهب توماس إلى غرفته وصفق الباب وراءه.

فتحت تيريزا الباب من جديد وهي تقول: «لا تفكر إلاّ في نفسك. يمكنك على الأقل أن تفكر فيها في هذه المحنة. كانت تنام وأيقظتها. ستبدأ بالنحيب من جديد».

كانت تعلم أنها غير عادلة (فالكلبة لم تكن نائمة) وأنها تتصرف مثلما تتصرف المرأة الساذجة الأكثر ابتذالاً حين ترغب في الإيذاء وتتقنه.

دخل توماس على رؤوس أصابعه إلى الغرفة التي كانت كارنينا تنام فيها. لكنها لم تشأ أن تتركه وحيداً معها. انحنى كلاهما فوق الكلبة، كلٌّ من جهته. هذه الحركة المشتركة لم تكن لفتة تسامح بل على العكس، كان كلٌّ منهما وحيداً. تيريزا مع كلبتها وتوماس مع كلبته.

يخالجني خوف عظيم من أن يبقيا هكذا معها حتى آخر لحظة منفصلَيْن وكلٌّ منهما وحده.

4

لِمَ عبارة «الحبّ البريء» هي على هذه الأهمية بالنسبة لتيريزا؟

نحن الذين تربينا في أجواء أساطير العهد القديم، يمكننا أن نقول

إنّ «الحبّ البريء» هو الصورة التي بقيت فينا بمثابة ذكرى من الجنّة: لم تكن الحياة في الجنة تشبه الرحلة ذات الخط المستقيم التي تقودنا في المجهول، ولم تكن مغامرة. بل كانت تتحرك في سير دائري وسط أشياء معروفة، ولم تكن رتابتها ضجراً بل سعادة.

ما دام الإنسان يعيش في الريف في قلب الطبيعة محاطاً بالحيوانات الأليفة يعانق الفصول وتكرارها، فإنه سيظلّ يحتفظ، وإن كان الأمر مجرّد صدىً، بشيء من ذلك الحب البريء الفردوسي. حين التقت تيريزا رئيس التعاونية في مدينة المياه المعدنية، انبجست أمام عينيها صورة الريف (الريف الذي لم تعش فيه من قبل والذي لم تكن تعرفه) وشعرت بالغبطة. كان الأمر وكأنها نظرت إلى الوراء، باتجاه الجنّة.

في الجنّة، حين كان آدم ينحني فوق النبع، لم يكن يعرف بعد أنّ الصورة التي يراها كانت تمثّله. ولم يكن قادراً على أن يفهم معنى وقفات تيريزا المطوّلة قبالة المرآة عندما كانت صغيرة أو جهدها لترى روحها عبر جسدها. كان آدم مثل كارنينا. فعندما كانت تيريزا تقود كارنينا أمام المرآة لتتسلّى، كانت كارنينا لا تتعرّف إلى صورتها بل تنظر إلى نفسها ساهمة وبلا مبالاة كلية.

المقارنة بين كارنينا وآدم تجعلني أفكر أنّ الإنسان في الجنة لم يكن قد صار إنساناً بعد. وبطريقة أصح، لم يكن الإنسان قد قُذف بعد إلى مدار الإنسان. أما نحن الذين قذفنا منذ زمن بعيد محلّقين في نزاع الوقت الذي يسير في خط مستقيم، فلا تزال في داخلنا بقية من خيط رفيع يشدنا إلى الجنّة البعيدة المغبشة، حيث كان آدم ينحني فوق النبع من غير أن يفكر، على العكس تماماً من نرسيس، في أنّ هذه البقعة الصفراء الشاحبة التي تتراءى له، هي صورته. الحنين إلى الجنة إذاً هو رغبة الإنسان في ألاّ يكون إنساناً.

عندما كانت صغيرة وتعثر على فوط أمها الصحية الملطخة بدم العادة الشهرية، كانت تشعر بالقرف والكراهية نحو أمها التي لم تكلف نفسها حشمة أن تخفيها عن الأنظار. ولكن كارنينا كانت كلبة ويأتيها الطمث أيضاً مرة كلّ ستة أشهر ويدوم خمسة عشر يوماً. ولكي لا توسّخ الشقة، كانت تيريزا تضع بين رجليها قطعة ضخمة من القطن وتلبسها أحد سراويلها العتيقة وتثبته حول جسدها بواسطة شريطٍ طويل. كان يسرّها أن ترى هذا الزي المضحك خلال خمسة عشر يوماً.

كيف يمكن أن نفسر أنّ طمث كلبة يثير فيها حناناً فَرِحاً فيما عادتها الشهرية كانت تنفرها؟ يبدو لي الجواب سهلاً: الكلبة لم تُطرد من الجنة. كارنينا تجهل كل شيء عن ثنائية الروح والجسد وتجهل ما هو القرف. لذلك كانت تيريزا تشعر أنها جيدة وهادئة جداً قربها (ومن أجل هذا، من الخطورة بمكان أن نحوّل الحيوان إلى آلة حية وأن نجعل من البقرة آلة لإنتاج الحليب: فبهذه الطريقة يقطع الإنسان الخيط الذي كان يصله بالجنّة، ولا شيء يستطيع عندئذ إيقافه أو تعزيته خلال طيرانه عبر فراغ الزمن).

من خلال الفوضى المشوشة لهذه الأفكار، تبرعمَتْ فكرة دنسة في روح تيريزا دون أن تستطيع التخلص منها: الحب الذي يربطها بكارنينا أفضل من الحب الموجود بينها وبين توماس، أفضل منه لكن ليس أكبر. تيريزا لا تنوي اتهام أحد، لا هي ولا توماس، ولا تريد أن تؤكد أن بإمكانهما أن يتحابّا أكثر. وإنما يبدو لها أنّ الحبّ (في أفضل حالاته على الأقل) مخلوق أصلاً ليكون من طبيعة أدنى مما يمكن أن يكونه الحب بين الإنسان والكلب. وهنا بالذات تكمن غرابة التاريخ الإنساني الذي لم يخطط له الخالق على الأرجح.

إنّ هذا الحبّ لمترفّع: تيريزا لا تريد شيئاً من كارنينا ولا تطلب

منها أن تبادلها الحب. هي لم يخطر ببالها قط أن تطرح على نفسها الأسئلة التي تعذّب عادة العشاق البشر: هل يحبني؟ هل أَحَبَّ أحداً من قبل أكثر مني؟ هل حبه لي أكبر من حبي له؟ كل تلك الأسئلة التي تساور الحب والتي تعيشه وتتفحصه وتمتحنه وتدمّره ربّما وهو لمّا يزل جنيناً. إذا كنا غير قادرين على الحب فهذا ربما لأننا نرغب في أن نكون محبوبين، أي لأننا نريد شيئاً من الآخر (الحب) بدل أن نجيئه دون شرط وألا نرغب في شيء آخر سوى حضوره.

وهناك شيء آخر: تيريزا قبلت كارنينا كما هي. لم تسعَ إلى تغييرها لتصير نسخة عنها. بل أذعنت مسبقاً لعالمها ككلبة ولم تشأ مصادرته. فهي لا تشعر بالحسد من ميولها السرية. وإذا كانت قد سهرت على تربيتها فهذا ليس من أجل أن تغيرها، (كما يريد رجل أن يغير زوجته أو كما تغير امرأة زوجها) ولكن فقط لكي تعلّمها اللغة البدائية التي تسمح لهما بأن يتفاهما وبأن يعيشا سوية.

وهناك أيضاً شيء آخر: حبها لكلبتها إرادي ولم يجبرها أحد عليه. (مرة أخرى، تفكر تيريزا في أمها وتشعر بأسى كبير نحوها. لو كانت أمها إحدى نساء القرية غير المعروفات لكان بإمكانها أن تجد فظاظتها المرحة أمراً محبباً! آه! لكن فقط لو كانت أمها غريبة عن المدينة! منذ الطفولة وتيريزا تخجل دائماً من أن تحتل أمها تقاسيم وجهها وأن تصادر لها ذاتها. والأسوأ من ذلك أنّ الوصية الموغلة في القدم والتي تقول: «أَحِبَّ أباك وأمك» كانت تجبرها على القبول بهذا الاحتلال وعلى أن تصف بالحب هذا الاعتداء! هذه ليست غلطة أُمها إن كانت تيريزا قد قطعت علاقتها بها. لم تقطع علاقتها بأمها لأنّ أُمّها كانت كما كانت، بل لأنها كانت أمها).

ولكن تجدر الإشارة خصوصاً إلى هذا الأمر: لا يمكن لأي إنسان أن يقدم للآخر قربان الحب البريء. وحده الحيوان يستطيع ذلك لأنه

لم يُطْرَد منَ الجنة. . الحبّ بين الإنسان والكلب حبّ بريء، حب دون صراع ودون مشاهد ممزّقة ودون تطور. حول تيريزا وتوماس كانت كارنينا تخط دائرة حياتها المبنية على التكرار وكانت تنتظر منهما الشيء نفسه.

لو كانت كارنينا إنساناً بدل أن تكون كلبة لكان أكيداً أن تقول لتيريزا منذ زمن بعيد: «اسمعي، لم يعد يعجبني أن أحمل كل يوم فطيرة في فمي. ألا يمكنك أن تقدمي لي شيئاً آخر جديداً؟». ولكانت إدانة الإنسان كلها متمثلة في هذه الجملة. الزمن الإنساني لا يسير في شكل دائري بل يتقدم في خط مستقيم. من هنا، لا يمكن للإنسان أن يكون سعيداً لأنّ السعادة رغبة في التكرار.

نعم، السعادة رغبة في التكرار، تفكر تيريزا.

عندما كان رئيس التعاونية يذهب لتنزيه مفيستو، بعد انتهائه من العمل، ويلتقي بتيريزا، لم يكن ينسى قط أن يقول: «سيدتي لو أنني فقط التقيته من قبل! كنا ذهبنا لمغازلة البنات معاً. فليست هناك أية امرأة تستطيع أن تقاوم خنزيرين!» عند هذه الكلمات، كان الخنزير يطلق نخيراً، فهو رُبّي من أجل هذا. وكانت تيريزا تضحك مع أنها كانت تعرف مسبقاً ما سيقوله لها الرئيس. فالتكرار لم يكن يغيّر شيئاً من سحر هذه المزحة. بل على العكس، حتى الفكاهة في سياق الحب البريء تخضع لقانون التكرار العذب.

5

بالمقارنة مع الإنسان، لا يتمتع الكلب بأية امتيازات، إلا أنه يملك امتيازاً يمكن تثمينه: القتل رحمةً به لا يحرّمه القانون، فالحيوان يملك الحق في ميتة رؤوفة. كانت كارنينا تمشي على ثلاث قوائم وتمضي أوقاتاً متزايدة وهي تنوح مضطجعة في الزاوية. كان توماس وتيريزا

متفاهمين تماماً، إذ ليس لهما الحق في أن يتركاها تشقى دون جدوى. ولكن اتفاقهما على هذا المبدأ لم يكن يجنبهما قلق الشك: كيف تمكن معرفة متى يصير العذاب غير مجدٍ؟ وكيف نحدد اللحظة التي لا تعود الحياة فيها جديرة بأن تعاش؟

لو أنّ توماس لم يكن طبيباً! كان بإمكانه عندئذ أن يختبئ وراء شخص ثالث. وكان بإمكانه عندئذ أن يذهب لزيارة الطبيب البيطري وأن يطلب منه حقن الكلبة بالإبرة.

إنه لأمر شاق أن يقوم المرء بنفسه بمهام الموت. كان توماس قد أعلن مراراً وبحزم أنه لن يغرز الحقنة بنفسه وأنه سوف يستدعي الطبيب البيطري. ولكنه فهم في النهاية أنّ بإمكانه أن يمنحها امتيازاً ليس في متناول أي كائن بشري: سيوافيها الموت في هيئة من يحبونها.

كانت كارنينا قد أمضت الليل تتأوه. عند الصباح، فحصها توماس ثم قال لتيريزا: «لم يعد بالإمكان الانتظار».

كان عليهما أن يذهبا إلى عملهما بعد قليل. ذهبت تيريزا لإحضار كارنينا من الغرفة. حتى هذا الوقت، بقيت ممددة بلا مبالاة، (وحتى قبل قليل، حين كانت تيريزا تتفحصها، لم تُبدِ أيّ اهتمام) ولكن عندما سمعت الباب يُفتح، رفعت رأسها ونظرت إلى تيريزا.

لم تقوَ تيريزا على تحمّل هذه النظرة، وكادت أن تخيفها. لم تكن قط تنظر إلى توماس بهذه الطريقة بل إليها وحدها. ولكن ليس بالحدّة نفسها كما الآن. لم تكن نظرتها مشوبة باليأس أو الحزن، لا. كانت نظرة ثقة مرعبة وغير محتملة. كانت هذه النظرة سؤالاً لجوجاً وكأن كارنينا قد انتظرت طوال حياتها جواب تيريزا. كانت تحاول أن تفهمها الآن (وبإلحاح أكثر من ذي قبل) أنها لا تزال مستعدة لتلقّي الحقيقة منها (لأن كل ما كان يصدر عن تيريزا يمثّل الحقيقة بالنسبة لها: كأن

تقول لها مثلاً «اجلسي»! أو «نامي». كل هذه الأوامر هي بمثابة حقائق تتماثل معها وتعطي لحياتها معنى).

كانت هذه النظرة ذات الثقة المرعبة خاطفة. عادت بعد قليل وأسندت رأسها فوق قوائمها. كانت تيريزا تعرف أنّ لا أحد أبداً سينظر إليها بالطريقة هذه.

لم يقدّما لها قط السكاكر من قبل، ولكن منذ بضعة أيام، اشترت لها ألواحاً من الشوكولا. نزعت عنها الورقة الفضية وقطعتها قطعاً صغيرة ثم وضعتها أمام الكلبة. ووضعت أيضاً قطعة مليئة بالماء كي لا تحتاج كارنينا إلى شيء طوال الساعات القليلة التي تبقى فيها وحدها في البيت. ولكن يبدو أنّ النظرة التي ألقتها عليها قد أتعبتها. فلم ترفع رأسها ثانية على الرغم من أنها كانت محاطة بقطع من الشوكولا.

اضطجعَتْ على الأرض قربها وحملتها بين ذراعيها فتشمَّمَتها ببطء شديد، ولعقتها بلسانها مرة أو مرتين بتعب كبير. استسلمت لهذه المداعبة بعينين مغمضتين وكأنها تريد أن تحفرها في ذاكرتها إلى الأبد. أدارت رأسها لكي تلحس لها خدها الآخر أيضاً.

ثم وجب عليها أن تنهض للاهتمام بالبقرات. لن ترجع إلاّ بعد الغداء. وتوماس لم يعد بعد. كانت كارنينا لا تزال نائمة وهي محاطة بقطع الشوكولا، ولم ترفع رأسها عندما سمعت تيريزا تقترب. كانت ساقها المريضة متورمة، وانتشر الورم في أماكن أخرى. ظهرت نقطة حمراء شاحبة (لا تشبه الدم إطلاقاً) بين الشعرات.

وكما في الصباح، تمدّدت على الأرض قربها وأحاطتها بذراعيها مغمضة عينيها. ثم سمعت قرعاً على الباب. «دكتور! دكتور!، ها قد أتاك الخنزير ورئيسه!». كانت غير قادرة على الكلام مع أحد. لم تقم بحركة وأبقتْ عينيها مغمضتين. ثم سمعت مرة أخرى: «دكتور، الخنازير أتت لتراك». ثم ساد الصمت من جديد.

رجع توماس بعد نصف ساعة. ذهب إلى المطبخ من غير أن ينبس بكلمة لتحضير الحقنة. عندما رجع إلى الغرفة، كانت تيريزا واقفة وكارنينا تبذل جهداً للنهوض. عندما رأت توماس، حرّكَتْ ذنبها بخفة.

«انظر!» قالت تيريزا، «لا تزال تبتسم».

قالت ذلك بلهجة يشوبها التوسل وكأنها أرادت من خلال هذه الكلمات أن تلمّح إلى إرجاء بسيط للإعدام، ولكنها لم تلحّ.

مدّت ببطء شرشفاً على السرير. كان الشرشف أبيض مزيناً برسوم تمثل أزهاراً صغيرة بنفسجية اللون. على أية حال، كانت قد جهزت مسبقاً كل شيء وفكرت في كل الأمور وكأنها تصوّرت موت كارنينا منذ أيام عديدة. (آه! أي هول! نحلم مسبقاً بموتِ مَنْ نحبهم).

لم تكن لديها القوة لتقفز من على السرير فحملاها بين أذرعهما ورفعاها معاً. وضعها توماس على جنبها وفحص لها قائمتها. كان يبحث عن مكان حيث يكون العِرق بارزاً ومرئياً بوضوح. قصّ لها الشعرات بمقص في هذا المكان.

كانت كارنينا راكعة أمام السرير وتحمل في يديها رأس كارنينا ملاصقاً لوجهها.

طلب منها توماس أن تمسك القائمة الخلفية بحزم، وتماماً فوق العرق الذي كان رفيعاً ويصعب أن تُغرز الإبرة فيه. أمسكت برجل كارنينا من دون أن تبعد وجهها عن رأسها. ثم أخذت تتحدث إليها من دون توقف بصوت ناعم، وكانت الكلبة لا تفكر إلاّ فيها. لم تكن خائفة، لحست لها وجهها مرتين، فيما تيريزا همست لها: «لا تخافي، لا تخافي، هناك لن تشعري بالألم، هناك ستحلمين بسناجب وبأرانب برية. وستكون هناك بقرات ومفيستو أيضاً، لا تخافي...».

غرز توماس الإبرة في العرق وضغط على المحقن. فاهتزّت قائمة

كارنينا اهتزازاً خفيفاً، وتسارع تنفّسها ثم توقّف نهائياً. كانت تيريزا ما تزال راكعة على الأرض أمام سريرها وتلصق وجهها برأسها.

وجب عليهما أن يعودا إلى العمل. وبقيت الكلبة ممدّدة على السرير فوق الشرشف الأبيض المزين بأزهار بنفسجية.

رجعا عند المساء. ذهب توماس إلى الحديقة واهتدى إلى خطوط المستطيل الأربعة التي رسمتها تيريزا بين شجرتي التفاح منذ أيام قليلة. وأخذ يحفر مراعياً بدقة المقاييس المرسومة، كان يريد أن يتم كل شيء حسب رغبة تيريزا.

بقيت تيريزا في البيت إلى جانب كارنينا. كانت خائفة من أن يدفنا الكلبة وهي حية، ألصقت أذنها بخطمها فخُيّل إليها أنها تسمع نَفَساً ضعيفاً. ابتعدت فرأت أن صدرها يتحرك قليلاً.

(لا، لم تسمع غير تنفّسها هي، تَنَفّسها الذي ينقل الحركة إلى جسدها هي بطريقة غير مرئية، وفي ظنّها أنّ صدر الكلبة هو الذي يتحرّك!).

عثرت على مرآةٍ في حقيبتها فألصقتها بخطم الكلبة.. كانت المرآة متّسخة جداً فحسبَت أنها ترى البخار المتصاعد من نَفَسِ الكلبة. فصرخت بتوماس الذي كان راجعاً من الحديقة وحذاؤه مكسو بالوحل: «توماس، لا تزال على قيد الحياة!».

انحنى فوق الكلبة وأشار برأسه أن لا.

أمسك كلٌّ من ناحيته بطرف الشرشف حيث كانت كارنينا ممدّدة، تيريزا من جهة القائمتين الخلفيتين وتوماس من جهة الرأس. ثم رفعاها وحملاها إلى الحديقة.

شعرت تيريزا بأنّ الشرشف كان مبتلاً تحت يديها. ففكرت أنَّ الكلبة بمجيئها إلى العالم جلبت معها بركة ماء صغيرة وبرحليها منه

تركت لنا بركة صغيرة. كانت سعيدة بهذه الرطوبة تحت أصابعها وكأنها وداع أخير من الكلبة.

حملاها إلى ما بين شجرتي التفاح وأنزلاها في قعر الحفرة. انحنت لتسوّي الشرشف بشكل يلفّ جسد الكلبة كله. لم تكن تقوى على تحمّل فكرة أنّ التراب الذي سيُلقيانه فوقها سيلامس جسدها العاري.

توجهت بعد ذلك إلى البيت لتعود بالطوق والرسن وحفنة من قطع الشوكولا التي بقيت على الأرض لم تُمس منذ الصباح. ثم ألقت بكل هذا في القبر.

كان إلى جانب الحفرة كومة من التراب المقلوب حديثاً. أمسك توماس بالرفش.

كانت تيريزا تتذكر حلمها الذي أنجبت فيه كارنينا فطيرتين ونحلة.. بدا لها فجأة أن هذه الجملة تشبه كتابة على ضريح. أخذت تتخيل نصباً تذكاريّاً قد أقيم بين شجرتي التفاح نُقِشَ عليه: «هنا ترقد كارنينا. أنجبت فطيرتين على شكل هلالين ونحلة».

بدأ الظلام يشتد في الحديقة. كان الوقت لا نهاراً ولا ليلاً، وظهر قمر شاحب في السماء مثل لمبة قد نُسيت مضاءة في غرفة الموتى..

كان حذاؤهما مغطّى بالتراب. أرجعا المجرفة والرفش إلى السقيفة التي توضع فيها الأدوات من مذارٍ ومعاول ومناشير.

6

عندما كان توماس يجلس أمام الطاولة في غرفته حيث كان يطالع كتباً، كانت تيريزا تأتي لموافاته وتنحني فوقه ضاغطة وجهها على رأسه. عندما قامت بهذه الحركة في ذاك اليوم، لاحظت أنّ توماس لم

يكن يقرأ كتاباً. بل كانت هناك رسالة موضوعة أمامه وكان توماس شاخصاً إليها بنظرة طويلة جامدة مع أنها لا تحوي سوى خمسة أسطر مطبوعة.

قالت تيريزا بقلق: «ما هذا؟».

ودون أن يستدير، أخذ توماس الرسالة وأعطاها إياها. جاء فيها أن عليه أن يذهب في هذا النهار إلى مطار المدينة المجاورة.

عندما أدار أخيراً رأسه ناحية تيريزا، قرأت في عينيه الذعر نفسه الذي أحسّت به للتوّ.

قالت: «سأرافقك».

هزّ رأسه نفياً: «هذه الدعوة لا تخصّ سواي».

ردَّدَت: «لا، أريد أن أرافقك» ثم صعدا في شاحنة توماس.

بعد وقت قليل وصلا إلى مدرج المطار. كان الضباب يلف المكان. كانت تتوالى أمامهما وبطريقة مبهمة أشباح طائرات. كانا ينتقلان من طائرة إلى أخرى ولكن أبواب هذه الطائرات كلها مقفلة ولم يكن هناك من وسيلة للدخول. وأخيراً وجدا طائرة بابها الأمامي مفتوح والسلَّم مُنزل. صعدا الدرجات وظهر مضيف في الباب مُشيراً لهما بالمتابعة. كانت الطائرة صغيرة بالكاد تتسع لثلاثين مقعداً وفارغة تماماً. تقدما عبر الممرّ بين المقاعد وهما لا يزالان متماسكي الأيدي ودون أن يهتما إطلاقاً لما يجري حولهما. جلسا جنباً إلى جنب على مقعدين وألقت تيريزا رأسها على كتف توماس. تبدد الهلع الأولي ليحلّ مكانه الحزن.

الهلع صدمة، لحظة عمى كلّي. الهلع مجرد من أي مسحة جمال. لا نرى خلاله إلاّ النور المبهر للحدث المجهول الذي ننتظره. وخلافاً لذلك، الحزن يفترض مسبقاً أننا نعرفه. كان توماس وتيريزا

يعرفان ماذا كان ينتظرهما. أخذ بريق الهلع يحتجب لينكشف العالم في إضاءة مغبشة وعذبة تجعل الأشياء أكثر جمالاً من ذي قبل.

لحظة قرأت تيريزا الرسالة، لم تكن تشعر بحب لتوماس. كانت تفكر فقط أنه يجب ألا تتركه ثانية واحدة. كان الهلع يخنق كل المشاعر الأخرى وكل الانطباعات الأخرى. الآن وقد التصقت به (كانت الطائرة تحلّق وسط الغيوم) زال الخوف وأحست بالحب. كانت تعرف أنّ هذا الحب لا قياس له ولا حدّ.

حطّت الطائرة أخيراً. نهضا وتوجّها نحو الباب الذي فتحه المضيف. كانا يقفان متعانقين على الدرجات في أعلى السلم. شاهدا في الأسفل ثلاثة رجال يضعون كاغوليات(*) على رؤوسهم ويحملون بنادق في أيديهم.. كان التردد غير مجدٍ لأن لا وسيلة للفرار. نزلا الدرج ببطء. وعندما وضعا أقدامهما على المدرج، رفع أحد الرجال بندقيته وصوّبها. لم تُحدث صوتاً ولكن تيريزا أحست بأنّ توماس الذي كان يلتصق بها منذ دقيقة ويحيطها بذراعيه قد تهاوى ساقطاً على الأرض.

أرادت أن تضمّه إليها ولكنها لم تستطع الإمساك به. سقط على باطون المدرج. انحنت راغبة في أن ترتمي فوقه لتغمره بجسدها، ولكن حدث في هذه اللحظة شيء غريب: أخذ جسده يتضاءل أمام عينيها بسرعة، بسرعة عجيبة لدرجة أنها بقيت جامدة ومسمّرة في مكانها. كان جسد توماس يتقلص أكثر فأكثر حتى لم يشبه توماس بشيء. لم يبق من توماس سوى شيء ضئيل جدّاً. وهذا الشيء الضئيل أخذ يتحرك ثم بدأ يركض فارّاً على مدرج الطائرات.

نزع الرجل الذي أطلق الرصاص قناعه وابتسم بطريقة لطيفة

(*) الكاغولية: جُبّة للرأس لا يبرز منها إلا العينان يلبسها أعضاء الكاغول الإرهابيون.

لتيريزا. ثم التفت وأخذ يلاحق هذا الشيء الصغير الذي كان يركض متعرجاً من هنا وهناك وكأنه يتحاشى أحداً ما ويبحث عبثاً عن ملجأ. دارت المطاردة بضع لحظات، ثم ألقى الرجل بنفسه فجأة على الأرض فانتهت المطاردة.

ثم نهض وجاء إلى تيريزا. كان يحمل لها الشيء في يديه. وكان هذا الشيء يرتجف خوفاً. كان الشيء أرنباً برياً فقَدَّمه إلى تيريزا. عندئذ اختفى الرعب والحزن. سُرّت لأنها أمسكت بهذا الحيوان الصغير بين يديها، حيوان صغير لتمتلكه وتضمه إلى صدرها. . ذرفت الدموع من السعادة. كانت تبكي دون أن تتوقف عن البكاء ولا ترى شيئاً من خلال دموعها. ثم حملت الأرنب البري إلى بيتها وهي تقول في نفسها إنها اقتربت أخيراً من مبتغاها، وإنها كانت حيث ترغب أن تكون وحيث لم يعد هناك داعٍ للهرب.

اتجهت عبر شوارع براغ وبلغت بيتها بسهولة. بيتها الذي عاشت فيه مذ كانت صغيرة. لم يعد أبوها وأُمّها يسكنان فيه. استقبلها عجوزان لم ترهما من قبل ولكنها كانت تعرف أنهما والد جدّتها وأم جدّها. كان وجه كليهما مجعداً كقشرة شجرة، وكانت تيريزا سعيدة لأنها تسكن معهما. ولكنها الآن، رغبت في أن تكون وحدها مع حيوانها الصغير. اهتدت دون صعوبة إلى الغرفة التي كانت تسكن فيها منذ سن الخامسة، حين قرّر والداها أنها باتت تستحق أن تكون لها غرفة خاصة بها.

كانت الغرفة مؤثثة بسرير وطاولة صغيرة وكرسي. على الطاولة كان هناك مصباح مضاء ينتظرها منذ ذلك الوقت. وفوق هذا المصباح كانت تستلقي فراشة جناحاها مفتوحان مزيّنان بعينين كبيرتين ملوّنتين. كانت تيريزا تدرك أنها توشك أن تلامس الهدف. فتمددت على السرير وألصقت الأرنب البري إلى وجهها.

7

كان جالساً أمام الطاولة التي كان يجلس إليها دائماً لقراءة الكتب. . كان أمامه ظرف مفتوح ورسالة. . قال لتيريزا: أتلقّى من وقت لآخر رسالة. . لم أكن أنوي أن أتحدث بشأنها إليك. وهي من ابني. فعلت كل ما في وسعي لأتحاشى أي اتصال بين حياتي وحياته. وانظري بأي طريقة انتقم القدر منّي. فهو قد طُرد من الجامعة منذ بضع سنوات ويعمل الآن سائقاً لشاحنة زراعية في إحدى القرى. صحيح أن لا اتصال بين حياتي وحياته. ولكنهما رُسمتا جنباً إلى جنب في الاتجاه نفسه مثل خطين متوازيين.

قالت تيريزا وكأنَّ حملاً قد أُزيح عنها: ولماذا لم تشأ أن تخبرني عن هذه الرسائل؟

- لا أعرف، كان الأمر يُنفرني.

- وهل يراسلك مراراً؟

- من وقت لآخر.

- وعمَّ يحدثك؟

- عن نفسه.

- وهل مهم ما يقوله؟

- نعم. أمه كما تعرفين كانت شيوعية مسعورة. قطع علاقته بها منذ وقت طويل. وارتبط بأشخاص كانوا في مثل وضعنا. حاولوا أن يقوموا بنشاط سياسي. بعضهم موجود الآن في السجن. ولكنه خاصمهم أيضاً وابتعد عنهم. يصفهم «بالثوار الأبديين»؟.

- هل تصالح مع هذا النظام؟

- لا إطلاقاً، إنه مؤمن ويعتقد أنّ الإيمان هو أساس كل شيء.

وحسب رأيه، كلّ واحد منّا يجب أن يعيش الحياة اليومية وفقاً للقواعد التي نصَّ عليها الدين، دون أن يقيم أي اعتبار للنظام. يجب أن نتجاهل النظام. وحسب رأيه كذلك، إذا كنّا مؤمنين بالله فنحن قادرون بالتالي على أن نُرسي في أي ظرف كان من خلال مسلكنا ما يسمّيه «مملكة الله على الأرض». ويشرح لي أيضاً أنّ الكنيسة هي المؤسسة الاختيارية الوحيدة في بلادنا المتفلتة من رقابة الدولة. مما يجعلني أتساءل هل ممارسته للدّين هي لمقاومة النظام بشكل أفضل أم أنه مؤمن حقاً.

- حسناً! اطرح عليه هذا السؤال!.

تابع توماس: كنت دائماً من المعجبين بالمؤمنين. كنت أعتقد أنهم يملكون الموهبة الخاصة للإدراك الخارج عن النطاق الحسي، والذي امتنع عليّ. ولكني أُدرك الآن، مُتمثّلاً بابني، أنَّ كون المرء مؤمناً أمر سهل جدّاً. فعندما وجد ابني نفسه في موقع حرج اهتمَّ به أُناس كاثوليكيون فاكتشف فجأة الإيمان. ربما قرر ذلك كعرفان للجميل. فالقرارات الإنسانية سهلة بشكل لا يصدق.

- ألم تُجب يوماً على رسائله؟

- لم يكتب عنوانه.

ثم أضاف: «يوجد بالطبع عنوان القرية على ختم البريد. يكفي أن أبعث برسالة إلى التعاونية المحلية».

كانت تيريزا تشعر بالذنب لشكوكها في توماس. وأرادت أن تصلح خطأها باندفاعة كريمة مباغتة نحو ابنه: «لماذا لا تكتب له إذاً؟ لماذا لا تدعوه؟».

قال توماس: إنه يشبهني. عندما يتكلم يقوم تماماً بالتكشيرة ذاتها رافعاً شفته العليا. أنْ أرى فمي بالذات يتكلم عن مملكة الله، يبدو لي أمراً غريباً جدّاً.

انفجرت تيريزا ضاحكة.

وضحك توماس معها.

قالت تيريزا: توماس، لا تكن صبيانيّ التفكير.. إنها حكاية قديمة أنت وزوجتك الأولى. بماذا تعنيه هو هذه الحكاية؟ ما هو الشيء المشترك بينه وبينها! إذا كان ذوقك سيئاً في شبابك، فهل هذا سبب كافٍ لكي تؤذي أحداً ما؟.

- لكي أكون صادقاً معك، هذا اللقاء يجعلني متهيباً. ولهذا السبب بالذات، لا رغبة لي في رؤيته. لا أعرف لماذا كنت عنيداً إلى هذا الحدّ. ذات يوم نأخذ قراراً لا نعرف كيف، فيضع هذا القرار قوة استمراره. ومع كلّ سنة تمرّ يصعب علينا تغييره أكثر.

قالت له: «ادعه لزيارتك!».

حين كان راجعاً بعد الظهر من الإسطبل، سمعَتْ أصواتاً صادرة عن الطريق. عندما اقتربت رأت شاحنة توماس. كان توماس منكباً على معالجة أحد الدواليب، وحوله جماعة تراقبه منتظرة أن ينتهي من التصليح.

كانت جامدة، شاخصة: كان توماس يبدو عجوزاً. كان شعره رمادياً والرعونة التي يتصرّف بها لم تكن رعونة طبيب أصبح سائق شاحنة وإنما رعونة رجل لم يعد شاباً.

فتذكرت مقابلة حديثة العهد مع رئيس التعاونية، قال خلالها إنّ شاحنة توماس في حالة سيئة جداً. قال ذلك على سبيل المزاح وليس على سبيل الشكوى، ولكنه مع ذلك بدا قلقاً. ثم قال وهو يضحك: «توماس يعرف ما في الجسم البشري أكثر مما يعرف ما في المحرّك». ثم أسرّ إليها بأنه قام بعدة إجراءات مع الإدارة لكي يتمكن توماس من ممارسة الطب في المقاطعة. فعلم أن الشرطة لن تسمح له بذلك أبداً.

اختفت خلف جذع شجرة كي لا يراها الرجال المحيطون بالشاحنة ولكنها لم تُشِحْ ببصرها عنهم. كان قلبها مثقلاً بالندم: لقد ترك زوريخ بسببها ليرجع إلى براغ. وحتّى في براغ لم تكفّ هي عن مناكدته، وحتّى أمام كارنينا المحتضرة، كانت قد عذبته بشكوكها.

في صميم أعماقها كانت تلومه دائماً على عدم محبته لها بما فيه الكفاية. كانت تعتبر حبها له فوق كل ملامة بينما حبه لها كان تنازلاً بسيطاً.

ها هي ترى الآن كم كانت ظالمة بحقه: لو أنها كانت تحب فعلاً توماس هذا الحب الكبير، لبقيت معه في الخارج! هناك كان توماس سعيداً وكانت حياة جديدة تُفتح أمامه! وهي تركته وذهبت! بالطبع كانت مقتنعة آنذاك بأنها تتصرف بمروءة كي لا تكون عبئاً عليه. ولكن هذه المروءة، هل كانت شيئاً آخر سوى خدعة؟ فهي كانت تعرف أنه سيعود لموافاتها! استدعته لتجذبه أكثر فأكثر نحو الأسفل كما تجذب الساحرات المزارعين إلى الأمكنة السّبخة وتتركهم يغرقون هناك.. ثم استغلّت لحظة مغصٍ أصيب به في معدته لكي تبتز منه وعداً بالذهاب سوية للعيش في الرّيف! كم كانت محتالة! كانت قد نادته ليلحق بها وها إنها في كلّ مرة تضعه قيد التجربة لكي تتأكد من أنه يحبها. نادته إلى أن وجد نفسه هنا: غزاه الشيب، متعب، أصابعه المتصلبة لم يعد باستطاعتها قط أن تمسك بمبضع الجرّاح.

ها قد وصلا إلى نهاية المطاف، إلى أين بإمكانهما الذهاب بعد؟ لن يُسمح لهما أبداً بالذهاب إلى الخارج. وليس في إمكانهما أيضاً الرجوع إلى براغ لأن لا أحد سيمنحهما عملاً. وماذا يفيد الذهاب إلى قرية أخرى!

يا إلهي، أكان الأمر يقتضي فعلاً المجيء حتى هنا لكي تتيقّن من حبّه لها!

نجح توماس أخيراً في معالجة دولاب الشاحنة. فقفز الصبية على جوانب الشاحنة ودوّى المحرّك.

رجعت إلى البيت واستحمّت. كانت تتمدد في المياه الساخنة وتفكر أنها استغلّت طوال حياتها ضعفها لتواجه توماس. كلنا نميل لأن نرى في القوة مذنباً وفي الضعف ضحية بريئة. ولكن تيريزا فهمت الآن: كان العكس هو الصحيح في مثل وضعها. حتى أحلامها كانت، وكأنها عارفة بنقطة الضعف الوحيدة عند هذا الرجل القوي، تعرض له مشاهد عن عذاب تيريزا لتُجبره على التراجع! كان ضعف تيريزا ضعفاً عدائياً يجبره في كلّ مرة على الرضوخ. إلى أن جاء الوقت الذي كفّ فيه عن أن يكون قوياً وتحوّل إلى أرنب بين يديها. كانت تفكر طوال الوقت في هذا الحلم.

خرجت من المغطس وذهبت لترتدي فستان سهرة. كانت تريد أن تكون في أبهى حلّة لتعجبه وتُدخل المسرّة إلى قلبه.

كانت تزرِّر الزرّ الأخير عندما ظهر توماس فجأة في البيت يتبعه رئيس التعاونية ومزارعٌ شاب شاحب الوجه بشكل واضح.

قال توماس: «قليلاً من الشراب، بسرعة! قليلاً من مشروب قوي جداً!».

ركضت تيريزا لكي تفتش عن قنينة من مشروب الخوخ. سكبت من هذا المشروب في قدح، فأفرغه الرجل الشاب في جوفه دفعة واحدة.

في أثناء ذلك، كان يشرح له ما حدث: خلع الرجل الشاب كتفه أثناء العمل فصرخ زاعقاً من الألم. لم يكن أحد يعرف ماذا يفعل. ثم نودي على توماس الذي أرجع بضربة واحدة كتفه إلى مكانها.

شرب الرجل الشاب قدحاً آخر، ثم قال لتوماس:

- زوجتك رائعة جداً، اليوم.

قال الرئيس: «أيها الغبي، السيدة تيريزا هي دائماً جميلة».

قال الشاب: «أعرف أنها جميلة دائماً. ولكنها اليوم وضعت ثوباً جميلاً فصارت أجمل من كل الأيام. لم نركِ من قبل في هذا الثوب، هل أنت ذاهبة في زيارة؟».

- لا، ارتديته من أجل توماس.

قال الرئيس: «أنت محظوظ يا دكتور. زوجتي ليست تلك السيدة البورجوازية التي تلبس أزهى الثياب لكي تسرَّني».

قال الشاب: «إذاً، من أجل هذا تخرج مع خنزير بدل أن تخرج مع زوجتك». وضحك طويلاً.

قال توماس: كيف حال مفيستو. لم أره منذ، على الأقل... (بدا وكأنه يفكر) ساعة.

قال الرئيس: «أخذ يضجر مني».

قال الرجل الشاب لتيريزا: «عندما أراك في هذا الثوب الجميل أشعر برغبة في الرقص معك. هل ستتركني أرقص معها يا دكتور؟».

فقالت تيريزا: «جميعنا سنذهب إلى الرقص».

قال الفتى لتوماس: «هل تأتي معنا؟».

سأل توماس: «إلى أين؟».

أشار الفتى إلى بلدة في الجوار يوجد فيها فندق وحانة وحلبة للرقص.

ثم قال الرجل الشاب للرئيس بلهجة قاطعة: «تأتي معنا». وبما أنه كان يشرب كأسه الثالثة من مشروب الخوخ، أضاف: «إذا كان مفيستو كئيباً، فلنصطحبه معنا! وهكذا سنذهب برفقة خنزيريْن! وكلّ الجميلات

سيقعن أرضاً لدى رؤيتهن خنزيرين قادمين باتجاههن!». ثم أطلق ضحكة طويلة.

قال الرئيس: «إذا كان مفيستو لا يزعجكم، سأصطحبه معي». ثم صعد الجميع في الشاحنة.

جلس توماس وراء المقود، وجلست قربه تيريزا. أما الرجلان الآخران فأخذا مكانيهما في الخلف، مع قنينة شراب نصف فارغة. كانا قد غادرا القرية عندما تذكّر الرئيس فجأة أنه نسي مفيستو في البيت. فصاح بتوماس ليقفل راجعاً.

فقال الرجل الشاب: «لا داعي لهذا العناء، خنزير واحد يكفي». فهدأ الرئيس.

كان النهار يشرف على الانتهاء. وكانت الطريق تبدو متعرجة.

وصلوا إلى المدينة وتوقفوا أمام الفندق. لم يكن توماس وتيريزا قد قصداه من قبل. كان هناك درج يؤدي إلى تحت الأرض حيث توجد حانة وحلبة رقص وبضع طاولات. كان هناك رجل ستّيني يعزف على بيانو ترافقه على الكمان سيدة في مثل سنّه. كانا يعزفان أنغاماً تعود إلى أربعين سنة.. وكان هناك أربعة أو خمسة أزواج يرقصون على الحلبة.

جال الرجل الشاب الصالة كلها بعينيه ثم قال: «ليست هناك أية واحدة من أجلي هنا!». ودعا حالاً تيريزا إلى الرقص.

جلس الرئيس وتوماس إلى طاولة فارغة، وأمر بزجاجة نبيذ.

اعترض توماس: «لا يمكنني أن أشرب. فأنا أقودا».

قال الرئيس: «وماذا بعد؟ سنمضي الليلة هنا. سأحجز غرفتين».

عندما رجعت تيريزا مع الشاب من الحلبة، دعاها الرئيس للرقص. ثم رقصت أخيراً مع توماس.

قالت له وهما يرقصان: «توماس، أنا السبب في كل سوء لحق بك. بسببي أنا جئت إلى هنا. أنا التي أنزلتك إلى هذا المستوى المنحطّ، الذي لا يوجد ما هو أسفل منه».

فاعترض توماس قائلاً: «لا بدّ أنك تهذين. ثم ماذا تعنين بقولك «ما هو أسفل منه؟»».

- لو أننا بقينا في زوريخ لكنتَ الآن تُجري العمليات لمرضاك.

- ولكنتِ أنتِ تلتقطين الصور.

فقالت تيريزا: «لا يمكننا المقارنة. بالنسبة لك عملك يهمك أكثر من أيّ شيء في العالم. أما أنا فيمكنني أن أقوم بأي شيء ولا أبالي. أنا لم أخسر شيئاً. أنت من خسر كلّ شيء».

قال توماس: «تيريزا، ألم تلاحظي أنني سعيد هنا؟».

- كانت رسالتك أن تقوم بإجراء العمليات.

- رسالة؟ تيريزا، إنّ ما تقولينه شيء تافه. لا رسالة لي. ولا أحد يملك رسالة. إنها لتعزية لا تقدّر بأن نشعر بأننا أحرار وأن لا رسالة لدينا.

استناداً إلى لهجته، بدا مستحيلاً أن نشكّ في صدقه. استعادَتْ مشهد بعد الظهر: كان يعالج الشاحنة فاكتشفت أنه صار عجوزاً. ها قد وصلت إذاً إلى مبتغاها: كانت قد رغبت دائماً في أن يصير عجوزاً. وفكرت مرة أخرى في الأرنب الذي ألصقته إلى وجهها في غرفتها التي كانت تعيش فيها عندما كانت صغيرة.

لكن ماذا يعني هذا؟ ماذا يعني أن نتحول إلى أرانب؟ هذا يعني أن ننسى قوتنا. هذا يعني أنه لم تعد لدينا القوة، لا نحن ولا الآخر.

كانا يروحان ويجيئان مؤدّين حركات راقصة على أنغام البيانو والكمان. كانت تيريزا تلقي رأسها فوق كتفه. وكما في الطائرة التي

حملتهما عبر الضباب، كانت تشعر الآن بالسعادة الغريبة نفسها، وبالحزن الغريب نفسه. وهذا الحزن، كان يعني: «لقد أصبحنا عند المحطة الأخيرة»، وهذه السعادة تعني: «إلا أننا ما زلنا سوية». كان الحزن هو القالب/ والسعادة هي المحتوى، والسعادة تملأ مساحة الحزن.

رجعا إلى طاولتهم. ثم رقصت أيضاً مرتين، مرّة مع الرئيس ومرّة مع الشاب الذي كان ثملاً إلى درجة أنه تهاوى على الحلبة.

ثم صعد الأربعة ودخلوا إلى غرفهم.

أدار توماس المفتاح وأضاء الثريا. رأت سريرين متلاصقين وقربهما طاولة سرير وفوقها مصباح. طارت فراشة ليليّة كبيرة مذعورة من الضوء عن الأباجور، وأخذت تحوم في الغرفة. من الأسفل كان يتناهى إلى سمعهما الصدى الخافت لعزف البيانو والكمان.

المحتويات

القسم الأول: الخفّة والثقل 5

القسم الثاني: الروح والجسد 39

القسم الثالث: الكلمات غير المفهومة 77

القسم الرابع: الروح والجسد 129

القسم الخامس: الخفّة والثقل 171

القسم السادس: المسيرة الكبرى 245

القسم السابع: ابتسامة كارنينا 281

ميلان كونديرا

كائن لا تُحتمل خفّته

تبدو حياة توماس وتيريزا، وفرانز وسابينا، برقّتها وفجورها، بإنسانيتها ووحشيتها، بما تقبل وما ترفض... تدور حول فكرة أساسية: السيطرة.

السيطرة هي أهم ما يسعى إليه الإنسان، وقد جاء في أوّل سفر التكوين أن الله خلق الإنسان وجعله يسيطر على الطيور والأسماء والماشية.

تستدرج تيريزا توماس إلى فخّ الشفقة والإحساس بالذنب، مما يجعله مستعداً لتلبية رغباتها. وتجرّ سابينا فرانز القوي البنية لتسيطر على مشاعره، ثم تهجره بسبب ضعفه. وتستخدم السلطة كل الأدوات لإضعاف المجتمع والسيطرة عليه نهائياً. ويستخدم المناضل الشعارات الطنّانة، ليقدّم نفسه كمثال. رغم الثمن الذي قد يدفعه.

في هذه الرواية التي تعتبر أهمّ أعماله، يواجه كونديرا الأوهام: وهم المسيرة الكبرى، وهم السير إلى الأمام، وهم الحبّ البريء...

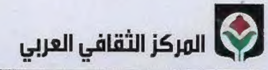
وعلى خلفية الاجتياح الروسي لتشيكوسلوفاكيا عام 1968، وأفكار الشيوعية "التي تلغي الصراع في المجتمع" والديمقراطية "التي تحرر الإنسان" يطرح كونديرا أسئلة كثيرة.

هل الثقل حقاً فظيع؟ وجميلة هي الخفّة؟

ماذا علينا أن نختار، الخفّة أم الثقل!

ديكتاتورية البروليتاريا أم الديمقراطية؟ المقصلة أم إلغاء عقوبة الإعدام؟ رفض المجتمع الاستهلاكي أم زيادة الإنتاج؟

إنها رواية، تُقرأ، ثم تُقرأ، لعدّة مرات، وفي كل مرة نكتشف أنها تلامس شيئاً فينا.



الدار البيضاء: ص.ب 4006 (سيدنا)
بيروت: ص.ب 113/5158
markaz@wanadoo.net.ma
cca_casa_bey@yahoo.com

ISBN 978-9953-68-271-6
